دار الجيدة للنشر والتوزيع

مكتبة

رواية | سلسلة روايات دار الجيدة

مذكرات براس كوباس بعد الموت

ماشادو دي أسيس

ترجمتها عن الإنجليزية:
نور طلال نصرة

مذكرات براس كوباس

بعد الموت

جواكيم ماريا ماتشادو دي أسيس

ترجمة: نور طلال نصرة

مكتبة
t.me/soramnqraa

جواكيم ماريا ماتشادو دي أسيس – مذكرات براس كوباس بعد الموت

- ترجمة : نور نصري
- الطبعة الأولى ٢٠١٩

- © حقوق الطبع محفوظة ٢٠١٩

مكتبة
t.me/soramnqraa

دار الجيدة للنشر والتوزيع
www.DarAlJaidah.com

الأردن، عمان، شارع الملكة راينا، عمارة البيجاوي (٦٩) ط ٥

هاتف: ٧٩٦٥٠٩٧٣٧ (٩٦٢+)

E.mail: info@daraljaidah.com

www.daraljaidah.com

الغلاف والإخراج الفني: عبدالهادي نافع البرغوثي

مكتبة
t.me/soramnqraa

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوي مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية الأردنية (٢٠١٩/١٠/٥٢٣٥)

ISPN:978-9923-756-02-7 (ردمك)

كلمة الناشر

تسعى « دار الجيدة» إلى تحقيق مفهوم جديد لثنائيَّة الكتابة والنَّشر؛ مفهوم يتجاوز معيار الرقيب العربيّ الذي تَفوَّق على جوبلز، ويتجاوز المعيار السّائد لدى النّاشر العربيّ في نشر نصوص داجنة توفِّر الإشباع الوهمي للقرّاء الذين يعانون من وقت فراغ زائد، فتتحوّل المعرفة لديهم إلى تسلية.

وتطمح « دار الجيدة» إلى إحداث جراحة تجميلية في سوق النشر تَنعتِق من النشر الدعائي والاسترضاء النرجسي، والدخول إلى مساحة جديدة من الأفكار التنويريَّة الحيّة، والنصوص المليئة بالنضج والاكتمال، التي تواجه أسئلة الحياة فيما تتبنّاه من أعمال عربية وعالميّة.

في هذه الرواية يعيش براس قصتا حب، الأولى في شبابه قبل أن يرسله والده إلى البرتغال ليدرس في كويمبرا، يقع في حب مرسيلا التي تستغله لتحصل على أكبر قدر من المجوهرات ومن ثروة عائلته. والقصة الثانية هي حبّه لفيرجيليا التي أراد له والده الارتباط بها بعد عودته من البرتغال لسببين؛ الأول أنها ابنة وزير وهذا سيساعده في الوصول اسرع إلى مجلس النوّاب، والسبب الثاني أنها فتاة جميلة وتناسب منصبه ومستواه الاجتماعي. لكن هذا الزواج لا يتم لتتزوج فيرجيليا من رجل آخر، إلاّ أنهما يلتقيا بعد سنوات ليعيشا قصة حب عنيفة وجارفة ويفتضح أمرهما في أوساط المجتمع. ويخسر براس ترشحه في مجلس النوّاب وتصيبه خيبة أمل كبيرة بخسارته لكرسي المجلس للمرة الثانية.

لغة الرواية ساخرة، عميقة، مكثفة وغامضة في بعض الفصول، يتناول الكاتب كل المشاعر الإنسانية من حب وتعاطف وأنانية واستغلال وانتهازية ، الطمع، الجشع، الخيانة.

الرواية حافلة بالميثولوجيا ومليئة بالشواهد التاريخية لأباطرة روما، كما تزخر بالثقافات والفلسفات والأديان الشرقية (الأنبياء محمد، عيسى، موسى، ابراهيم، حزقيال) كما يستشهد بكتاب ألف ليلة وليلة ومدينة بغداد، ويذكر دمشق مستشهداً بجملة السيد المسيح عندما يقول لشاول " انهض واذهب إلى المدينة" الاصحاح التاسع، أعمال الرسل. بالإضافة للعديد من الشعراء والأدباء والملاحم.

ابراهيم خليل الجيدة

الإهداء

إلى الدودة التي اقتاتت
من لحم جثّتي البارد
أهديها هذه المذكّرات
بعد وفاتي
كذكرى أثيرة.

الضّماد

حدث ذلك في صباح أحد الأيام، وأنا أجوب المكان، اعترضتني فكرة ما، طرقت مخيلتي بقوة، وبمجرّد أن علقتْ، بدأتْ تتأرجح في عقلي ثم لوّحتْ بيديها وقدميها وقامت بحركات بهلوانية جريئة لا يمكن تخيّلها.

وقفتُ أتأملّها، وفجأة قفزتْ أمامي قفزة كبيرة، فاتحة يديها وقدميها حتى أصبح شكلها كحرف (إكس) قائلة: اكتشفني أو سألتهمك. لم تكن تلك الفكرة سوى اختراع علاج ساميّ، هذا العلاج هو ضماد لمرض الوهم [1]، مُعدّ لتخفيف كآبتنا البشرية. قمتُ بصياغة طلب براءة الاختراع ثم قدّمتُ هذا المستحضر المسيحي [2] ليحظى باهتمام حقيقي من الحكومة. ولم أُخفِ الأمر عن الأصدقاء، فالحوافز المالية اللازمة من شأنها أن تؤدي دوراً مهماً في توزيع المنتج على نطاق واسع وبنتائج فعّالة. لكنني الآن في الجانب الآخر من الحياة ويمكنني أن أعترف بكل شيء: إن أكثر ما أثّر فيّ هو متعة مشاهدة ثلاث كلمات مطبوعة في الجرائد وعلى رفوف المتاجر وفي الكتيّبات وفي زوايا الشوارع، وأخيراً على صناديق الأدوية، هذه الكلمات الثلاث هي: ضماد براس كوباس. لماذا أنكر ذلك؟ كان لديّ شغف بالدعاية الصاخبة وبالأفعال المثيرة وأضواء الشهرة. ربما سأتعرض للملامة من أغلب الأشخاص المحتشمين بسبب هذه السّمة التي يعتبرونها عيباً. ومع ذلك فأنا واثق من أنّ الأشخاص الأذكياء سيقدّرون موهبتي. لذلك فإن فكرتي تحمل وجهين، كالميدالية الذهبية، وجه للعامّة ووجه خاص لي. في الوجه الأول: العمل الخيري والربح. وفي الوجه الثاني: التوق للشهرة. دعونا نقول: حبّ المجد.

كان يروق لعمّي، وهو كانون [3] ويتمتّع بصلاحيات كاملة على أوقاف الكنيسة، القول إن حبّ المجد المؤقت هو هلاك للأرواح، وأن ما يجب أن يشتهيه الإنسان هو المجد الأبدي فقط. إلّا أنّ عمّي الآخر وهو ضابط في أحد أفواج المشاة القديمة التي تسمّى « تيركوس» كان يرد قوله إنّ حُبّ المجد من أكثر الأشياء حقيقة في الكائن البشري، وبالتالي فهي السمة الأكثر صدقاً على الإطلاق.

دعوا القارئ يقول كلمته الفصل بين الرّجل العسكري وبين الكاهن.... وأنا بدوري سأعود إلى اختراعي.

---

١ مرض الوهم: ويسمى أيضاً مرض المُراق، ويعني توهم المرض ويكون صاحبه يعاني من حالة وسواس دائمة.

٢ الإشارة إلى مسيحية هذا الضماد على أنه علاج سامي كالعلاج الذي أتى به المسيح لمشاكل البشرية جمعاء.

٣ كانون: أحد الرتب الكهنوتية في الكنيسة الكاثوليكية، يكون عضواً في بعض الهيئات الخاضعة لحكم الكنيسة.

t.me/soramnqraa مكتبة

السلالة

ها أنا الآن بعد أن أشرتُ إلى أعمامي، دعوني أخبركم بملخص بسيط عن سلالتنا.

إن مؤسس عائلتي هو دامياو كوباس، الذي لمع اسمه في النصف الأول من القرن الثامن عشر، كان يعمل في صناعة وتجارة البراميل، وهو من سكان ريو دي جانيرو الأصليين، حيث كان سيموت في حالة فقر وبؤس لو أنّ عمله اقتصر فقط على صناعة البراميل، لكنه في حقيقة الأمر لم يكن كذلك، لأنه امتهن الزراعة، بذر المحاصيل وحصدها حتى وفاته وقايض محاصيله بسلع وعملات نقدية فضيّة من فئة باكاتاس، تاركاً إرثاً ثميناً لابنه الجامعيّ لويس كوباس. مع هذا الشاب بدأت تتشكّل السلالة الحقيقية للعائلة وهذا ما يعترف به أجدادي، لأن دامياو كوباس– بالرغم من كل شيء– كان صانع براميل وقد يكون صانعاً سيئاً، في حين أن لويس كوباس درس في كويمبرا وكان شخصاً بارزاً في شؤون الدولة، وصديقاً مقرباً من نائب الملك الكونت « دي كونها».

ولأن لقب كوباس الذي يعني صانع براميل، لقب لا يليق بشخص مثل أبي، حفيد دامياو الشهير، قام بالادّعاء أن الاسم المذكور آنفاً قد تم منحه لأحد أفراد العائلة وهو مُحارب من أبطال الحملات الإفريقية، كمكافأة على نجاحه في القبض على ثلاثمائة برميل من البرابرة. كان والدي رجلاً ذا مخيّلة؛ استخدمها ليتخلّص من لقب صانع البراميل على أجنحة المجاز اللفظي. وكان شخصاً طيباً ورجلاً فاضلاً ومخلصاً كقلّة قليلة، لا أنكر أنّه كان لديه نوع من المغالاة في حديثه عن نفسه، وكان محقاً في ذلك، فمَن في هذا العالم لا يملك هذه الخصلة؟ لكن تجدر الإشارة إلى أنّه لم يلجأ قط إلى الاختلاق إلّا في محاولة تزييف الاسم تلك، عندما ادّعى أنّ الملازم أول براس كوباس الذي أسس بلدة ساو فايسنتي وتوفي هناك عام ١٥٩٢، من شجرة العائلة، وهو الذي ألقى القبض على الثلاثمائة برميل من البرابرة ، لهذا أطلقَ عليّ والدي اسم براس، إلّا أنّ عائلة الملازم دحضت ادعاءات والدي.

وما يزال بعض أفراد عائلتي على قيد الحياة، ابنة أختي، فينيسيا، على سبيل المثال، وزنبق الوادي، الذي كان الورد المفضل للسيدات في ذلك الزمن. ووالدها كوتريم، الذي ما يزال على قيد الحياة وهو زميل في....

لكن دعونا نتوقف هنا ولا نخوض أكثر في مجريات الأمور، دعونا نتوقف عند الضماد لمرة أخيرة وإلى الأبد.

الفكرة المسيطرة

« هاجس القلق»

أصبحت فكرتي بعد عدّة وثبات وقفزات « هاجساً للقلق» فليحفظك الرّب عزيزي القارئ من هاجس قد يكون بحجم ذرّة في العين. انظر إلى كافور[١]، لقد قتله هاجس توحيد إيطاليا. صحيح أنّ بسمارك لم يمُت بهاجس القلق لكن يجب أن نكون يقظين إلى أن الطبيعة متقلبة بشكل رهيب، وأن التاريخ مزيّف منذ الأزل. فعلى سبيل المثال: سويتونيوس[٢] هو من قدّم لنا كلاوديوس[٣] الذي كان مجرّد مغفّل أو « رأس قرع « كما أسماه سينيكا [٤] وقدّم لنا أيضاً تيتوس[٥] الذي حظي باحتفاء روما كلّها. إلّا أنّ أحد الأساتذة في العصور الحديثة، قام ببحث حثيث ووجد مدخلاً ليشرح لنا أنّ « رأس قرع» سينيكا – من بين القيصرين– هو من يمثل مجد روما الحقيقي.

وأنت يا سيدة لوكريزيا[٦]، يا زهرة عائلة البورجيا، إن قام شاعر بتصويرك مثل مسالينا الكاثوليكية[٧] فإن الأمر سيثير شكوك غريغورفيوس [٨] الذي حاول جاهداً أن يخمد فيك هذه الخصلة، فإن لم تكوني زنبقة فأنت لست مستنقعاً على كل حال. وهنا سأتخذ موقفاً بين الشاعر والعالم. لذلك، فليحيا التاريخ، تاريخ دوّار ينفع لكل شيء ويعيدنا إلى الهاجس ذاته، دعوني أقول إنّ ذلك ما ينتج رجالاً أقوياء ورجالاً مجانين. إن هذه الفكرة المتنقلة، الغامضة أو المتغيّرة هي ما أسفرت عن نشوء كلاوديوس وفقاً لصيغة سويتونيوس.

---

١ كافور: قيادي بارز في حركة توحيد إيطاليا، وهو أول رئيس وزراء لإيطاليا.

٢ سويتونيوس: مؤرخ روماني، ولد عام ٦٩ بعد الميلاد في الجزائر، وأرّخ تاريخ الإمبراطورية الرومانية وخصوصاً في عصر يوليوس قيصر.

٣ كلاوديوس: إمبراطور روماني، هو عم كاليغولا، ويقال إنه كان مشوّهاً نوعاً ما، كان يعرج وينطق بفأفأة ويرتعش، وكان كاليغولا يسخر منه دوماً.

٤ سينيكا: فيلسوف ومسرحي وكاتب روماني.

٥ تيتوس: إمبراطور روماني، كان قائداً عسكرياً بشهرة كبيرة قبل أن يصبح إمبراطوراً. أنشأ أخوه الإمبراطور دوميتان قوساً أثرياً كذكرى لانتصارات أخيه تيتوس بعد وفاته ويحتفل به حتى يومنا هذا في روما.

٦ لوكريزيا: هي ابنة غير شرعية لـ رودريغو بورغيا، الذي أصبح فيما بعد البابا الكسندر السادس، كانت حسناء جداً واتهمت بتهم شنيعة من الناحية الأخلاقية والعاطفية والسياسية.

٧ مسالينا: هي فاليريا مسالينا، الزوجة الثالثة للإمبراطور الروماني كلاوديوس، كانت سيئة السمعة.

٨ غريغورفيوس: هو نجل أحد أعضاء مجلس مقاطعة نيدنبورغ، وقد ولد فيها وهي مقاطعة شرق بروسيا (في بولندا حالياً)، درس اللاهوت والفلسفة في كونيغسبرغ، وانتقل إلى إيطاليا عام ١٨٥٢ وأقام فيها لأكثر من عشرين عاماً وفي عام ١٨٧٦ أصبح مواطناً فخرياً في روما، وكان أول ألماني يحصل على هذا الشرف. كتب سير ذاتية للبابا ألكساندر السادس ولوكريزيا بورغيا، بالإضافة إلى أعمال عن التاريخ البيزنطي وأثينا في العصور الوسطى، وترجم الكتّاب الإيطاليين إلى الألمانية.

لقد أصبحت فكرتي ثابتة، ثابتة مثل...لا يمكنني تخيّل أي شيء ثابت كفاية في هذا العالم. ربما يكون القمر، أو ربما أهرامات مصر، وربما موتى الحمية الألمانية هم الثابتون فقط. دع القارئ يجد المقارنة الأنسب، دعه يجدها، وألا يقف هناك نائياً بنفسه فقط لأننا لم نصل إلى المقاطع السردية في هذه المذكرات. سنصل إلى المقاطع السردية أيّها القارئ، أعتقد أنّك تفضّل الحكايات بدلاً من طرح الأفكار، كجميع القرّاء من رفاقك، وأعتقد أنّك محق، لذلك دعونا نكمل في هذا الأمر. لا بد من القول إن هذا الكتاب قد كُتب بأسلوب رجل لا مبالٍ، رجلٍ تحرر الآن من اختصارات هذا العصر في الكتابة، فهذا الكتاب عمل فلسفي محض، لفلسفةٍ غير متكافئة، فلسفة صارمة، هازلة، ليست بنّاءة ولا هادمة، ليست متقدة وليست باردة، حتى الآن. إنها أكثر من مجرد تسلية وأقل من كونها رسالة.

دعونا نمضي، صحّح وجهتك أيّها القارئ ودعنا نعود إلى فكرة الضماد. دعنا نتجاهل التاريخ ونزواته المغرية كما يتجاهل رجلٌ سيدة فاتنة. إننا أبرياء، لم يحارب أحد فينا في معركة سالامينا[1] أو يشارك في كتابة إقرار أوكسمبورغ[2] ومن ناحيتي، إذا كان بالإمكان تذكّر كرمويل[3] فذلك لمجرّد فكرة أن سُموّه قد يفرض ضماد براس كوباس على الإنكليز باليد ذاتها التي أغلق بها باب البرلمان. لا تسخر عزيزي القارئ من هذا الانتصار المشترك للطب الصيدلي وللتطرف في آن معاً. وهل ثمة أحد لا يعلم أنه خلف كل راية عظيمة ولامعة يوجد غالباً رايات سرية تظهر وترفرف في ظل الراية الأولى وفي مرات كثيرة تدوم أكثر منها؟ إن القيام بمقارنة غير متكافئة هو أشبه بحشد رعاع يعيشون في كنف قلعة إقطاعية، وعندما تسقط القلعة، يبقى الرعاع. في الحقيقة يصبحون حكّام القلعة وأسيادها، كلا، إنها ليست مقارنة متكافئة.

***

١ معركة سالامينا: معركة بحرية وقعت بالقرب من بحر إيجة في مضيق سالاميس بين البر اليوناني وجزيرة سالاميس بالقرب من أثينا وكانت المعركة بين تحالف المدن اليونانية القديمة وبين الإمبراطورية الفارسية عام ٤٨٠ ق.م. وكانت النتيجة لصالح اليونان.

٢ إقرار أوكسمبورغ: يعرف أيضاً باسم إقرار أوغست، وهو أول عرض رسمي لمبادئ حركة الإصلاح وأهداف المصلحين البروتستانية الذي أطلق عليه اسم اللوثرية، وصدر عام ١٥٣٠ من قبل فيليب ملانكتون. ويعتبر واحداً من النصوص الأساسية للكنائس البروتستانية في جميع أنحاء العالم حتى يومنا هذا.

٣ كرمويل: (١٥٩٩- ١٦٥٨) قائد عسكري وسياسي إنكليزي، اعتبره نقّاده أحد القادة الديكتاتوريين، هزم الملكيين في الحرب الأهلية الإنكليزية وحوّل إنكلترا إلى جمهورية، وكان رئيساً للدولة ورئيساً لحكومة الجمهورية الجديدة في وقت واحد.

في لحظة ظهورها

أصبتُ بالمرض في الفترة التي كنت مشغولاً فيها بتحضير وتنقيح اختراعي، كنت مستغرقاً في تخطيط محكم و لم أعتنِ بنفسي كما يجب، كانت فكرة الضماد تستحوذ على تفكيري، ويسكنني هاجس القلق من الجنون والقوّة. رأيتُ نفسي من مسافة بعيدة، أرتفع عالياً عن الغوغاء التي تملأ الأرض وأتسلّق السمّاء كنسرٍ خالد، وفي حضرة هذا المشهد الضخم لا يمكن لأحد أن يشعر أن ثمة ألماً يطعنه. وفي اليوم التالي، ازداد وضعي سوءاً، فعلتُ شيئاً حيال الأمر في النهاية لكن بطريقة ناقصة، دون وجود نظام أو اهتمام أو متابعة من أي أحد. هذه هي حقيقة المرض الذي نقلني إلى الخلود. لقد علمتم للتو أني غادرت هذه الحياة في يوم الجمعة، في يوم عاثر الحظ، وأعتقد أني أظهرت أنّ اختراعي هو من قتلني. لكن البراهين على ذلك لم تكن واضحة بما فيه الكفاية. ومع ذلك – بالنسبة لي– لم يكن الأمر مستحيلاً أن أبلغ أوج العصر، وأن أتصدّر صفحات الجرائد كشخصية عظيمة. لقد كنت قوياً وبصحّة جيّدة لكن لم أستغل هذا. فلنتخيّل ذلك، بدلاً من أن أنشغل بوضع أساسيات لاختراع دوائي، كنت أحاول أن أؤسّس لتوجُّه سياسي أو لإصلاح ديني ثم جاء التيّار السائد وتغلّب بفعاليّة على الرؤية الإنسانية وسحق كل شيء. هكذا يمضي الإنسان لمصيره. ومع هذه الأفكار سمحتُ للمرأة بالدخول، لن أقول شيئاً سرّياً عنها بل سأقول أمراً يعرفه الجميع وهو أنه كانت الأجمل بين أقرانها. كانت تتمتّع بمخيّلة كمخيّلة لقالق نهر إليسوس. كانت عبارة عن حطام، في الرابعة والخمسين من عمرها، لكنه حطام مُشرق.

دع القارئ يتخيّل أننا كنا في علاقة حب، هي وأنا، وقبل سنوات من ذلك وفي أحد أيام مرضي، رأيتها تقف أمامي عند باب غرفة نومي.

***

هل كان وهماً، مَن قال ذلك؟

ومن سيصدقك يا رودريغو؟

رأيتها تظهر عند باب غرفة نومي، شاحبة، مرتبكة، بثياب سوداء، بقيت واقفة عند الباب لبرهة دون أن تمتلك شجاعة الاقتراب، أو قد يكون السبب وجود رجل آخر معي. تأملتها وأنا مستلق في فراشي طوال الوقت، متجاهلاً قول أي شيء لها أو الإتيان بأية حركة أو إيماءة. لم نتقابل منذ عامين، وفجأة رأيتها أمامي الآن، لم أرها كما هي، بل رأيتها كما كانت في الماضي، كما كنّا كلانا، لأن شيئاً من غموض حزقيال جعل الشمس تشرق من جديد على الأيام الخوالي. أشرقت الشمس وأزاحت عني كل المآسي، كانت حفنة التراب التي على وشك أن يبددها الموت في العدم الأبديّ أقوى من الزمن، الزمن الذي هو سيّد الموت. صدقوني ليس هناك ما هو قادر أن يروي حنين الشباب إلى الماضي فالتذكّر هو الشّر الأصغر، ويجب ألّا يثق أحدنا بالسعادة الآنية، فهي تحتوي على جرعة من لعاب قابيل. ومع مرور الوقت وذبول النشوة، نعم، بعد ذلك قد تكون المتعة ممكنة لأنه بالمقارنة بين هذين الوهمين (الوقت والنشوة)، أفضلهما هو ذلك الذي يحقق متعة دون ألم.

لم تدم طويلاً استعادة الذكريات، فقد طغت الحقيقة على الموقف مباشرة، وقذف الحاضر الماضي بعيداً عن المشهد، ربما سأشرح للقارئ في بعض زوايا هذا الكتاب نظريتي حول نسخ الكائن البشري. ما يهمنا الآن هو فيرجيليا، اسمها فيرجيليا، دخلت الغرفة بخطوة واثقة، ووقار منحها إياه لباسها وسنين عمرها التي مضت، اقتربت من سريري فنهض الرجل الذي كان بجانبي ورحل. كان صديقاً لي وكان يزورني كل يوم، نتبادل الأحاديث حول أسعار العملات، والمستعمرات والحاجة لتطوير السكّة الحديدية، فلا توجد اهتمامات أكثر لرجل يموت. غادر الرجل، ووقفت فيرجيليا هناك. بقينا نتبادل النظرات أنا وهي دون أن نتبادل كلمة واحدة. لم يكن لدينا ما نتحدث عنه، وماذا يمكن أن يقال أصلاً؟ لم يبق شيء بالنسبة لعاشقين كبيرين وشغفين عظيمين بعد مضي عشرين عاماً. لم يبق شيء سوى قلبين ذبلا، أتخمتهما الحياة ودمرتهما، لا أعلم إن كان بنفس المقدار وبنفس السويّة لكنها أتخمتهما حقاً. فيرجيليا الآن تتمتّع بجمال عمرها، مظهر أمومي صارم، كانت أقل نحافةً من آخر مرة رأيتها فيها في مهرجان القديس يوحنا

في تيجوكا، كانت شخصاً لا يمكن مقاومته، أمّا الآن فقد بدأت بعض خصل الشيب تتماوج في شعرها الغامق.

« هل تقومين بزيارة الموتى؟» سألتها.

جاوبتني باشمئزاز:» وهل أصبحت أنت الآن من الموتى».

عصرتُ يديّ في بعضهما، وأكملت فيرجيليا كلامها قائلة:» أقوم بجولات لأرى إن كان بإمكاني إعادة المتسكعين الكسالى من الشارع».

لم أحصل على الملاطفة ذاتها التي كانت في المرات السابقة، لكن صوتها كان لطيفاً وودوداً. كنت وحيداً في المنزل باستثناء الممرّض، جلستْ وتمكنّا من تبادل الحديث دون أي خوف من أحد، أخبرتني فيرجيليا الكثير من الأخبار عن العالم الخارجي، متحدثة بحس فكاهيّ ولسان داعر ممّا أعطى لذّة لحديثها. استمتعتُ بهذا اللهو وشعرتُ بلذّة شيطانية في الوقت الذي كنت جاهزاً فيه لمغادرة هذا العالم، مقنعاً نفسي أنه ما من شيء يستحق البقاء.

قاطعتني فيرجيليا وقد بدا أنها انزعجت قليلاً من حديثي:» أيّ نوع من الأفكار هذه التي تتفوّه بها؟» ثم أردفت:» انظر، لن نعود إلى هذه الحياة مرة أخرى، إن كنت تقصد الموت، فكلنا سنموت، يكفي أن تبقى على قيد الحياة وحسب».

ونظرَتْ إلى الساعة: «يا إلهي! إنها الثالثة، عليّ أن أغادر».

« ستغادرين على الفور؟»

« نعم، سأعود غداً أو في وقت آخر».

« لا أعلم إن كان ذهابك أمراً صائباً في هذا الوقت، لأن المريض عجوز أعزب ولا يوجد امرأة في البيت» قلت لها.

« ماذا عن أختك؟ أين هي؟»

« إنها قادمة وستبقى هنا بضعة أيام لكنها لن تصل قبل يوم السبت» فكّرت فيرجيليا لبرهة، وقفت باستقامة، ثم قالت بارتباك:

« أنا أيضاً امرأة عجوز ولا أحد يكترث لأمري على الإطلاق، لكن كي لا تظن أنّي أتهرّب سآتي غداً برفقة نونهو «.

كان نونهو محامياً، وهو الابن الوحيد من زواجها، والذي عندما كان في الخامسة من عمره كان عاملاً في نجاح علاقتنا العاطفية دون أن يدري. قدما معاً بعد يومين ويجب أن أعترف أنني عندما رأيتهما في غرفة نومي جمدت في مكاني و لم أتمكن من الرد مباشرة على كلمات الشاب اللطيف. وقد شعرت فيرجيليا بذلك وخاطبت ابنها قائلة: » لا تكترث لهذا المحتال الكبير، إنه لا يرغب في الكلام لهذا يجعلك تظن أنّه على وشك الموت «.

ابتسم ابنها وأعتقد أني ابتسمت أيضاً وتوقف كل شيء كأنه مزحة كبيرة، كانت فيرجيليا هادئة ومبتسمة. كانت لديها نظرة نظيفة للحياة، ليست نظرة ارتياب ولا حتى لفتة قد توحي بأي شيء مريب، متوازنة في الكلمة والروح، تضبط نفسها، وبالرغم من كل هذا كانت تبدو غريبة. وبالصدفة ربطتنا علاقة حب غير شرعية، نصف سرية، نصف علنية، رأيتها تتحدث بازدراء، وبقليل من السخط عن امرأة متورطة بعلاقة مع صديقها. لاقت كلماتها استحساناً لدى ابنها عندما سمعها تتحدث بهذه القوة والصرامة، وسألت نفسي: ماذا قد تظنّ بنا الصقور – نحن البشر– لو أنّ عالِم الأحياء الفرنسي» بافون» قد أنجب صقراً؟! وهنا بدأ هاجسي.

***

الهاجس

أعلم جيّداً أنه ما من أحد تحدّث من قبل عن هاجسه الذي يتملّكه، أنا فقط أقوم بذلك وسيشكرني العِلم لصنيعي هذا. وإذا لم يتم حثُّ القارئ على تأمل هذه الظاهرة العقلية، فإنه قد يتجاوز هذا الفصل بلا اكتراث، وسيمضي مباشرة إلى المقاطع السردية في هذا الكتاب، لكن إن كان لديه ذرّة بسيطة من الفضول فيمكنني أن أخبره الآن أنه من الممتع معرفة ما دار في عقلي لعشرين أو لثلاثين دقيقة.

تأثّرت منذ البداية بشخصية حلّاق صيني، له كرش، بارع في عمله، كان يحلق بطريقة تشبه جداً الحلاقة المندرية، وهو الذي دفعني إلى عملي بالضغط والترغيب، فهذه هي أهواء المندريين.

بعد ذلك مباشرة شعرت أني انتقلت إلى داخل كتاب « الخلاصة اللاهوتية» لتوما الإكويني، كتاب مطبوع في مجلد واحد بملزمة مغربية، ومشابك فضية ورسوم توضيحية. تلك هي الفكرة التي أعطت جسدي إحساساً كاملاً بالعجز عن الحركة، وحتى هذه اللحظة باستطاعتي أن أسترجع بذاكرتي كيف تشابكت يداي مع الكتاب فوق معدتي، ثم قام شخص ما بفصل يديّ عن الكتاب (إنّها فيرجيليا بكل تأكيد) لأن هذا الموقف جعلها ترى صورة إنسان ميت، أخيراً، عدتُ إلى الشكل البشري، رأيت فرس البحر يتقدم ويخطفني، استسلمت له صامتاً، لا أعلم ما إذا كان بدافع الخوف أو بدافع الثقة، لكن بعد برهة قصيرة شعرت أن الركض أصبح دائرياً، لذلك تجرأت على السؤال وأخبرته بطريقة ما أن الرحلة تبدو وكأنها لا تسير في أي اتجاه.

« أنت مخطئ»، جاوبني فرس النهر، « نحن في طريقنا إلى بداية العصور».

افترضت أن ذلك بعيد المنال، من المؤكد أنه بعيد جداً، لكن فرس النهر إمّا أنَّ لم يفهمني أو لم يسمعني أو كان يتظاهر بالأمرين معاً، وبما أنه يستطيع التكلّم، سألته إذا كان من سلالة حصان أخيل أو من سلالة حمار بلعام، أجابني بإيماءة غريبة حيال هذين الحيوانين ذوي القوائم الأربعة، برفرفة أذنيه.

بالنسبة لي، أغمضتُ عينيّ وأطلقت العنان لنفسي لتمضي بي الصّدف حيثما تشاء. ومع ذلك، يجب أن أعترف الآن أنني شعرت بشيء من الفضول لمعرفة كيف بدأت العصور، وفيما إذا كانت غامضة كأصل النيل، والأهم من ذلك كله، السؤال إذا كان التحقق من وجود هذه العصور نفسها يستحق حقاً هذا العناء: أم أن هذه أفكار عقل مريض. لم أتمكن من رؤية الطريق مذ كنت أسير بعينيّ المغلقتين، لا أستطيع إلّا أن أتذكر ذلك الشعور بالبرد الذي اشتدّ مع استمرار الرّحلة وبدا لي أن الوقت قد حان لدخول منطقة الجليد الأبدية.

في الحقيقة، فتحت عينيّ ورأيت فرس النهر يعدو باتجاه سهل أبيض يغطيه الثلج، الثلج حولي، هنا وهناك جبل ثلج، نباتات ثلجية، وحيوانات ثلجية كبيرة، كل شيء مثلج، شمس من الثلج كانت تخرج لتجمّدنا. حاولت التحدث لكن كل ما استطعت فعله هو أن أنخر بهذا السؤال القلِق:

« أين نحن؟»

« لقد اجتزنا جنة عدن للتو «.

« حسناً، دعنا إذن نتوقف عند خيمة إبراهيم».

« لكننا نسير للخلف»، ردّ الفرس ساخراً.

كنت غاضباً ومرتبكاً، ثم بدأت سمات الضجر والتهور تظهر في الرحلة بالإضافة للبرد الذي كان لا يطاق، الراكب محتدّ والنتيجة مجهولة. وبعد ذلك بدأت تظهر تأملات الرجل المريض التي تقول إنه في حال بلغنا الهدف المنشود، فإنه ليس من المستحيل بلوغ تلك العصور، لكن سيكون أمراً مزعجاً أن تصل لحقيقتهم المخترقة، لأنهم سيسحقوننا بين أصابعهم التي لا بدّ أنها طاعنة في السن مثلهم. وأنا غارق في التفكير، شعرت أننا التهمنا الطريق حتى تبدّد السهل تحت أقدامنا وأصيبت الحيوانات بالإعياء، وكنت قادراً على أن أنظر بهدوء أكثر إلى المحيطين بي. كنت أنظر فقط لكنني لم أرَ أيّ شيء ما عدا مشهد الثلج الشاسع أمامنا والذي غزا السماء الزرقاء نفسها حتى ذلك الحين. قد تظهر نبتة أو نبتتان هنا أو هناك، ضخمتان ووحشيتان، تتماوج أوراقها العريضة في الهواء. كان صمت تلك المنطقة أشبه بصمت القبر. يمكننا القول إنّ حياة الأشياء أصبحت غباء بالنسبة للإنسان.

ما هذا الذي تراءى لي؟ هل نثرتها الرياح؟ هل سقطت مع الهواء؟ هل فصلت نفسها عن الأرض؟ لا أعلم، ما أعلمه أن شيئاً ضخماً بهيئة امرأة، ظهر أمامي ثانية، محدّقاً بي بعينين تتوقدان كالشمس. كان كل شيء يخص هذا الكائن شاسعاً كمساحات البريّة، وكل شيء بعيد عن مفهوم النظرة البشرية المعروفة، لأن الملامح الأساسية تماهت مع البيئة المحيطة وما بدا كثيفاً كان في الغالب شفافاً. إنّه الخدر. لم أتفوّه بكلمة و لم أتمكن حتى من البكاء، لكن بعد فترة وجيزة سألت عنها وعن اسمها: تملّكني فضول الإلحاح.

« يمكنك أن تسميني الطبيعة أو باندورا[1] ، أنا أمّك وعدوّك».

---

١ باندورا: في الحضارة الإغريقية هي المرأة التي مُنحت كل شيء، وهي أول امرأة يونانية وجدت على الأرض تبعاً للعقيدة اليونانية، خلقت بأمر من زيوس، من الماء والتراب ومنحت العديد من المزايا كالجمال وعزف الموسيقى. تمثل الفضول، ويعرف صندوق باندورا بأنه أصل شرور العالم.

تراجعت قليلاً عندما سمعت هذه الكلمة الأخيرة وتملكني الخوف. قهقهة هذا الكائن أثارت إعصاراً حولنا، إلّا أن التواء النباتات وأنينها الطويل كسر صمت الأشياء في الخارج.

قالت: » لا تخف، عدائيتي لا تقتل، إنّه أمر مؤكد أكثر من أي شيء في الحياة، أنت حيّ وهذا هو العذاب الوحيد الذي أريده».

سألتها: » هل أنا على قيد الحياة؟»، وغرزت أظفاري في يديّ لأتأكد أني على قيد الحياة.

« نعم، أيّها القميء، لا تقلق بشأن فقدانك لتلك الخِرق التي كنت تتباهى بها. ستبقى تشعر بطعم خبز الألم ونبيذ البؤس لبضع ساعات. أنت على قيد الحياة، مع أنّك تمضي قُدماً نحو الجنون، لكن في حال تحلّى ضميرك بذرّة حكمة فستطلب الحياة».

لنقل أن الرؤية تمكنّت مني، مسكتني من شعري، ورفعتني عالياً كأني ريش، لم أفعل شيئاً سوى أنني حاولت النَّظرَ إلى وجهها عن قرب، وجهها الذي كان ضخماً.

لا يجاريها شيء في الصفاء، لا تقاسيم عنيفة ولا تعابير عن الكراهية أو الوحشية، إن التعبير المكتمل والعام والوحيد الذي لاحظته كان شيئاً من الأنانية اللامبالية، شيء من الصمم الأبدي، شيء من الإرادة الثابتة. وإن كان لديها من الغيظ لاحترق في داخلها. وفي نفس الوقت، رأيت في تعبير الوجه البارد نظرة مفعمة بحيوية الشباب ومزيج من القوّة والنشاط قبل أن أشعر بالمخلوقات الأكثر ضعفاً وعجزاً.

« هل تفهمني؟» سألتني بعد مضي بعض الوقت في التأمل المتبادل.

أجبتها: » لا، ولا أريد أن أفهمك، أنت سخيفة وخرافية، من المؤكد أني أحلم، أو إذا كنت قد أصبت حقاً بالجنون، فأنت لست سوى فكرة معتوهة. أعني لا يمكن لشيء أجوف ولمنطق تائه أن يكون له أي تأثير. هل أنت الطبيعة حقاً؟ إن الطبيعة التي أعرفها هي الأم فقط وليست العدو. كما أنها لا تجعل الحياة عذاباً، وليست مثلك تحمل وجهاً لامبالياً كالقبر، ولماذا تسمّين نفسك باندورا؟

« لأني أحمل الخير والشر في جعبتي، وأعظم الأشياء على الإطلاق كالأمل وسلوان البشرية، هل أنت ترتجف؟»

« نعم، سحرتني نظرتك».

***

« يجب أن أفكّر أيضاً، أني لست الحياة فقط، بل أنا الموت أيضاً، وأنت على وشك أن تعيد لي ما أقرضته لك، أيّها الرجل الأكثر فسقاً، حكاية العدم تنتظرك».

عندما خرج صدى كلمة « العدم» كصاعقة رعدية من ذلك الوادي العميق، بدا وكأنه آخر صوت يمكن أن أسمعه بأذنيّ. بدا لي وكأنّي أشعر بالتحلل المفاجئ، ثم واجهتها بعينين متوسلتين وطلبت منها أن تمنحني عمراً لبضع سنوات أخرى.

صرخت في وجهي:» أنت لحظة تافهة وبائسة، من أجل ماذا تريد المزيد من لحظات هذه الحياة؟ لكي تلتهم أكثر ثم تُلتهم بعد ذلك؟ ألم يكفك كل هذه المسرحيات والنزاعات؟

لقد قدّمت لك أكثر مما تحتاجه بأقل ألم وأقل زيف ممكن؛ منحتك فجر يوم جديد، كآبة الظهيرة، سكون الليل، مظاهر الأرض المختلفة، النوم الذي عندما قال وأكّد الجميع أنه الفائدة العظمى منحتك إياه، ماذا تريد أكثر أيّها الغبي؟

« أريد أن أعيش فقط، هذا كل ما طلبته منك، من يمكنه أن يضع في قلبي حب الحياة سواك أنتِ؟ وبما أني أحببت هذه الحياة، لماذا تؤذين نفسك بقتلي؟»

« لأني لم أعد أريدك أكثر، لا يكترث الزمن باللحظة الراحلة بل باللحظة القادمة، اللحظة القادمة لحظة قوية وسعيدة وتعتقد أنها تحمل الخلود والموت في نفسها، وتُفنى تماماً كباقي اللحظات لكن الوقت يستمر ولا يتوقف. هل قلت حبّ الذات؟ نعم، حب الذات. ليس لدي شريعة أخرى. حب الذّات وحمايتها. يقوم النمر المرقّط بقتل العجل لأن منطق النمر يقول إنه لا بد أن يعيش، وفي حال كان العجل سهل المنال فإنه من الأفضل أن يسود القانون الكلي. اقترب وألقِ نظرة».

قالت ذلك وحملتني عالياً إلى قمة الجبل، أخفضت نظري أسفل أحد المنحدرات ولفترة طويلة، في تلك المسافة وعبر الضباب تأملت شيئاً غريباً وشاذاً. تخيّل فقط عزيزي القارئ اختزال العصور وجميع مظاهرها، من السباقات والعواطف واضطراب الإمبراطوريات، حروب الغرائز والأحقاد، التدمير المتبادل للكائنات والأشياء. هذا هو المشهد، كان مشهداً قاسياً وغريباً. إنّ لهذه الأرض وتاريخ بشريّتها قوّة ليس باستطاعة العلم ولا المخيلة أن يمنحهما، لأن العلم بطيء والمخيلة ضبابية، في حين أن ما كنت أراه هو نتاجٌ حيٌّ من جميع الأزمنة. ولشرح كيفية ذلك يجب أن يكون المرء قادراً على تثبيت صاعقة البرق في مكانها. كانت العصور تتالى في دوّامة وما تزال، ولأن هذيان العيون كان مختلفاً كنت أرى كل شيء كان يمر أمامي– العذاب والبهجات– من الشيء الذي يسمى مجداً وحتى ذاك الشيء الذي يسمى بؤساً. ورأيت الحُبّ يولّد بؤساً مضاعفاً ورأيت البؤس يقوّي الضعف. إلى جانب الجشع الذي يلتهم والغضب الذي يُضرم، والحسد الذي

يسيل لعابه، والمعول والقلم، والكآبة مع القلق والطموح، والجوع، والغرور، والتعاسة، والثروة والحب، جميعهم يهزّون الإنسان وكأنه حشرة حتى يسحقوه مثل قطعة قماش. لقد كانوا بهيئات مختلفة؛ مرض ينهش الأحشاء أحياناً، وأحياناً يلتهم الأفكار، ويطارد الأنواع البشرية إلى الأبد في زيّ مهرّج.

يلين الألم أحياناً، لكنه يفسح مجالاً للامبالاة والتي هي نوم مسلوب الأحلام أو يفسح المجال أمام المتعة والتي هي ألم زائف. ثم مضى الإنسان المُعنّف والمتمرّد قدماً إلى مصيرية الأشياء، بعد أن تشكّلت شخصية ضبابية ومراوغة من البقايا، بقايا من اللامحسوس، وبقايا من اللامدرك وبقايا من اللامرئي، تمت حياكتها معاً بغرزة متزعزعة لإبرة المخيّلة. وهذا الشكل– ليس سوى وهم السعادة– إمّا أن يهرب منه الإنسان بشكل دائم وإمّا أن يعيش على حافته وسيعلّقه الإنسان على صدره، وهنا ستضحك السعادة بعد ذلك ساخرة وستختفي كالوهم. وبينما كنت أفكّر في هذه المحنة، لم أتمكن من كبح صرخة عذاب سمعتها الطبيعة أو باندورا دون احتجاج أو ضحك. لا أعلم ما هو نوع الاضطراب الدماغيّ الذي جعلني أبدأ بالضحك، ضحك صاخب وغبي.

« أنتِ محقة» قلت لها « هذا أمر مسلٍّ وثمين قليلاً، رتيب ربّما، لكنه يستحق بعض الشيء. عندما لعنَ أيوب اليوم الذي كان يتخيّله، كان ذلك لأنه أراد رؤية المشهد من الأعلى، من هذه القمة. تقدمي يا باندورا، افتحي رحمك، وأدخليني، إنه أمر مسلٍ لكن ابلعيني».

كانت إجابتها لإجباري على النظر إلى الأسفل ومشاهدة العصور التي كانت ما تزال تمر سريعة ومضطربة، وأجيالاً متراكمة فوق أجيال، بعضها حزين كسبايا العبرانيين، وبعضها الآخر سعيد كفاسقي الإمبراطور يوليوس، وجميعهم سيذهبون في الموعد المحدد إلى القبر.

حاولت الهرب لكن القوّة الغامضة منعتني، قلت لنفسي:» حسناً، العصور تمر بذات الوتيرة وسيصل عصري وسيعبر أيضاً، وصولاً إلى آخر شخص، وسيكون الأمر بالنسبة لي بمثابة فك رموز الخلود».

ثبّتُ نظري عليهم وبقيت أشاهد مرور العصور، التي ظلّت تأتي وتذهب الآن هادئة ومُقدمة. لا أعلم شيئاً الآن، لكن ربما كنت سعيداً؛ سعيداً ربما. كل عصر جلب معه حصته من الضوء والظل، من الخمول والقتال، من الحقيقة والخطيئة، ومجموعة أنظمته، أفكاره وأوهامه الجديدة. وفي كل عصر من هذه العصور كانت المساحات الخضراء في أوقات الربيع تنفجر صعوداً، ثم تصفرّ، لتتجدد ثانية في وقت لاحق. وبهذه الطريقة كانت الحياة منتظمة في التقويم والتاريخ والحضارة

التي أقيمت. والإنسان العاري والأعزل، تسلّح وكسى جسده، بنى كوخاً وقصراً، قرية بسيطة، وبنى مدينة « طيبة» ذات الألف بوابة. ابتدع العلم الذي نقّب والفن الذي هذّب جاعلاً من نفسه واعظاً، ميكانيكياً وفيلسوفاً غمر وجه العالم، وانحدر إلى أحشاء الأرض. صعد إلى فلك السحب، اشترك في هذا النهج بالعمل الغامض الذي خفف من ضروريات الحياة ومن بؤس الهجر. تشتتت نظرتي وبلغها الملل لكن أخيراً رأيت العصر الحالي قد وصل، وخلفه المستقبل. جاء رشيقاً، بنظرة حاذقة، نابضاً بالحياة، واثقاً من نفسه، منتشراً قليلاً، جريئاً، متنوّراً معرفياً، لكن في نهاية المطاف كان بائساً كالعصور التي سبقته، وهكذا مضى كما مضى الآخرون، بالسرعة والرتابة نفسها.

ضاعفتُ انتباهي، شاحذاً نظري، وأخيراً كنت أوشك على رؤية العصر الأخير، الأخير، لكن بعد ذلك تجاوزتْ سرعةُ المسير كل حدود توقعاتنا وإدراكنا. عند قاعدتها ضوء قويّ قد يكون عصراً جديداً، ربما لهذا السبب بدأت الأشياء بالتبدّل، بعضها نما، وبعضها تقلّص، وبعضها تاه في الماضي.

غطّى الضباب كل شيء، ما عدا فرس النهر الذي أحضرني إلى هنا، بدأ يصغر ويصغر حتى أصبح بحجم قطة، في الحقيقة كان قطة، لقد ألقيت نظرة جيدة عليه. كانت قطتي– سلتاو – التي كانت تلعب بكرة من الورق عند باب الغرفة.

المنطق في مواجهة الحماقة

لقد توصل القارئ بالفعل إلى أنه كان منطقاً عائداً إلى البيت داعياً الحماقة إلى الرحيل، معلناً بكلمات طرطوفية [1] متقنة ومباشرة:

هذا المنزل لي، ولك الخيار في المغادرة

لكنها نزوة قديمة من نزوات الحماقة لإظهار حب منازل الآخرين، وهي لم تعد أكثر من مجرّد عشيقة من الصعب الاعتراف بها علناً.

إنّها نزوة، ولا يمكنه التخلّص منها، كانت تَصِمُهُ بالعار منذ وقت طويل. وإذا لاحظنا الآن العدد الضخم للمنازل التي استباحتها- بعضها بشكل دائم- وبعضها الآخر خلال فترات راحتهم، سنتوصل إلى نتيجة مفادها أن هذا المؤنس الهائم أصبح يشكل رعباً لأصحاب المنازل. في قضيتنا هذه، كان ثمة فوضى عند عتبة عقلي لأن المتطفّل لا يريد الرحيل عن البيت، وصاحبة المنزل لا تريد أن تتخلى عن عزمها في الحفاظ على ما هو بالأصل لها. وفي النهاية قبِلت « الحماقة» بزاوية صغيرة لها في العليّة.

« لا يا سيدتي» أجاب المنطق، أنا تعبت من تركك في العليّات، مريضة ومتعبة، ما عليكِ فعله بعد هذا هو الانتقال بهدوء من العليّة إلى غرفة الطعام، ومن هناك تذهبين إلى غرفة الجلوس وبعدها إلى كل مكان تريدين».

« حسناً، دعني أبقى لفترة أطول قليلاً، أنا على وشك حل اللغز»

« أي لغز؟»

« لغزين» صحّحت « الحماقة» « لغز الحياة ولغز الموت، أطلب منك أن تمنحني عشر دقائق فقط».

بدأ المنطق بالضحك.

« أنتِ دائماً هكذا... دائماً هكذا... دائماً هكذا...»

وبقول المنطق لهذا الكلام، أمسك الحماقة من معصميها وجرّها إلى الخارج، لكنها دخلت وأغلقت الباب، وبقيت الحماقة تئن وتتوسّل، تدمدم ببعض الشتائم، إلّا أنها استسلمت حالاً، مادّة لسانها في سخرية، ومضت في طريقها....

---

١ الطرطوفية: الكذب والنفاق نسبة لشخصية طرطوف المنافق في مسرحية لموليير بعنوان " طرطوف" ويعالج موليير في هذه المسرحية مشكلة اجتماعية خطيرة وهي مشكلة النفاق الاجتماعي والتستر بالدين.

الانتقال

راقب هذه المهارة الآن، هذا الفن الذي استطعت من خلاله القفز بأروع طريقة بين فصول الكتاب، راقب كيف بدأ هاجسي مع حضور فيرجيليا. لقد كانت فيرجيليا أكبر خطيئة في شبابي، فلا يمكن لمرحلة الشباب أن تكون دون مرحلة الطفولة، والطفولة تعني الولادة، ومن هنا أتينا نحن إلى هذه الحياة دون جهد، ولدتُ أنا في يوم ٢٠ من شهر أكتوبر عام ١٨٠٥، ذلك اليوم هو يوم ولادتي. أترى؟ ليس هناك ما يشتّت انتباه القارئ الهادئ، لا شيء. لذلك يستمر الكتاب على هذا المنوال مع جميع فوائد هذه الطريقة في أن لا تكون جامدة. لقد حان الوقت، لأن العمل بهذه الطريقة أصبح شيئاً لا غنى عنه، ومن الأفضل أن يبقى دون ربطة عنق أو حمالات، بالأحرى يبقى منضبطاً وطليقاً بعض الشيء كأي شخص لا يكترث للمرأة التي تسكن في الشقة المجاورة أو للشرطي على الحاجز.

إن هذا يشبه البلاغة لأنه ثمة نوع واحد ذكي وحيويّ يحمل فناً طبيعياً ومدهشاً، أمّا النوع الآخر فيابس وشائك ومبتذل. دعونا الآن نعود إلى العشرين من أكتوبر.

مكتبة
t.me/soramnqraa

في ذلك اليوم

في ذلك اليوم أزهرت شجرة عائلة كوباس زهرة رقيقة، ولدت أنا، استقبلتني ذراعا باسكويلا، القابلة المشهورة في مينهو، والتي تباهت بفتح باب العالم أمام جيل كامل من الأرستقراطيين. ومن الممكن أن يكون والدي قد سمع هذا التصريح، لكني أعتقد أن ذلك الشعور الأبويّ طغى على الموقف وهو ما دفعه لإظهار رضاه أمامها بإكرامية بلغت نصفي دوبلون [1]. بعد غسيلي ولفّي، أصبحت على الفور بطل المنزل. وأبدى كل شخص توقّعه ورأيه في مستقبلي وما يناسبني، لكن كل حسب نظرته. فعمي جواو، ضابط المشاة السابق، رأى فيّ نظرة بونابرتية يقينية، مما أصاب والدي بالغثيان عند سماعه بالأمر، وعمي إلديفونسو، الذي كان قِسّاً بسيطاً في ذلك الوقت، رأى في داخلي كاهناً مستقبلياً.

« سيصبح كاهناً، ولن أقول أكثر من ذلك كي لا يبدو الأمر وكأني أتفاخر، لكن على الأقل لن أتفاجأ قليلا إذا كان الله قد وجّهه إلى أسقفية ما. أسقفية، أليس كذلك؟ ليس الأمر مستحيلاً، ما رأيك في ذلك أخي بنتو؟ «

أجابهم والدي أني سأكون كما يريد الله لي ورفعني عاليا في الهواء وكأنه كان ينوي أن يجعلني أرى المدينة والعالم. وكان يسأل كل شخص فيما إذا كنت أبدو وسيماً وذكياً مثله. وها أنا أخبركم هذه الأشياء التي تذكرتها صدفة تبعاً لما سمعته في الأعوام الأخيرة. ولست على معرفة بالجزء الأكبر من تفاصيل ذلك اليوم الشهير. أعلم أن الجيران قدموا وأرسلوا تحياتهم للمولود الجديد كما توافد في الأسبوع الأول الكثير من الزوّار إلى بيتنا. لم يكن يوجد محفّة [2] واحدة شاغرة. وكان الكثير من المعاطف النسائية والسراويل تتجوّل حولي في البيت، ولن أذكر الملاطفات والعناق والقبلات وتبادل الإعجاب والمباركات لأني في حال تحدثت عن كل هذا فلن ينتهي هذا الفصل ويجب أن أنهيه.

ملاحظة: لا يمكنني ذكر أي شيء عن معموديتي لأنه ما من أحد حدثني بهذا الخصوص، إلّا أنهم قالوا لي إنها من أروع الأمور التي حدثت في العام التالي ١٨٠٦. لقد كانت معموديتي في

---

١ دوبلون: عملة إسبانية من الذهب.

٢ المحفّة: هي نوع من المركبات أو العربات الخشبية بدون عجلات، والتي يحملها الرجال لنقل الأشخاص، تُرفع على الأكتاف بواسطة قضيبين من الخشب.

كنيسة ساو دومينغوس يوم الثلاثاء من شهر مارس/آذار في يوم صافٍ، مشرق وطاهر، كان عرّابي الكولونيل رودريغز دي ماتوس وزوجته. وكلاهما ينحدران من سلالات العائلات الشمالية العريقة، وإنه لشرف لي حقاً أن يكون هذا الدم يتدفّق في عروقهم، هذه الدماء التي سالت في الماضي في حروب ضد هولندا، أعتقد أن أسماء كلاهما كانت من أوّل الأشياء التي تعلّمتها وكان يتوجب عليّ ترديدها بأناقة كاملة أو إظهار موهبة مبكرة في قراءتها حيث كان والدي يطلب مني ترديد أسمائهم أمام جميع الزوّار.

« أيّها الشاب، أخبر هؤلاء السادة باسم عرّابك».

« عرّابي؟ إنّه الكولونيل الموقّر باولو فاز لوبو سيزار دي أندرادو سوسا رودريغز دي ماتوس، وعرّابتي هي السيّدة المحترمة دوماً ماريا لويزا دي ماسيدو ريسيندي سوسا رودريغز دي ماتوس»

« سيكون ولدك حاد الذّكاء» هذا ما قاله المستمعون.

وأكّد والدي بقوله:» إنه ذكي جداً». وامتلأت عيناه بالفخر ثم وضع يده على رأسي محدقاً فيّ لوقت طويل بمحبة وطافحاً بالفخر.

ملاحظة: لا أعرف متى بالضبط بدأت في المشي، لكن في وقت مبكّر. وربما لتسريع مشيئة الطبيعة، أجلسوني في الكرسي، أمسكوني من حفاظي وجلبوا لي عربة خشبية، وقالت لي المربيّة:» أمسكها بنفسك، بنفسك، أيّها السيد الصغير، بنفسك». لفت نظري ضجيج الصفيح الذي أصدرته أمي أمامي، حرّكت رأسي صوبها وتبعتها، وبفعلتي هذه سقطت من الكرسي وهكذا أصبحت أمشي، ربما ليس كما يجب، لكني كنت أمشي وتابعت سيري.

***

الطفل هو والد الإنسان

ترعرعت وحدي، لم يكن لعائلتي دور في هذا، ترعرعت بشكل طبيعي، كما تنمو أشجار الماغنوليا والقطط. ربما تكون القطط أقل خبثاً والماغنوليا أقل اضطراباً مني في طفولتي. يقول الشاعر إن الطفل هو والد الإنسان [1]، إذا كان هذا صحيحاً، دعونا نلقي نظرة على بعض علامات هذه الطفولة. اكتسبت لقب « الطفل الشرير» في عمر الخامسة وبالفعل كنت كذلك، كنت واحداً من أكثر الأطفال خبثاً، مراوغة، فضولاً، إزعاجاً وعناداً في طفولتي. على سبيل المثال: في أحد الأيام ضربت الخادمة على رأسها وشققته لأنها رفضت أن تعطيني ملعقة من حلوى جوز الهند الذي كانت تُعدّه، و لم يهدأ بالي بهذا العمل الشرير فألقيت حفنة من الرماد في الوعاء، و لم يرضني هذا الأذى فركضت إلى والدتي وأخبرتها أن الخادمة هي التي تسببت بخراب الحلوى بعد كل الذي فعلته. وكان عمري آنذاك فقط ستة أعوام.

كان برودينسيو، وهو شاب أسود يعمل في منزلنا، بمثابة حصاني المفضّل، كان يتكئ على يديه وركبته، واضعاً حبلاً في فمه كلجام الحصان، وكنت أتسلّق ظهره والسوط في يدي. كان يروق لي جَلدَه بالسوط، جاعلاً إيّاه يقوم بآلاف الدورات يميناً ويساراً، كان يطيع دائماً وأحياناً يتنهّد، لكنه يمتثل دون قول كلمة واحدة، في أغلب الأحيان كان يقول» أوه، أيّها السيّد الصغير «، و كنت أردّ،» اخرس أيّها الحيوان». كما كنت أخفي قبعات الضيوف، ألصق بقايا الورق على الأشخاص المهمّين، أسحب الضفائر، أقرص المربّيات في أذرعهن وأقوم بالكثير من الأعمال الشريرة من هذا النوع والتي كانت إشارة على طبيعتي الهائجة، لكني أظن أنّ هذه الأعمال هي أيضاً تعبير عن روحي النشيطة، لأن والدي كان معجباً أشدّ إعجاب بشخصيتي، وإن كان قد قام بتوبيخي في بعض المرات بحضور بعض الأشخاص، فإنّ ذلك لم يكن سوى مجرد إجراء شكلي، يعوضه لي بالكثير من القبلات عندما نكون وحدنا.

يجب ألّا تستنتج عزيزي القارئ أني قضيت بقية حياتي في شقّ جماجم الناس وفي إخفاء قبعاتهم، لكن كنت عنيداً وأتصرف بأنانية وازدراء أحياناً. وإذا لم أقضِ وقتي في إخفاء قبعاتهم فإنني أقوم بسحب جدائلهم عندما تحين الفرصة. كما كان يروق لي الاستغراق في تأمل الظلم الإنساني. كنت أميل لتلطيفه، شرحه وتصنيفه إلى أقسام وفهمه ليس وفقاً لنمط جامد بل أفسّره في ضوء الظروف والمكان.

---

١ الطفل والد للإنسان: قصيدة للشاعر وليام وردزورث، ويقصد الشاعر إن الطفل هو البذرة التي تكوّن الإنسان.

لقّنتني والدتي بطريقتها الخاصة بعض التعاليم والصلوات التي حفظتها عن ظهر قلب. لكني شعرت أني محكوم بالغريزة البشرية أكثر من التعاليم الروحية، وبهذا فقدت القاعدة الذهبيّة جوهرها وروحها الحيّة وأصبحت مجرد صيغة جوفاء.

في الصباح قبل حساء الشعير وفي المساء قبل الخلود للنوم كنت أتضرّع لله ليسامحني كما أسامح بدوري المدينين لي، لكن بين الصباح والمساء كنت أتورّط في القليل من الأذى المريع، وكان والدي بعد حدوث الضجيج يربّت على خديّ ويصرخ ضاحكاً: » إنك شيطان صغير، شيطان صغير «. نعم لقد كان والدي متيّماً بي لكن والدتي كانت سيدة ضعيفة بقدرات عقلية محدودة وعواطف جيّاشة، سريعة التصديق حدّ السذاجة، إنسانية، تقيّة جداً، تنسج في المنزل بالرغم من جمالها ومتواضعة بالرغم من ثراها، كانت تخاف من الرعد ومن زوجها، كان والدي الرّب الذي تعبده على الأرض. كانت تربيتي تعاوناً مشتركاً بين أبي وأمي وبالرغم من أن الأمر كان جيداً في بعض الأحيان، لكن عموماً، كان الأمر ناقصاً وسلبياً في بعض الأمور. كان عمّي الكانون يعلّق على ذلك قائلاً لأبي بأن يمنحني حرية أكثر من التعليم، وأن يشبعني عاطفة أكثر من التوجيه، لكن أبي كان يجيبه بأنه يطبق نظاماً تعليماً يتفوّق كثيراً على النظام التقليدي في هذا الخصوص، لم يكن هذا الأمر يربك عمي لكن أبي كان يخدع نفسه.

وفيما يخص العلاقة مع التعليم كان يوجد مثال خارجي أيضاً، وهي البيئة المنزلية. بعد أن حدثتكم عن أبي وأمي، دعونا نلقي نظرة على عمي وعمتي. كان عمي جواو يتمتع بلسان طليق، حياة مفعمة بالحيوية، ومحادثة سوقية. كنت معجباً بحكاياته الطريفة مذ كنت في الحادية عشرة من عمري، سواء كانت صحيحة أم لا، جميعها قصص مفسدة وفيها من الفحش والقذارة ما يكفي. لم يحترم أني في عمر المراهقة ولم يحترم كهنوتية أخيه أيضاً، بخلاف عمي الكانون الذي كان يهرب بمجرّد أن يتم التطرّق لأي موضوع خادش للحياء، عكسي أنا. فقد سمحت لنفسي الجلوس والاستماع دون أن أفهم أي شيء في البداية، ثم فهمت لاحقاً، ووجدت الأمر مسلياً. وبعد زمن، كنت أنا من أسعى له، وقد أحبني كثيراً، وكان يعطيني الحلوى ويصحبني معه في نزهاته. وعندما كان يأتي لقضاء بضعة أيام في منزلنا، كنت أجده في كثير من الأحيان في الجزء الخلفي من المنزل يثرثر مع الخادمات أثناء غسيلهن للملابس. في هذا المكان كانت تجتمع القصص والتعليقات والأسئلة وتنفجر الضحكات التي لا يمكن لأحد سماعها لأن مكان الغسيل كان بعيداً جداً عن المنزل. النساء الزنجيات، بثياب تلفّ خصورهن، وفساتين مرفوعة بعض الشيء، بعضهن داخل الخزّان، والبعض الآخر خارجه، يتكئن على حبال الغسيل، ينفضن

الملابس، يسكبن الصابون، يعصرن الثياب، يستمعن لنكات العم جواو ويعلّقن من وقت لآخر بالقول: « لتتبعنا، أيّها الشيطان، هذا السيد جواو هو الشيطان ذاته».

كان عمي الكانون مختلف تماماً. كان شديد التقشّف والنقاء، وهذه السمات لم تكن لتسمو بروح عليا وإنما هي تعويض لروح عادية. لم يكن رجلاً رأى الجانب الموضوعي للكنيسة، بل رأى الجانب الظاهري فقط، اهتم بالزعامة والتفوّق والرداء الكهنوتي، الانصياع وتقديم الطاعة. كان أقرب للمقدسات أكثر منه للمذبح. كانت تثيره زلّة في الطقوس أكثر من مخالفة الوصايا. الآن وبعد عدّة سنوات من ذلك، لست متأكداً إذا ما كان قادراً أن يفهم بسهولة نصاً لترتليان[1] أو أن يشرح دون تأتأة رمزية قصة نيسين. مكتبة سُر مَن قرأ

لكن لا أحد في القدّاس الأعلى يعرف أكثر منه عدد ونوع الانحناءات التي يجب تقديمها في الصلاة. كان طموحه الوحيد في الحياة هو أن يصبح كاهناً. وقال ذلك من كل قلبه أن الكهنوتية هي الشرف الوحيد الذي كان يتوق له. ورع وصارم في عاداته، دقيق في مراقبته لسير القانون، أعرج، خجول، خانع، كان يمتلك بعض الفضائل التي جعلت منه شخصاً مثالياً، لكنه معدوم القوة ولا يستطيع غرسها أو فرضها على الآخرين. لن أقول أي شيء عن عمّة أمي دونا إيميرسيانا، ولن أضيف أنها كانت الشخص الوحيد الذي يمتلك السلطة المطلقة عليّ، مما جعلها مختلفة تماماً عن الآخرين، لكنها عاشت معنا لفترة وجيزة امتدّت لعامين فقط.

يوجد أيضاً بعض الأقارب الآخرين وقليل من الأصدقاء المقربين لكنهم لا يستحقون الذكر. لم تجمعنا حياة مشتركة، كنا نتواصل على فترات متقطعة ومتباعدة بشكل كبير. ما يهم بشكل عام من وصف هذه البيئة العائلية وهذا ما أفصحتُ عنه هنا؛ المظهر المبتذل ، حب المظهر المبهرج والضجيج، الإرادة الخافتة، سطوة النزوة وأشياء أخرى. ومن هذه الأرض وهذا السماد نبتت هذه الوردة.

***

١ ترتليان: مؤلف أمازيغي مسيحي، أول من كتب كتابات مسيحية باللغة اللاتينية.

واقعة عام ١٨١٤

لا أريد المضي قُدماً دون إعطاء ملخّص سريع للواقعة المثيرة التي حدثت عام ١٨١٤، حيث كنت في التاسعة من عمري.

عندما ولدتُ كان نابليون يتمتّع بالفعل بكامل ألقه من قوّة ومجد. كان إمبراطوراً ونال إعجاباً كبيراً من الرجال. إلّا أن والدي الذي كان قادراً على أن يُقنع الآخرين بأننا من طبقة النبلاء انتهى به الأمر بإقناع نفسه بمواصلة كرهه لنابليون حدّ الاحتقار. وكان هذا محرضاً لبعض الخلافات الحادة في منزلنا لأن عمي جواو – الذي لا أعرف إن كان بسبب النزعة الطبقية أو بسبب التعاطف مع مهنته– تغاضى عن طغيان نابليون نظراً لإعجابه الكبير به.

كان عمّي الكاهن صارماً في معارضته للكورسيكيين[١] وباقي أقربائي منقسمون، كان هذا السبب الأساسي للخلافات والنزاعات. عندما وصل خبر سقوط نابليون أول مرة إلى ريو دي جانيرو كان أمراً طبيعياً أن تحدث صدمة كبيرة لكن دون سخرية أو تهكّم. شهد الخاسرون فرحة خصومهم العارمة ورأوا أنه من اللائق أكثر أن يلزموا الصمت. مع أنّ البعض الخاسر شارك الجمهور بالتصفيق مجاملة. لقد فَرِح العامة بحرارة، و لم يتوانوا في إظهار مودتهم ومحبتهم للعائلات الملكية، وقد حملوا المشاعل، وكان هناك إطلاق نار، ترنيمات تيديوم[٢]، مواكب عسكرية استعراضية، وهتافات. تذكرني تلك الأيام بسيف جديد أهداني إيّاه عرّابي في عيد القدّيس أنتوني، وبصراحة تامة، كنت مهتماً بأمر السيف أكثر من سقوط نابليون بونابرت، لم أنس ذلك أبداً. لم أتوقف مطلقاً عن التفكير بيني وبين نفسي أن سيفي كان دائماً أعظم من سيف بونابرت.

أرجوكم لاحظوا أني سمعت الكثير من الخطابات عندما كنت على قيد الحياة، وقرأت الكثير من الصفحات الجدلية التي تحمل أفكاراً كبيرة وكلمات أكبر، ولكن لا أعرف لماذا خلف كل الهتافات التي صدحت من فمي، كان صوت التجربة يصدح في بعض الأحيان: » تقدّم، كل ما يعنيك هو سيفك «.

لم تكن عائلتي راضية بأن تشارك في الاحتفال العام بشكل عادي، لقد وجدوا أنّ الذي لا مفر منه والمناسب أكثر هو الاحتفال بمأدبة سقوط الإمبراطور، ومأدبة كهذه يجب أن يصل صوت التهليل بها إلى أذن فخامته أو على الأقل إلى أذن وزرائه. وبمجرد أن تم طرح الاقتراح بدأ التنفيذ.

---

١ نسبة إلى جزيرة كورسيكا وهي مسقط رأس نابليون بونابرت.

٢ تي ديوم: ترنيمة مسيحية لاتينية، وهي من التراتيل الجوهرية لنشيد أمبروسيان.

أزيحت عن الطاولات كل الفضة الموروثة من جدي لويس كوباس، وتم إفراغ المفارش الفلامندية الصنع، والأباريق الكبيرة المستوردة من الهند، وذبح الخنزير. تم طلب الكومبوت [1] ومربى السفرجل من راهبات أجودا. تم غسل وتنظيف وتلميع كل شيء: صالات الاستقبال، السلالم، الشمعدانات، أقواس الجدران، مداخن الفوانيس، كل الأشياء الكلاسيكية الفاخرة.

وفي ساعة معيّنة، تجمّعت نخبة مختارة من صفوة المجتمع: قاضي المقاطعة، ثلاثة أو أربعة من ضباط الجيش، وبعض رجال الأعمال والمحامين، والعديد من المسؤولين الحكوميين، بعضهم حضر مع زوجاتهم وبناتهم، وبعضهم الآخر حضروا بمفردهم، لكنهم جميعاً كانوا يتقاسمون رغبة مشتركة وهي حشو ذكرى بونابرت في الديك الرومي.

لم تكن مأدبة بقدر ما كانت جلسة إنشاد لترانيم تيديوم، وقد عبّر عن هذا الأمر، أكثر أو أقل بقليل، أحد المحامين الحاضرين وهو الدكتور فيلاسا. لقد كان شخصاً مشهوراً وسارداً، كان حضوره الفكريّ إضافة جميلة لهذه المأدبة. أتذكر ذلك كما لو أنه البارحة، أتذكر أني رأيته ينهض بشعره الطويل المجدول بضفيرة، مرتدياً معطفاً من الحرير وخاتم من الزمرّد في إصبعه، طالباً من عمي الكاهن أن يردد قولاً مأثوراً، وعندما ردده عمي، ركّز نظره على رأس سيدة وسعلَ رافعاً يده اليمنى بتكلّف، مشيراً إلى السقف بسبابته ثم أعاد ترديد القول المأثور بطريقة سردية وجذّابة. لم يكن تعليقاً واحداً بل ثلاثة تعليقات، ثم أقسم بآلهته أن ذلك لن ينتهي أبداً، وطلب من عمي أن يقول قولاً مأثوراً آخر، كي يشرحه بسرعة، ثم طلب منه قولاً آخر مرة ثانية وثالثة للحد الذي لم تستطع عنده إحدى السيدات الحاضرات إلّا أن تعلن إعجابها.

« أنتِ تقولين هذا» رد فيلاسا بتواضع، ذلك لأنك لم تسمع أبداً بمنطقة بوكاج في لشبونة، في نهاية القرن كما فعلت أنا، لقد كانت مكاناً مريحاً كأبيات شعرية، حيث خضنا منافسات كلامية بقيتْ لامعة لساعة أو لساعتين وسط التصفيق والهتافات في بار نيكولاس. كان في بوكاج مواهب متعددة وهذا ما قالته لي قبل أيام قليلة دوقة كادافال «.

وقد أفضت هذه الكلمات الثلاث الأخيرة والتي عبّر عنها بتشديد إلى صيحات من الإعجاب والدهشة في جميع الحضور، لأنه رجل ودود وبسيط، إضافة لتنافسه مع الشعراء، كان شخصاً مقرباً من دوقات بوكاج وكادافال.

---

١ الكومبوت: فواكه مطبوخة بالسكر.

شعرت السيدات بأنه رجل رائع، ونظر إليه الرجال باحترام، وبعضهم بحسد لكن لم يشكك أحد بكلامه. وفي الوقت نفسه، انشغل برصف الصّفة على الصّفة، والظرف على الظّرف، مقفياً كل كلمة على وزن كلمة « طاغية» وكلمة» مغتصب». كان وقت التحلية و لم ينشغل أحد بالأكل. وقد حلّت الثرثرة الوديّة محل أصوات المعدات الممتلئة في غمرة الاستراحات التي شغلتها هذه الشروحات.

كانت العيون إمّا كسولة ورطبة، أو عيوناً حيوية ودافئة، وهناك عيون مسترخية أو تقفز حول الطاولة المحملة بالحلوى والفواكه، قطع أناناس هنا، شرائح بطيخ هناك، أطباق الحلوى الكريستالية المملوءة بحلوى جوز الهند المقطّعة بشكل رقيق، الصفراء كصفار البيض، أو دبس السكر السميك والداكن والذي يشبه الجبن. ومن وقت لآخر، وقت ملئ بالمرح والضحك المنفلت– ضحك العائلة– الذي كسر الرزانة السياسية للمأدبة. وفي خضم هذا الاهتمام الضخم والمشترك، كان هناك اهتمامات صغيرة وخاصة يتم تبادلها أيضاً، حيث تحدثت الفتيات عن أغاني مودينهان [1] التي كنّ ذاهبات لغنائها بمرافقة القيثارة، والرقصات البطيئة على وقع بث المحطة الإنكليزية. لم تغب أي من المربيّات اللاتي وعدنَ بأداء رقصة الثماني حركات فقط ليظهرن كم كنّ مستمتعات في الأيام الخوالي في طفولتهن.

كان أحد الحضور الجالس بقربي يمرر إلى شخص آخر تقريراً حديثاً عن الخادمات الجديدات اللاتي كنّ في طريقهن إلى ريو دي جانييرو وفقاً للرسائل التي تلقاها من لواندا [2] ، كانت إحدى الرسائل من ابن أخيه، أخبره فيها أنه قد أبرم بالفعل صفقة لحوالي أربعين رأساً من الخادمات، وأخريات أيضاً يمكن أن يضمنهن، لكن لم يوضح العدد حينها، ما ضمنه هو أنه من هذه الشحنة الواحدة يمكننا الاعتماد على الأقل على ما يقارب مائة وعشرين من العبيد.

« شش.. شش.. شش» كان يقول فيلاسا، مصفقاً بيديه، وسرعان ما توقفت الضجة كاستراحة في أوكسترا، وتحولت كل الأعين إلى الشخص السارد، أدار الرجال آذانهم كي لا تفوتهم ولا كلمة واحدة، كما أبدوا استحسانهم بضحكة مكتومة، لطيفة وصادقة حتى قبل أن يتكلم. بالنسبة لي، كنت أقف منفرداً وبعيداً، مثبتاً عينيّ على أطباق حلوى محددة كانت شغفي، كنت سعيداً بنهاية كل تعليق، آملاً أن يكون التعليق الأخير، لكنه لم يكن كذلك، وظلّت الحلوى كما هي، سليمة، و لم يفكر أحد في قول الكلمة الأولى ويقطع على فيلاسا حديثه.

---

١ أغاني مودينهان: تعني الأغاني العاطفية الحنونة في اللغة البرازيلية البرتغالية، وهي نوع إقليمي تقليدي، وبقيت مستخدمة حتى بداية القرن التاسع عشر.

٢ لواندا: عاصمة أنجولا، تقع على ساحل المحيط الأطلسي.

كان والدي الجالس في مقدمة الطاولة يتجرّع بهجة الضيوف بازدراء كبير، كان ينظر إلى الوجوه اللطيفة والممتلئة فقط، وعلى الصحون والأزهار. كان سعيداً بالألفة التي جمعت بين معظم هذه الأرواح البعيدة، وبتأثير العشاء الفاخر. استطعت أن أرى ذلك لأني أشحت بنظري عن حلوى الكومبوت باتجاه والدي، ثم أعدتُ نظري إلى الحلوى، في إيماءة متعمّدة كما لو أني أتوسله ليقدّم لي بعضاً منها. لكن كل هذا ذهب هباء، لأنه لم يرَ أي شيء، كان غارقاً في نفسه فقط. وكانت التعليقات تتوارد، واحداً تلو الآخر، كالمراكب المائية، ممّا أجبرني على التراجع عن رغبتي في الحلوى، كنت صبوراً قدر المستطاع، لكن لم أستطع تمالك نفسي لوقت طويل، لذلك طلبت بعض الحلوى بصوت منخفض. أخيراً، أثرت جلبة قوية، رفعت صوتي أكثر، ركلت بقدمي، والدي الذي كان سيجلب لي الشمس لو طلبتها، نادى الخادمة لتقدّم لي الحلوى، لكنها تأخرت كثيراً. سحبتني العمة إيميرسيانا من الكرسي وسلمتني لخادمة زنجية بالرغم من صراخي ومقاومتي لها. كانت جريمة الشخص السارد « فيلاسا» أنه بسببه تأخروا في تلبية طلبي في الحصول على حلوى الكومبوت وكان سبباً أيضاً في إهمالي. لكن ذلك كان كافياً بالنسبة لي كي أفكر بالانتقام، وأياً يكن، فلقد كان ذلك انتقاماً مجلجلاً وعبرة له، مما جعله يظهر أمام الجميع بمظهر سخيف بعض الشيء.

بما أن الدكتور فيلاسا رجل جاد، مهذّب وهادئ، في السابعة والأربعين من عمره، متزوج ولديه أولاد، فلم أكن راغباً أن أشركه في أعمالي الشريرة من إلصاق الورق أو شدّه بضفيرته، كان سيكون أمراً سيئاً بعض الشيء، بدأت أتأمّله بقية فترة بعد الظهر، تبعته في سيره حول الحديقة، حيث ذهب الجميع للتنزه. رأيته يتحدث مع الدونا أوسيبيا، وهي شقيقة الرقيب الأول دومنغيز. سيدة قوية وعانس، وهي إن لم تكن جميلة فهي ليست قبيحة أيضاً.

« أنا غاضبة جداً منك» قالت له.

« لماذا؟»

« لأنه... لا أعلم لماذا...قد يكون قدري.....أعتقد أن الموت يكون أفضل في بعض الأحيان».

ذهبوا خلف أجمة صغيرة، كان وقت الشفق، وتبعتهم فوراً. كانت شرارة النبيذ والشهوة تلمع في عينيّ فيلاسا.

«دعني أذهب» قالت له.

« لن يرانا أحد، لماذا تفكرين بالموت؟ لماذا تفكرين بهذه الطريقة؟ أنتِ تعلمين أني سأموت أيضاً... ماذا سأقول عن نفسي؟ إني أموت كل يوم من الحب ومن الشوق».

وضعت الدونا أوسيبيا منديلاً على عينيها، وكان فيلاسا يعصر مخه وينقب في ذاكرته عن أي مقطع أدبي حتى وجد إحدى المقاطع، والتي اكتشفتُ لاحقاً أنّها من أوبرا لأنطونيو خوسيه دا سيلفا، اليهودي:

« لا تبكِ يا حبيبتي، لا تتمني أن ننفصل هذا اليوم إلى فجرين منقسمين».

قال ذلك وسحبها نحوه، قاومت بعض الشيء لكنها استسلمت بعد ذلك، التحمت وجوههما من بعضها بعضاً وسمعت صوت قبلة خفيفة، قبلة ناعمة جداً، كانت من أكثر القبلات خجلاً على الإطلاق.

« دكتور فيلاسا قبّل الدونا أوسيبيا « قلت ذلك بأعلى صوتي راكضاً في الفناء.

كانت كلماتي بمثابة انفجار، صُعق الجميع وجمدوا في أمكنتهم. جالت عيون الناس في كل مكان، وتبادلوا الابتسامات والهمسات الماكرة. جرّت الأمهات بناتهن بحجة الندى، وشدّني والدي من أذني مدَّعياً معاقبتي لكنه حقاً كان منزعجاً من طيشي. ومع ذلك، استعدنا الحادثة في اليوم التالي على الغداء، قرص أنفي ضاحكاً وهو يقول:» إنك شيطان صغير، شيطان صغير».

***

قفزة

هيا نقرّب خطواتنا ونقفز معاً إلى المدرسة، المدرسة المُملة حيث تعلمت القراءة والكتابة والعدّ، وضرب الأكواز وتجميع ما يسقط منها، وممارسة الأذية، أحياناً من على قمم التلال، وأحياناً على الشواطئ، أينما كان الأمر مناسباً للكسالى. كانت أحياناً أوقاتاً مريرة، كان ثمة توبيخ، وعقوبات، حصص مجهدة طويلة وعديمة النفع أيضاً، حصص سطحية جداً وتافهة جداً. الشيء الوحيد الذي كان سيئاً حقاً هو الأستاذ الذي كان يضربنا بسعف النخيل، وبالرغم من ذلك، أوه أيها الأستاذ: كنت تشكل رعباً لي في فترة طفولتي، كنت أنت ذلك القادم بهيئة أستاذ عجوز، نحيل وأصلع، حفر في عقلي الأحرف الأبجدية، علم العروض، بناء الجمل، وكل شيء يعرفه. كنت معلماً فاضلاً لهذا كنت مكروهاً من قبل المعلمين الجدد. آه لو أني تمكنت من البقاء في كنفك بروحي اليافعة، وجهلي، وسيفي، سيفي الذي من عام ١٨١٤ هو ذلك السيف المتفوق على سيف نابليون بونابرت. ما الذي أراده مدرسي القديم بعد كل هذا؟ حفظ الدرس والالتزام بالأخلاق في الصّف، لا شيء أكثر أو أقل مما تريده الحياة – في الفصل الأخير– مع فارق أنك إذا زرعت الخوف في قلبي، فلن أغضب. ما زال بإمكاني رؤيتك الآن، تدخل الصف بحذائك الجلدي الأبيض، رداؤك، المنديل في يدك، رأسك الصلعاء، ذقنك الحليقة والنظيفة. أراك تجلس، تشخر، تنخر، تلتقط الجزء الذائب من الشمعة في قبضتك ثم تأمرنا أن نُتبّع الدرس، لقد فعلت هذه الأشياء على مدى ثلاثة وعشرين عاماً، هادئاً، غامضاً، دقيقاً، تمكث في منزل صغير في روا دو بيلو، لا تزعج العالم باعتدالك، حتى عندما تقبع في الظل، راحلاً عن هذا العالم، لن يبكي عليك أحد سوى عجوز زنجي، لا أحد حتى أنا، أنا الذي أدين لك بمبادئ الكتابة الأولية.

كان اسم معلّمي لودغيرو، دعونا نكتب اسمه الكامل هنا على هذه الورقة، اسم مشؤوم لأن الكنية تعني صرصور، وهذا ما أعطى الأولاد سبباً وجيهاً للضحك وتأليف النكات الفجّة. أحد الأولاد وكان اسمه، كوينكاس بوربا، كان فظاً جداً مع الأستاذ المسكين في ذلك الوقت. كان يضع صرصوراً ميتاً في جيب بنطاله مرتين أو ثلاث مرّات في الأسبوع. كان بنطاله واسعاً مشدوداً برباط. وأحياناً يضع الصرصور في درج مكتبه، أو في المحبرة. وفي حال عثر على الصرصور الميت في ساعات الدوام المدرسي كان يقفز عالياً، يمرر عينيه المشتعلتين غضباً بيننا، منادياً علينا بأسماء عائلاتنا: كنا أولاداً متطفلين، جاهلين، أشقياء، أوغاداً، بعضنا كان يرتعش خوفاً، والبعض الآخر يتذمّر. ومع كل هذا كان كوينكاس بوربا يبقى هادئاً، يحدّق في المدى الشاسع وكأنه لم يفعل شيئاً. كان كوينكاس بوربا، ولداً سعيداً، لم أتعرف في طفولتي ولا في

حياتي كلّها على ولد أكثر بهجة وأكثر مرحاً وأكثر إبداعاً وأكثر أذى منه، ليس فقط في المدرسة بل في المدينة كلّها. كانت والدته أرملة ثريّة، تقدّس ابنها وتحضره إلى المدرسة مدللاً، في أحسن هندام وأحسن أناقة، يتبعه خادم بمظهر أخّاذ، كان الخادم يتركنا نلعب الهوكي، نصطاد الطيور في أعشاشها أو السحالي في منطقة ليفرمينتو وتلال كونسيفيو، أو ببساطة نجوب الشوارع طلقاء كولدين متسكعين وكسولين. وكإمبراطور، كان من دواعي سروري رؤية كوينكاس بوربا يلعب دور الإمبراطور في مهرجان الروح القدس.

كان يختار دوماً في ألعاب طفولتنا دور الملك والوزير، عموماً كان يختار دور أي شخص ذي نفوذ، أياً كان. كان الوغد يتّسم بالجاذبية والوقار، وبإطلالة بهيّة في وقفته وفي مشيته.

مَن كان سيقول ذلك.....دعونا نلتقط القلم مرة أخرى، دون أن نتوغل في الأحداث. دعونا نقفز إلى عام ١٨٢٢، لتاريخ الاستقلال السياسي وتاريخ عبوديتي الأولى.

***

القبلة الأولى

في السابعة عشرة من عمري بدأ يزغب الشعر فوق شفتي العلوية وكنت متشوقاً لأن ينمو شاربي. كانت عيناي تشعّان حيوية وصرامة، كانا من أبرز ملامح رجولتي الحقيقية. منذ أن أظهرت عجرفة واضحة كان من الصعب تحديد ما إذا كنت طفلاً بعجرفة رجل، أو رجلاً بمظهر صبيّ. باختصار كنت ذلك الشاب الوسيم، الوسيم والمقدام الذي كان يخوض الحياة بحماس، السوط في يده والدم في عروقه، سريع الغضب، عنيف، رشيق الخطوات، كجواد في رقصة شعبية، كنت ذلك الشاب الذي من أجله كانت الرومانسية تتجول في قلاع القرون الوسطى، فقط لتهرب إليه على أجنحة عصرنا، لكن الأكثر سوءاً هي الرومانسية التي التهمت هذا الرجل لدرجة أنه كان من الضروري استبعاده جانباً، حيث عندما جاءت الواقعية وجدت الديدان والجذام يأكلانه، وبدافع الشفقة أثقلوا كتبهم به.

نعم، لقد كنت شاباً وسيماً ورشيقاً وحسَنَ التصرف، وكم من السّهل تخيّل كيف أنّ أكثر من سيدة عقدت حاجبيها خلفي أو رفعت عينيها نحوي اشتهاء لي. وبالرغم من كل هذا، فإن سيدة واحدة فقط هي من أسرتني، لا أعلم إن كان يتوجب عليّ قول ذلك. فهذا الكتاب كتاب طاهر، هدفه نبيل، على الأقل فيما يرمي إليه، ولطالما كان هدفه نبيلاً. لكن مع ذلك، إمّا أن تقول كل شيء أو لا شيء. إنّ المرأة التي سلبتني عقلي كانت سيدة إسبانية اسمها مارسيلا» مارسيلا الجميلة»، كما كان الأولاد يدعونها في تلك الأيام. لقد كان الأولاد محقّين، كانت الفتاة ابنة بستانيّ من أستورياس، أخبرتني ذلك بنفسها في أحد الأيام لأن القصة الأقرب للواقع أنها ابنة محامي من مدريد، أحد ضحايا الغزو الفرنسي، جُرِحَت وسُجنتْ وتعرّضت لإطلاق نار عندما كانت في الثانية عشرة من عمرها فقط.

وسواء كان والدها محامياً أو بستانياً، لكن الحقيقة أنّ مارسيلا لم يكن لديها أي براءة ريفية و لم تكن تُعِرْ اهتماماً للقوانين، كانت فتاة طيّبة، مرِحة، دون أي نوايا أخرى، مقيدة بقسوة ذلك الزمن الذي لم يكن يسمح لها بالثرثرة والنميمة، مولعة بالرفاهية، نافذة الصبر، صديقة المال والشباب اليافعين. في تلك السنة كانت تعشق شاباً بجنون، يدعى زافيير، شاب ثري لكنه مريض بالسل. رأيتها أول مرة في روسيو غراند، في ليلة من الألعاب النارية احتفالاً بإعلان الاستقلال ومهرجان الربيع، فجر روح الشعب. كنّا أزواجاً من الشباب، أنا والآخرين، انتقلنا من الطفولة

لمرحلة الشباب بكامل عنفواننا، رأيتها قادمة على محفّة [1]، رشيقة وجذّابة، نحيلة بجسد متمايل، أنيقة بعض الشيء، لم أجدها أبداً من النساء العفيفات. « اتبعني » قالت ذلك لخادمها. وتبعتها أنا، كأي خادم آخر، وكأنها طلبت مني أن أتبعها وكأن الطلب وجّه إليّ، تبعتها ووقعت في الحب، تنبض الحياة في داخلي، ممتلئاً بتباشير الفجر الأولى. كانوا ينادون عليها طوال الطريق: » مرسيلا الجميلة «، أذكر أنّي سمعت ذلك الاسم من عمي جواو ووقفت حينها، يجب أن أعترف، وقفت هناك مشدوهاً. بعد ثلاثة أيام سألني عمي سراً إن كنت أنوي أن أتناول العشاء بصحبة بعض الفتيات في كاجيروز، ذهبنا وقد كان ذلك منزل مرسيلا وزافيير الذي بالرغم من مرضه ترأس المأدبة الليلية حيث أكلت قليلاً أو لم آكل لأن تركيزي كان منصبّاً على سيدة المنزل.

كانت السيدة الإسبانية أنيقة جداً، كانت هناك أكثر من ستة نساء، كنّ جميعهن بائعات هوى، جميلات، مشعّات وينبضن بالحياة، لكن الإسباني....

لقد دفعني الحماس وجرعات قليلة من النبيذ، ومزاجي النزق والمتهوّر، للقيام بشيء واحد، للمغادرة، وعلى باب المنزل المفضي إلى الشارع، أخبرت عمي أن ينتظر للحظة وعدت إلى الداخل.

« هل نسيت شيئاً؟ « سألتني مرسيلا وهي واقفة على الدرج.

« نسيت منديلي ».

أفسحت لي الطريق لأدخل إلى غرفة الجلوس، أمسكت يديها، جذبتها إليّ، وقبّلتها، لا أعلم إن كانت قد قالت أي شيء، أو بكت، أو صرخت، أو نادت أحدهم، لا أعلم شيئاً، لأني رحلت مسرعاً كالإعصار، بخطوات متقلقلة كوني كنت ثملاً.

***

١ المحفّة: هي نوع من المركبات أو العربات الخشبية بدون عجلات، والتي يحملها الرجال لنقل الأشخاص، تُرفع على الأكتاف بواسطة قضيبين من الخشب.

مرسيلا

تطلّب مني الأمر ثلاثين يوماً لأعبر من روسيو غراند إلى قلب مرسيلا، ولم يكن يقتضي الأمر امتطاء حصان الرغبة العمياء بعد ذلك، وإنّما حمار الصبر، حمار ماكر وعنيد في الوقت نفسه، لذلك كانت أمامي طريقتان لإغواء قلب المرأة، الطريقة العنيفة كطريقة ثور أوروبا [١] وطريقة التسلّل المُبطّن على غرار بجعة ليدا [٢] أو طريقة حمّام ذهب داناوي [٣]، أصبحت هذه الطرائق الثلاث التي ابتكرها الإله زيوس طرقاً بالية، لقد استبدلت بالحصان والحمار. لن أشير أيضاً للمكائد التي حبكتها أو التلفيقات أو التأرجح بين الثقة والخوف أو هدر الوقت بالانتظار، أو أي شيء من هذه الأشياء التمهيدية. يمكنني أن أخبركم أن الحمار مثل الحصان، حمار كحمار سانشو [٤]، ذاك الفيلسوف الذي أوصلني إلى منزلها في نهاية الفترة التي أشرت لها في الأعلى، ترجّلت عنه، ربتّ على فخذه وأرسلته ليأكل من العلف.

أوه، إنّها إثارة شبابي الأولى وكم كانت جميلة بالنسبة لي، هكذا كان يجب أن يكون تأثير الشعاع الأول في نشوء الخليقة. تخيّل فقط تأثير أول شمس تشرق على وجه عالم في طور التبرعم، ستجد أن الأمر هو ذاته عزيزي القارئ، وفي حال قمت بعدّ الثمانية عشر عاماً الأولى من عمرك، فمن المؤكد ستتذكّر أنها كانت كذلك. علاقتي ليست جيدة مع الأسماء وأيّاً كانت تسمية هذه العلاقة: سواء عاطفية أو ارتباط فإنها مرّت بمرحلتين: المرحلة القنصلية [٥] والمرحلة الإمبراطورية، خلال المرحلة الأولى والتي كانت قصيرة، ساد حكمنا أنا وزافيير دون أن يخطر على باله أني كنت أشاركه حكم روما، وعندما لم تتمكّن سذاجته من تحمّل وطأة العلاقة، تنازل قليلاً عن مبادئه واستخدمت أنا كامل قوّتي، كانت تلك المرحلة القيصرية [٦]، لقد كان ذلك كل عالمي، لكنه لم يكن عالماً مجانياً أيضاً، كان عليّ تجميع المال ومضاعفته واختراعه أيضاً.

---

١ أحد الطرق التي اتبعها زيوس بتحوله إلى ثور أبيض لإغواء حبيبته أوروبا التي بدورها أغراها جمال الثور الأبيض وجلست على ظهره فأسرع وركض بها نحو البحر وسبح حتى وصل جزيرة كريت.

٢ بجعة ليدا: إحدى أساطير الميثيولوجيا القديمة، ليدا هي ملكة إسبارطة، ابنة إيتوليا ثيستياس، أعجب زيوس بليدا وتحوّل إلى بجعة لإغوائها.

٣ داناوي: أيضاً من قصص الميثيولوجيا الإغريقية وهي إحدى حبيبات زيوس التي أغراها.

٤ حمار سانشو: نسبة إلى شخصية سانشو في رواية دون كيخوتة لسرفانتس.

٥ يقصد بالقنصلية: التشاور والمشاركة، أي مشاركته رجل آخر للمرأة التي يحبها.

٦ القيصرية: هي المرحلة الأقوى في تاريخ حكم روما، واستخدمها الكاتب كاستعارة للدلالة على أن الفوز للأقوى، مشيراً إلى أن روما هي مارسيلا.

في البداية استغلّيت سخاء والدي معي، كان يعطيني أي شيء أطلبه دون توبيخ أو تأخير، كان سريعاً في تلبيتي. وكان يقول للجميع إني مراهق وأنه كان مثلي في يوم من الأيام. لكن سوء التصرّف بلغ حداً مفرطاً مما أجبره على وضع قيود على هذا السخاء، ثم تزايد الأمر، حتى لجأت إلى أمي أسترضيها لتقدم الدعم لي، لقد فعلت ذلك سراً لكنها لم تقدم لي مبالغ كبيرة. ثم وضعت يديّ على المصدر الأخير، وهو نهب ميراث أبي، بالتوقيع على شيكات كان عليّ أن أسددها يوماً ما مع الفوائد.

« أوه، هل حقاً هذا لي؟ « كانت مرسيلا تقول لي عندما أجلب لها بعض الحرير، أو بعض قطع المجوهرات، « هل حقاً تحاول خوض معركة من أجلي، لأن هذه تبدو هدية باهظة الثمن نوعاً ما». وإذا كانت الهدية قطعة جواهر كانت تتفحصها بأصابعها، بعد قولها هذا الكلام، تنقّب عن الضوء الأجمل في قطعة المجوهرات، تجرّبه، تضحك وتقبلني باندفاع وعناد صادق، لكني أعترف أن السعادة التي كانت تنغدق من عينيها كانت تفيضني بالفرح أيضاً لرؤيتها سعيدة بالهدية. كان يروقها كثيراً ذهب الدبلون العتيق الخاص بعائلتنا وكنت أجلب لها ما أمكنني منه، كانت مرسيلا تضعها جميعاً في صندوق حديدي صغير، وتخبئ مفتاح الصندوق في مكان لا يعلمه أحد، خبأته لأنها كانت خائفة من الخادمات، كان المنزل الذي تقطن فيه في كاجيروز من أملاكها، كان الأثاث المصنوع من خشب الجَكَرندة [1] أثاثاً صلباً وجيداً كما جميع قطع الأثاث الأخرى، المرايا، الأباريق، الأطباق الفضيّة، الأطباق الهندية الجميلة المهداة من قاضي الاستئناف.

أنت لوحة شيطانية، إنك تثيرين أعصابي دائماً، قلت لها هذا الكلام عدّة مرّات و لم أخف عنها انزعاجي من هدايا هذا أو ذاك العشيق، الأمر الذي آلمني في أوقات كثيرة. كانت تستمع إليّ وتضحك، بنظرة بريئة؛ بريئة وشيء آخر لم أفهمه جيداً في ذلك الوقت، لكن الآن، أسترجع تلك الحادثة، أظن أنها كانت ضحكة ذات وجهين، وجه شيطاني لساحرة من ساحرات شكسبير، ووجه ملائكي مثل ساروفيم[2] في قصائد كلوبستوك [3].

لا أعلم إن كان كلامي هذا واضحاً، حيث حدث في أحد الأيام أنه لم يكن بإمكاني إهداءها عقداً كانت قد رأته في محل مجوهرات، لكنها ردّت قائلة أن كل هذا لا يعنيها وأن مشاعرنا ليست بحاجة للتحفيز بهذه الطريقة المبتذلة.

---

١ الجكرندة: نوع من الأشجار الاستوائية ينمو في أمريكا.

٢ ساروفيم: أحد ملائكة الطبقة الأولى الحارسين عرش الله في المعتقد اليهودي القديم.

٣ كلوبستوك: شاعر ألماني، ولد عام ١٧٤٢.

« لن أسامحك إن شكّكت في حبي لك » قالت ذلك خاتمة كلامها وهي تهددني بإصبعها. ثم بسرعة فتحت يديها كطير، واضعة راحتيها على وجهي، وسحبتني إليها بحركة طفولية تنم عن فرح. بعد ذلك، تابعت حديثها عن الأمر بكل بساطة ووضوح وهي مستلقية على الأريكة. لم ترغب أبداً في أن يشتري أحد مشاعرها، لقد خدعت الناس بمشاعرها السطحية في كثير من الأحيان، ولكن مشاعرها الحقيقية احتفظت بها لقلة قليلة من الأشخاص.

دوراتي، على سبيل المثال، الملازم الثاني الذي أحبته حقاً قبل عامين، و لم يكن بإمكانه تقديم هدية ثمينة لها إلّا بعد أن خاض معركة، كما حدث معي. كانت تقبل عن طيب خاطر تذكارات رخيصة كصليب ذهبي أهداه لها في إحدى المرّات:

« هذا الصليب....». قالت ذلك، واضعة يدها على صدرها وأخرجت الصليب الذهبي الناعم المربوط بشريط أزرق حول عنقها.

قلت لها وأنا أتأمّل الصليب:» لكن هذا الصليب...ألم تقولي من قبل إن والدك هو من أهداك؟.....».

هزّت رأسها مع نظرة شفقة قائلة:» أخبرتك ذلك بغية عدم إزعاجك، لهذا لا يمكنكَ أن تعتبر كلامي كذباً». تعال يا صغيري، لا تشكّ بي، كنت حينها أحبّ شخصاً آخر، ما المزعج في ذلك؟ انتهى كل شيء، ويوماً ما عندما نفترق....».

« لا تقولي هذا» جاوبتها بنبرة حادّة.

« يوماً ما سينتهي كل شيء».

لم تستطع أن تكمل كلامها، بدأ نشيج البكاء يخنق صوتها، أمسكتني بيديها، وشدّتني وقربتني أمام صدرها، وهمست بنعومة في أذني:» أبداً، أبداً يا حبي». شكرتها بعينين دامعتين، وفي اليوم التالي جلبت لها العِقد الذي رفضت أخذه.

« من أجل أن يذكّرك بي عندما نفترق.....» قلت لها.

التزمت مارسيلا بصمت مطبق في بادئ الأمر، ثم قامت بحركة نبيلة وكأنها ستقتلع العقد من عنقها وتلقيه على الأرض. أمسكتُ يدها ورددتها عن فعلتها، توسلتها ألاّ تفعل عمل مريع كهذا، وأن تحتفظ بالعقد، فابتسمت واحتفظت به.

وفي غضون ذلك، كانت تكافئني بشدّة على تضحياتي، تتحرى أفكاري وتحاول أن تستشف ما أكتمه. لم تكن رغبتي بأن تتأنى في تقديم الوفاء الخالص لمشاعري بهذا الشكل اليقظ.

لم تكن رغبات عقلانية أبداً لكنها كانت نزوات نقية، مجرّد رغبة طفولية في رؤية فستانها بطريقة مختلفة، مع إكسسورات كهذه، هذا الفستان تحديداً وليس شيئاً آخر، والذهاب للمشي أو القيام بعمل آخر، وسوف توافق على فعل كل شيء، تبتسم وتثرثر بمرح.

وكانت ستقول لي:» إنّك بارع...»

وسوف تلبي طلبي وترتدي فستانها والعقد والأقراط بشكل ساحر.

****

وجه غير أخلاقي

خطرت لي هذه الفكرة غير الأخلاقية والتي هي في الوقت ذاته كانت تصحيحاً لأسلوب التفكير. أعتقد أني أخبرتكم من قبل أن مارسيلا كانت تحب زافيير حدّ الموت، لم تكن تموت في حبّه بل كانت تحيا في ظل حبّه، الحياة ليست ذاتها الموت، وهذا الكلام يشهد له جميع صاغة المجوهرات في العالم، كما أن البشر يولون أهمية كبيرة لقواعدهم في الحياة.

أيّها الجواهريون الطيّبون، ما نفع الحب إذا لم يكن من أجل خدمة مصالحكم؟ ثلث أو خمس التجارة العالمية على الأقل هي تجارة القلوب.. هذه هي الفكرة اللاأخلاقية التي كنت أحاول شرحها والتي هي في حقيقة الأمر أكثر غموضاً من كلمة « لا أخلاقي»، لأن ما أحاول قوله لا يمكن فهمه بسهولة. أيّها الجواهريون: ما أحاول قوله هو أن أجمل امرأة في العالم لن يقلّ جمالها إذا أحيطت بتاج من الأحجار الكريمة، لن تغدو أقل جمالاً ولا أقل محبّة. على سبيل المثال، مارسيلا كانت جميلة جداً وتحبني...

من الأرجوحة وأشياء أخرى

أحبّتني مارسيلا لخمسة عشر شهراً ولإحدى عشرة كونتوسا [1] لا أكثر ولا أقل، أصيب والدي بالصدمة حالما علم بأمر الإحدى عشرة كونتوسا، لقد أدرك أن الأمر وصل إلى أبعد مما كان يتوقع وتجاوز حدود نزوة المراهقة.

قال والدي: » ستذهب قريباً إلى أوروبا لتدرس في إحدى جامعاتها، ربما في جامعة كويمبرا [2] ، أريدك أن تصبح رجلاً جاداً بدل أن تكون لصاً متسكعاً «.

أبديتُ تعبيراً صادماً على وجهي، وتابع والدي: « لص يا سيدي، نعم، أنت لص، فالولد الذي يفعل هذا بأبيه ليس سوى.....» وأخرج من جيبه بطاقات تسديد الديون التي كان قد فكّ رهنها للتو ولوّحهم في وجهي قائلاً: » هل ترى هذه أيّها الوغد؟ هل هذه هي الطريقة التي يفترض أن يحمي بها الشاب اسم عائلته؟ هل كسبنا ثروتنا أنا وأجدادي من لعب القمار أو من التسكّع في الشوارع؟ أنت ولد طائش وغارق في اللذات، وعليك هذه المرّة أن تردّ اعتبارك لنفسك أو سوف ترحل دون أيّ شيء».

كان غاضباً وحانقاً لكنه غضب قصير ومعتدل، استمعت إليه بصمت ولم أعارض فكرة السفر بأي شكل من الأشكال كما كنت أفعل سابقاً، كنت أفكّر باصطحاب مارسيلا معي. ذهبتُ لرؤيتها وشرحت لها أزمتي مع والدي مقدماً اقتراحي لها، استمعت لي مارسيلا وعيناها في الهواء. لم ترد مباشرة، وعندما ألحّيتُ أن أسمع ردها، قالت إنها تريد البقاء وأنها لا تستطيع الذهاب إلى أوروبا.

« لماذا لا تستطيعين الذهاب معي إلى أوروبا؟»

« لا أستطيع» قالتها بنبرة حزينة، « لا يمكنني أن أتنفس ذلك الهواء وأن أتذكّر كيف قتل والدي المسكين على يد نابليون بونابرت».

« أيّ والد تقصدين؟ البستاني أم المحامي؟»

---

١ الكونتوس: عملة نقدية برتغالية.

٢ كويمبرا: مدينة في البرتغال وتسمى أيضا قلمرية أو قلنبرية.

غضّنت جبينها وتمتمت.... ثم تذمرت من حرارة الجو طالبة كأساً من نبيذ الأناناس، وقد أحضرته الخادمة في طبق فضيّ، والذي كان واحداً من الهدايا التي قدمتها لها، وبتهذيب قدمت لي مارسيلا الضيافة، لكن ردي كان عنيفاً، ضربت الطبق الفضي والكأس، انسكب النبيذ على فستانها، صاحت الخادمة، فصرختُ عليها بأعلى صوتي أن تخرج. وعندما أصبحنا وحدنا أنا ومارسيلا أخرجت كل ما في قلبي من حنق. أخبرتها أنها كانت وحشاً مخيفاً وأنها لم تحبني يوماً حيث تركتني أغرق حتى القاع دون أيّ مبرر مقنع. دعوتها بكل الأسماء القبيحة التي يمكن أن تُقال وأبديت تصرفات وحشية أمامها، مُظهراً وحشيتي، لكنها ظلّت جالسة، تنقر على أسنانها بأظفارها، باردة كقطعة رخام. كنت مصرّاً على خنقها بالكلام، أو إهانتها على الأقل، وجعلها تركع عند قدمي، ربما كنت سأفعل، لكن الأمور أخذت منحىً آخر. كنت أنا من ألقى نفسه عند قدميها، نادماً ومتوسلاً، قبّلتهما، تذكرتُ الشهور الماضية من السعادة الغامرة ونحن سوية، أعدت على مسامعها أسماء الغنج والدلع التي كنت أناديها بها في الماضي، جالساً على الأرض، واضعاً رأسي بين ركبتيها، ضاغطاً على يديها، متلهفاً، مهتاجاً، توسلتها باكياً بأن لا تتخلى عني...

جلست مارسيلا تنظر إليّ لبضع ثوان، بقينا صامتين حتى دفعتني بهدوء وبطريقة مزعجة.

« توقف عن إزعاجي » قالت لي.

نهضتْ، هزّتْ فستانها وكانت ما تزال مبللة، وذهبتْ إلى غرفة نومها.

صرخت « لا، لا تذهبي إلى هناك، لا أريدك أن... « حاولت أن ألمسها بيديّ، لكني كنت قد تأخرت، لأنها مضت بسرعة وأقفلت باب غرفتها.

خرجتُ كالمجنون. أمضيتُ ساعتين عصيبتين، أتجوّل في الأحياء المهجورة والنائية، حيث كان من الصعوبة إيجادي. مضيت، يأكلني اليأس بشكل رهيب وكأنها كآبة نهمة تقتات مني، استرجعت الأيام والساعات، لحظات الانفعال، والآن أنا مسرور بتصديق أنها كانت لحظات سرمدية خادعاً نفسي، إلّا أنها كانت كابوساً. أريد دفعهم بعيداً كعبء ثقيل. ثم قررت أن أبدأ مباشرة بشطرِ حياتي إلى نصفين، وسأعزي نفسي بفكرة أن مارسيلا سيضنيها الشوق والندم جرّاء رحيلي وسألقّنها درساً. منذ أن بدأت تحبني بجنون، تسرّب إلى داخلها شعور غريب، شعور باسترداد الذكريات، كذكرى الملازم دوراتي.

عند هذه النقطة تحديداً انغرزت مخالب الغيرة في قلبي، ألهمتني الطبيعة وصدح صوتها في داخلي أني سأصطحب مارسيلا معي، « رغماً عنها.. رغماً عنها...» رددت ذلك، وأنا أضرب الهواء بقبضتي.

وأخيراً، توصلت لفكرة من شأنها أن تكون مخرجاً آمنا للأمور، أرجوحة لآثامي، أرجوحة للأفكار المبهمة. قمت بالعمل على فكرة الإنقاذ كما فعلت مع فكرة الضماد في الفصل الثاني، لم تكن بالنسبة لي أقل سحراً منها، ولا أقل إذهالاً، وفتنة بعظمتها، وانبهاراً بها، وانجذاباً لها دوماً. لقد حثّتني أن أبحث عن وسائل مادية أكثر بدلاً من توسّلها. لم أحسب العواقب، لجأت إلى آخر مصدر أقترض منه المال. قصدتُ روا دوس أوريفيس، اشتريت أفضل قطعة جواهر في المدينة، مشبك شعر عاجيّ مرصّع بثلاث ألماسات كبيرة وأسرعت به إلى منزل مرسيلا.

كانت مرسيلا مستلقية في الأرجوحة الشبكية، بملامح لطيفة ومتعبة، تدلّي إحدى قدمها للأسفل، تظهر قدمها الصغيرة المغطاة بالحرير، شعرها منساب ومنسدل، مظهرها هادئ وحالم.

قلت لها:» تعالي معي، سأحصل على المال، لدينا الكثير من المال، ويمكنك الحصول على أيّ شيء تريدينه، انظري.. خذي هذا». وأظهرت لها المشط المرصع بالألماس. أبدت مارسيلا استحساناً طفيفاً، ورفعت نفسها قليلاً، مائلة على كوعها ناظرة للمشبك لثوان معدودة. ثم أبعدت عينيها، وسيطرت على نفسها. أدخلتُ يديّ في شعرها واستللت خصلاً منه بسرعة وضفرتُ جديلة، قمت بتسريحة لم تكن أنيقة كفاية، ووضعت في أعلى رأسها المشبك المرصّع بالألماس. ثم اقتربت منها مجدداً وعدّلت من وضعية الجديلة مخفضاً مستوى المشبك قليلاً من أحد الجوانب، محاولاً خلق نوعٍ من التناسق في تلك الفوضى، قمتُ بهذا بعناية فائقة واهتمام بالغ كأم تسرّح شعر ابنتها.

« هناك» قلت لها.

« مجنون « كان أول رد منها. والرد الثاني كان بجذبي لها ومكافأتي على تضحيتي بقبلة كانت الأكثر اتقاداً على الإطلاق. ثم قامت بسحب المشبك العاجي من شعرها، وأبدت إعجابها لوقت طويل بالحرفية العالية في صنعه، ناظرة إليّ بإمعان وأومأت برأسها بنظرة تأنيب.

وقالت:» وما الذي سأفعله معك؟»

« ألن تسافري معي؟ »

فكّرت مارسيلا لدقيقة و لم تعجبني النظرة التي ظهرتْ على وجهها حيث أشاحت بنظرها إلى الحائط ثم نظرت إليّ مجدداً وأعادت نظرها إلي المشبك، وسرعان ما تلاشى انطباعي السلبي عندما أجابت بإصرار:

« سأذهب معك، متى ستبحر؟»

« بعد يومين أو ثلاثة أيام».

« سأذهب معك إذن «.

شكرتها وأنا راكع على ركبتيّ، شعرت أن حبيبتي مارسيلا القديمة قد عادت. ثم ابتسمتْ وذهبتْ لتخبئ قطعة المجوهرات، ومضيت أنا ونزلت عبر الدرج.

****

رؤيا في البهو

عند أسفل الدرج، في آخر الرواق المظلم، توقفت لبضعة دقائق لألتقط أنفاسي وأستجمع أفكاري المبعثرة، ولأرى نفسي في خضم هذه المشاعر الغامضة والمتضاربة مرّة أخرى، ظننت أني كنت سعيداً. صحيح أن الألماس أفسد سعادتي بعض الشيء، لكن الحقيقة ليست بعيدة عن الواقع الذي يقول إن السيدة الجميلة كان بإمكانها أن تغرم حتى بالإغريق وهداياهم. ومع كل هذا فقد وثقت بحبيبتي مارسيلا الطيّبة التي قد يكون لديها عيوب لكنها أحبّتني...

« أيّها الملاك» تمتمتُ وأنا أنظر إلى سقف البهو.

وهناك – يا للسخرية– رأيت مارسيلا تحدق بي، هذه النظرة ذاتها التي سرت أمامي قبل قليل كومضة شك، جعلت أنفي يبدو كأنف بكبارة [1] ، عاشق مسكين من « ألف ليلة وليلة». يمكنني رؤيتك هناك، تركضين على طول الرواق خلف زوجة الوزير [2] ، التي لا ترين فيها سوى الممتلكات الثمينة، تركضين وتركضين، على طول الطريق المحاط بالأشجار على جانبيه، الطريق الذي خرجتِ منه إلى الشارع حيث سخر منك جميع الخيّالة وضربوكِ. بدا لي بعد ذلك أن الرواق الذي عبرته مارسيلا لم يكن سوى الرحلة التي سنقوم بها، وأمّا الشارع فكان في بغداد.

في الواقع نظرتُ إلى الباب ورأيت ثلاثة خيّالة على الرصيف، أحدهم في رداء كاهن، والثاني يرتدي بزّة خدم، والثالث في ملابس مدنية، ودخلوا ثلاثتهم إلى الرواق، سحبوني من يديّ، ووضعوني في عربة نقل، كان والدي على اليمين، وعمي الكاهن على اليسار، والشخص الثالث في مقعد السائق، ومن هناك أخذوني إلى منزل قائد الشرطة، وتم نقلي إلى سفينة كانت مسافرة إلى لشبونة، يمكنك أن تتخيّل معارضتي ومقاومتي ومعاندتي لمنع هذا الأمر لكن كل ذلك لم يكن مجدياً.

غادرت الميناء بعد ثلاثة أيام، في صمت وكآبة، لم أكن أبكي حتى، تملّكني هاجس واحد، وفكرة ملعونة، كانت في حينها أن أغوص في المحيط وأنا أردد اسم مارسيلا.

---

١ بكبارة: شخصية من ألف ليلة وليلة ترمز للفضول.

٢ شخصية من ألف ليلة وليلة.

على متن السفينة

كنا أحد عشر مسافراً، رجل مجنون بصحبة زوجته، شابان ذاهبان في رحلة قصيرة، أربعة رجال أعمال، وخادمان، وجميعهم أوصاهم والدي بي، بدءاً من القبطان الذي كان لديه الكثير من الأشياء ليعتني بها حيث كان يتكبّد عناء زوجته التي كانت في المراحل الأخيرة من مرض السل أيضاً.

لا أعلم إن كان القبطان راوده الشك بأي شيء يخص سبب حزني أم أن والدي هو من أطلعه على الأمر. لكني أعلم أن عينيه لم تفارقاني أبداً، كانتا تتبعاني أينما ذهبت. وعندما لا يستطيع أن يكون برفقتي، يعهد بي إلى زوجته، المرأة التي كانت تضجع دائماً على أريكة منخفضة، تسعُل دائماً، وقد وعدتني باصطحابي إلى المعالم السياحية في لشبونة، لم تكن امرأة نحيفة بل كانت مجرد خيال. وكان من المستحيل استبعاد موتها بين لحظة وأخرى. كان القبطان يتظاهر بعدم تصديقه أنها بلغت مرحلة الموت، ربما لكي يخدع نفسه، أمّا أنا فلم أكن أعرف أي شيء كما لم أفكر بأي شيء، وماذا كان سيعني لي مصير يتربّص بامرأة مسلولة في وسط المحيط؟ فالعالم بالنسبة لي كان مرسيلا فقط. وبعد مضيّ أسبوع، اعتقدتُ أنه وقت مناسب للموت. صعدت ظهر المركب بحذر، فوجدت القبطان يقف بجانب الدرابزين وعيناه شاردتان في الأفق، بادرت بالقول: » هل تتوقع حدوث عاصفة؟ « ردّ مرتعشاً « لا، لا أتوقع ذلك، لكنني فقط أنظر بإعجاب لرونق هذا المساء، انظر إنّه منظر إلهي».

لم يقنعني ما كان يحاول أن يدّعيه، بالأحرى كانت تعابيره متكلّفة أكثر من كونها فجّة وغريبة. حدّقتُ به، بدا وكأنه يتلذذ بدهشتي، وبعد ثوان قليلة، أمسك يدي وأشار إلى القمر، ثم سألني لماذا لم أكتب قصيدة عن روعة هذا المساء؟ فجاوبته أني لست بشاعر. تمتم القبطان قائلاً شيئاً ما لم أفهمه، مشى خطوتين، واضعاً يده في جيبه، وأخرج قطعة ورق مجعلكة، وعلى ضوء الفانوس قرأ قصيدة هوراسية عن الحرية في الحياة البحرية. لقد كانت قصيدة من نَظْمِه وأشعاره.

« بماذا تفكر؟»

لا أذكر بالضبط ماذا قلت له لكني أذكر أنه أمسك يدي معبراً عن امتنانه وشكره الكبيرين. وبعد أن ألقى قصيدتين على مسمعي– وكان على وشك البدء بقصيدة أخرى عندما أرسلت زوجته في طلبه– قال لهم: » إني قادم»، ثم ألقى القصيدة الثالثة على مسمعي بتمهل وبكثير من الحب.

بقيتُ وحدي، لكن شاعرية القبطان جرفت بعيداً كل الأفكار الشريرة من داخلي، آثرت الذهاب للنوم، الذي هو شكل مؤقت للموت، استيقظنا في اليوم التالي في وسط عاصفة أيقظت الخوف في قلوبنا جميعاً ما عدا الرجل المجنون حيث بدأ بالقفز قائلاً أن ابنته كانت ترسل له عربة برهام [1]. علمت أن موت ابنته تسبب بجنونه، لن أنسى أبداً المظهر الشنيع للرجل المسكين وسط تدافع الناس وهول الإعصار، يدندن ويرقص، كانت عيناه ناتئتين من وجهه الشاحب، شعره خشن وطويل. كان يتوقف أحياناً عن القفز ليرفع يديه النحيلتين ويقوم بإشارة صليب بأصابعه، ثم لوحة شطرنج، ثم حلقات ثم يضحك كثيراً وبيأس. لم تتمكن زوجته من العناية به كثيراً، مستسلمة لهلع الموت، كانت تتضرّع لجميع القديسين في السماء، ثم انحسرت العاصفة، ويجب أن أعترف أن ذلك كان تحوّلاً مهماً للعاصفة التي في قلبي. أنا الذي كنت أفكّر بمواجهة الموت، لم أجرؤ على النظر حتى في عينه عندما اقترب مني.

سألني القبطان إذا كنت قد شعرت بالخوف أو بتهديد الموت وإن كان هذا المشهد مألوفاً لي. سألني عن كل هذا باهتمام صديق، وبشكل طبيعي انتقل الحديث للحياة البحرية، وسألني بعدها إذا راقت لي قصائد الصيّادين وأجبته بذكاء أني لا أعلم عمّا يتحدث.

« سترى » أجابني القبطان.

وألقى على مسمعي قصيدة صغيرة، ثم قصيدة أخرى وهي نشيد الرعاة، ثم أخيراً خمس سوناتات اختتم بهم موهبته الأدبية في ذلك اليوم. وفي اليوم التالي وقبل أن يلقي أي قصيدة، شرح لي القبطان السبب الخفيّ الذي جعله يمتهن الملاحة ويصبح قبطاناً، وهو أنّ جدته أرادته أن يصبح كاهناً وبالفعل تعلّم بعض التعاليم باللاتينية، لم يكن ليصبح كاهناً لكنه لم يتوقف أبداً عن أن يكون شاعراً، التي كانت بالأصل موهبته الفطرية. ولكي يثبت لي ذلك بدأ على الفور وقام شخصياً بإلقاء مئة بيت شعري.

لاحظت ظاهرة واحدة، أن الحركة التي كان يقوم بها قد أضحكتني، لكن القبطان وأثناء إلقائه للشعر، كان مستغرقاً إلى أبعد حد ولهذا لم يسمع أو يلاحظ أي شيء. مرّت الأيام والأمواج ومرّ معها الشّعر وحياة زوجة القبطان أيضاً. لم تكن فترة طويلة. وفي أحد الأيام، بعد الغداء مباشرة، أخبرني القبطان أن المرأة المريضة قد توافيها المنيّة هذا الأسبوع.

صرختُ قائلاً: « بهذه السرعة! »

---

١ عربة برهام: نوع من العربات تجرها الخيول مع سقف وأربع عجلات ومقعد سائق مفتوح في المقدمة.

« نعم، لقد أمضت بالأمس ليلة سيئة للغاية».

ذهبتُ لرؤيتها، كانت تحتضر تقريباً، ومع هذا ظلّت تتحدث عن بقائها في لشبونة لبضعة أيام قبل أن ترافقني إلى كويمبرا، لأن عرضها لي كان بأن تصحبني إلى الجامعة. غادرتها يائساً، منفطر القلب، ومضيت أبحث عن زوجها، الذي كان يحدّق في الأمواج التي تتكسّر وتتلاشي عند أطراف المركب، حاولت أن أواسيه، شكرني وأخبرني بقصة حبهما، ممجداً إخلاص زوجته وتفانيها، مسترجعاً أبيات الشعر التي كتبها لأجلها، ثم ألقى على مسمعي تلك الأبيات. وفي هذه الأثناء استدعته زوجته وجاءوا في طلبه، ركضنا سوية إليها، لقد كانت حالتها حرجة، كان ذلك اليوم واليوم الذي تلاه قاسيين، وفي اليوم الثالث توفيتْ. هربت حينها من المشهد، لقد كان مُنفِّراً بالنسبة لي، وبعد نصف ساعة وجدت القبطان جالساً على كومة حبال الهاوسر، رأسه بين يديه، قلت له بعض الكلمات لأخفف عنه. « لقد توفيت كقديسة» ردّ عليّ. وهذه الكلمات لا يمكن أخذها بعين الاعتبار على أنه شخص بكامل وعيه، وقف مباشرة وهزّ رأسه وحدّق طويلاً في الأفق، وخلص بالقول « دعنا نذهب»، ثم أردف قائلاً: « دعنا نودعها إلى القبر الذي لن يفتح ثانية «.

وبالفعل، بعد ساعات قليلة كان جثمانها ملقى في عرض البحر مع المراسم المعتادة. غضّن الحزن جميع الوجوه الحاضرة، وألقى القبطان الأرمل نظرة على التلّة الصغيرة التي ضربتها صاعقة برق كبيرة.

صمت مُطبق، فتحت الموجة رحمها لاستقبال الجثّة. أغلقت بموجة خفيفة. ومضى المركب، تسكعت في مؤخرة السفينة لبضع دقائق وعيناي مثبتتان على تلك البقعة الغامضة في البحر حيث يقبع أحد منا هناك. بحثت عن القبطان لأشغله قليلاً عمّا حدث.

« شكراً لك» قال لي متفهماً نيّتي في التخفيف عنه.

« يجب أن تثق أني لن أنسى أبداً رعايتها الطيّبة لي، سيتولاها الله برعايته، ليوكيديا المسكينة، إنّها تفكّر بنا الآن وهي في السماء».

مسح دمعته بطرف كمّه، حاولت فتح حديث معه في الشّعر الذي كان شغفه. حدثته عن أبيات الشّعر التي ألقاها على مسمعي والتي دفع نقوداً لطباعتها، لمعت عينا القبطان لوهلة. « ربما وافقوا على نشرها» قال لي، « لكن لا أعلم إن كانت أبياتاً شعرية تستحق الطباعة حقاً «. أقسمت له أنّ قصائده جيدة وطلبت منه تجميعها وإعطائي إياها قبل أن ترسو السفينة ونصل اليابسة.

تمتم:» ليوكيديا المسكينة « دون أن يجيب على طلبي. « الجثمان... البحر... السماء... السفينة».

وجاء في اليوم التالي ليقرأ على مسمعي قصيدة رثاء ألّفها مؤخراً واستوحاها من وقائع موت ودفن زوجته. قرأها بصوت شجيّ وصادق، ويده ترتعش، وعندما انتهى سألني إذا كانت القصيدة تليق بزوجته، تليق بالكنز الذي خسره.

جاوبته:«نعم».

« قد تكون ليست عصريّة، قال ذلك بعجلة بعد أن فكّر لبرهة. « لكن لا يمكن لأحد أن يجرّدني من مشاعري، إنّها قصيدة عاطفية لزوجتي ولن أتراجع إلّا إذا كانت عواطفي تُنقِص من جمال القصيدة».

« لا أظن ذلك، أعتقد أنها قصيدة رائعة».

« نعم، أعتقد ذلك، قصيدة البحّار».

« قصيدة الشاعر البحّار».

هزّ كتفيه ممعناً النظر في الورقة، مردداً الأبيات الشعريّة مرة أخرى لكن دون أن يرتجف هذه المرّة، مشدداً على الغاية الأدبية والمجاز الشعريّ وإعطاء لحن موسيقي للأبيات. وبعد أن انتهى اعترف لي أنها من أكثر أعماله الشعريّة نضجاً، وقلت له إنها فعلاً كذلك، شدّ على يدي متكهناً بمستقبل زاهر لي.

***

التخرّج من الجامعة

مستقبل باهر! مع هذه الكلمات التي كانت تصدح في أذنيّ، أدرت نظري مجدداً نحو المدى، نحو المجهول والأفق الغامض. توالت الأفكار، فكرة تقود أخرى، إلى أن استبدلت مارسيلا بطموحي. مستقبل باهر! قد أغدو عالم طبيعة، أو رجل أدب، عالم آثار، مصرفيّاً، شرطيّاً أو حتى مطراناً. لنقل أني أصبحتُ مطراناً، فلَطالما كان هذا يعني المسؤولية والسمّو والسمعة الحسنة والمركز المرموق. منذ ذلك الحين بات طموحي نسراً، كسر صدفة بيضته في حينها، كاشفاً عن عين صفراء وثاقبة.

وداعاً أيّها الحب، وداعاً مارسيلا، وداعاً لأيام الهواجس، وداعاً للمجوهرات الثمينة، لحياة المجون، الوداع. غادرتك بثياب الطفولة وأتيت إلى هنا من أجل الكدح والمجد.

وهكذا ترجلت من السفينة في لشبونة، وتابعت طريقي إلى كويمبرا. كانت الجامعة تنتظرني مع مناهجها الصعبة، درستها بمستوى عادي، ومع ذلك حصلت على شهادتي بجدارة. ومُنحت وثيقة التخرج في احتفالية رائعة، كما تجري العادة في الجامعة كل عام. احتفال جميل ملأني بالفخر والحنين، الحنين في المقام الأول. حظيتُ في كويمبرا بسمعة رائعة بالنسبة لشاب ماجن. لقد كنت طالباً مُسرفاً، سطحياً، عربيداً، مشاكساً، يجيد المزاح برومانسية في الفعل وليبرالية في القول، يحيا بإيمان نقيّ في عيون مظلمة ودساتير مكتوبة. في اليوم الذي منحتني فيه الجامعة وثيقة تخرجي في مخطوط، ظننتُ أن هناك خدعة ما، وهو شيء أعترف به الآن، فالتخرّج كان بعيداً عن ذهني، ومع ذلك كنت فخوراً. دعوني أشرح لكم: شهادة التخرّج كانت بمثابة وثيقة انعتاق، لقد منحتني الحرية، لكنها منحتني المسؤولية أيضاً، وضعتها جانباً، وغادرت ضفاف نهر موندیغو[1] ليس لكوني يائساً بل بدافع الفضول ورغبة في اكتشاف المناطق الأخرى، وترك أثراً ما، للاستمتاع، لخوض الحياة، وليبقى العلم حافزاً لي طوال سنوات حياتي القادمة.

***

١ موندیغو: نهر في البرتغال، تطل على ضفافه مدينة كويمبرا أو قلمرية.

البغّال

كنت أتقدّم، ثم فجأة توقف الحمار الذي كنت أركبه، جلدته بالسوط فشبّ الحمار مرتين، ثم شبّ ثلاث مرّات، ثم مرّة أخيرة هزّني فيها بقوة وقذفني خارج السّرج بطريقة مريعة لدرجة أن قدمي اليسرى علقت في الركاب [1] . حاولت التمسك ببطنه لكنه شعر بالذعر لقيامي بهذا الفعل وحاد عن الطريق. لم أعبّر عن هذا بشكل صحيح وكما حدث بالفعل: لقد حاول الحياد عن الطريق وسار بضع خطوات، لولا البغّال الذي جاء بالصدفة وركض صوبنا في الوقت المناسب ليصحح مسار الطريق، وطبعاً لا يخلو الأمر من الجهد وبعض المخاطر، وعندما أصبح الحيوان تحت السيطرة قام البغّال بفكّي من الرّكاب وساعدني في الوقوف على قدمي.

وقال البغّال لي: » لقد حالفك الحظ يا سيدي».

لقد كان على حق، فلو أن الحمار ركض هارباً، لكنت أصبت حقاً بكدمات– ولستُ متأكداً– لكن قد يكون الموت هو النتيجة الطبيعية لهذه الكارثة.

ما أصابني هو: شقٌ مفتوح في الرأس، تورم، نوع من الإصابات الداخلية، وفقدان الوعي للحظات. كنتُ متأكداً أنّ البغّال أنقذ حياتي لأني شعرتُ بذلك من الدّم الذي كان يتدفّق في قلبي. إنّه بغّال طيّب، وبينما كنت أفكّر بمكافأته، كان هو يضبط سرج الحمار بعناية فائقة وبمهارة وحماس كبيرين. وقررت منحه ثلاث عملات ذهبية من الخمسة التي كانت بحوزتي، لم أقدّم له هذه العملات كثمن لحياتي لأن حياتي لم تكن تقدّر بثمن لكنه كان مجرّد تعويض لتفانيه في إنقاذ حياتي، هدأ الجميع، وكنت سأعطيه الثلاث عملات.

« هل أصبحت جاهزاً؟ « قال لي، وسلّمني الرسن في قبضتي.

« ليس تماماً بعد»، جاوبته، وتابعت كلامي» دعني أنتظر لبرهة، لست بعد على ما يرام «

« اركب الآن يا سيدي»

« أليس صحيحاً أنّي كدتُ أقتل؟»

« لو أنّ الحمار ركض بسرعة، فربما كان الأمر كذلك، لكنك رأيت بأم عينيك يا سيدي أنه لم يحدث شيء بعون الله تعالى».

---

١ الركاب: موقع القدم في السرج.

اقتربت من خُرج الحمار وأخرجت صدرية قديمة كان في جيبها خمس عملات ذهبية، وفي هذه الأثناء، كنت أفكر أني أفرط في المكافأة، وأن عملتين ذهبيتين قد تكونان كافيتين، وربما تكفيه واحدة. في الواقع كانت عملة واحدة كافية لجعله يرقص من الفرح، تفحصت ملابسه، لقد كان شخصاً بائساً ومسكيناً، لم ير عملة ذهبية قط في حياته، ولا حتى عملة واحدة، لذلك، أخرجتها من جيبي، نظرت إلى بريقها في ضوء الشمس.

لم يتمكّن البغّال من مشاهدة العملات الذهبيّة لأني أعدتها بسرعة، لكنه ربما اشتبه بشيء ما، بدأ يتحدّث مع الحمار بطريقة معبّرة، كان يلقنُه النصائح وأن يكون حذراً، وأنّ « الرّجل الطيّب براس « قد يعاقبه. كانت مناجاة أبوية.

يا إلهي، لكن الأمر بلغ الحد الذي سمعت فيه صوت قبلة قوية، كان البغّال يُقبّل رأس الحمار.

هتفتُ مبتهجاً « أووووه»

« أطلب عفوك يا سيدي، لكن هذا المخلوق البائس كان ينظر إلينا بسحر لا يقاوم».

ضحكت وبتردد وضعت عملة كروزادو الفضيّة في يده، اعتليت الحمار وانصرفت في هرولة بطيئة، انتابني القلق بعض الشيء، عليّ القول، مع أني غير متأكد، أن سبب قلقي وشعوري بالضيق كان بسبب عملة كروزادو الفضّية. لكن بعد أن ابتعدتُ بضعة ياردات، نظرتُ إلى الخلف، كان البغّال ينحني بخشوع لي كعلامة واضحة على الرضا، هكذا فسّرت الأمر حسب اعتقادي، لقد دفعت له مبلغاً جيداً، وضعت أصابعي في جيب الصدريّة التي كنت أرتديها وشعرتُ بوجود بعض العملات النحاسية. لقد كانوا عملات الفينتز التي من المفروض أن أعطيها للبغّال بدلاً من عملة الكروزاد الفضيّة. لأنه في الأصل لم يتوّقع أية مكافأة أو تعويض، كان دافعه في مساعدتي فطرياً وانصياعاً لمزاجه وعاداته في العمل. علاوة على ذلك فإن وجوده في ذلك المكان بالتحديد عند وقوع الكارثة كان بمثابة رسالة إلهية، بطريقة ما أو بأخرى، لأن هذا العمل الجيد لم يكن شيئاً معتاداً في ذلك الوقت. أصابني اليأس من طريقة التفكير هذه، استدعيت شخصيتي المُبذّرة، وأضفت قطعة الكروزادو لماضيّ المبذّر وشعرتُ بتأنيب الضمير وأنا أفكّر (لماذا لم تخرج شخصيتي المُبذّرة مع البغّال؟).

***

العودة إلى ريو دي جانيرو

أيّها الحمار البغيض، لقد جعلتني أفقد خيوط تأملاتي. والآن لن أقول ما تعرضت له من هناك إلى لشبونة، أو ماذا فعلت في لشبونة، أو في شبه الجزيرة، أو في أي مكان آخر في أوروبا، أوروبا العجوز التي بدت وكأنها استعادت شبابها في ذلك الوقت، لم أكن أريد القول إني كنت أشهد فجر الرومانسية حيث انخرطت أيضاً في كتابة الشعر لما له من تأثير في قلب إيطاليا. لن أقول شيئاً ولن أكتب مذكرات كهذه، بل أرغب في كتابة يوميات رحلتي، وستكون خلاصة تجربتي في الحياة فقط. بعد بضع سنوات من التجوال، لفت انتباهي مناشدة والدي في إحدى رسائله: « عد إلى الوطن، إذا لم تأت بسرعة فستجد والدتك قد فارقت الحياة» كانت هذه الكلمات الأخيرة بمثابة صاعقة بالنسبة لي. لقد أحببت أمي كثيراً، وما أزال أذكر جيداً كلماتها الأخيرة التي ودّعتني بها على متن السفينة قبل رحيلي وكأنّها أمامي الآن: « ولدي الحبيب، لن أراك ثانية»، وبكت بحرقة كأم تعيسة وضمّتني بقوة إلى صدرها، وبقيت كلماتها ترن في أذني كنبوءة تتحقق الآن.

دعوني أخبركم أني كنت في مدينة البندقية وكنت ما أزال منتشياً بأبيات لورد بايرون الشّعريّة، مستغرقاً في الأحلام، أستحضر الماضي، معتقداً أني في الدولة الأكثر هدوء، إنها حقاً كذلك، لقد حدث لي ذات مرة أن سألت صاحب الحانة إذا كان الدوج [1] سيذهب للمشي ذلك اليوم. « أي دوج تقصد يا سيدي؟ «. عدت إلى رشدي لكني لم أخبر صاحب الحانة بأوهامي، أخبرته أن سؤالي كان نوعاً من مزاح سكان أمريكا الجنوبية، تصرّف الرجل وكأنه فهم عليّ وأضاف أنه أحبّ كثيراً مزاحي. لقد كان مجرد صاحب حانة. حسناً، لقد تركتُ كل شيء، صاحب الحانة والدوج وجسر التنهّدات [2] ، الجنادل [3] وشعر بايرون وسيدات جسر ريالتو، تركت كل ذلك وانطلقت باتجاه ريو دي جانيرو. وصلتُ، لكن لا، دعونا لا نطيل هذا الفصل في المذكرات، كنت أنسى نفسي أحياناً وأنا أكتب، وكان القلم يلتهم الورق حتى أنهك تماماً، وهذا طبعاً لأني كاتب. إن الفصول الطويلة مناسبة أكثر للقرّاء البليدين، إننا لا نكتب صحفاً بل اثني عشرة صفحة فقط ولا يعتبر نصاً حقيقياً حيث يوجد فيه الكثير من الهوامش، أسلوب أنيق وزخرفة ذهبية، تصاميم مزخرفة، تصاميم.....لا، دعونا لا نطيل هذا الفصل.

---

١ الدوج: هو القاضي الأول في البندقية وجنوا، ويقصد الكاتب أنه عاد بخياله إلى ذلك الزمن وهذا ما أثار استغراب صاحب الحانة.

٢ جسر التنهّدات: واحد من أكثر جسور مدينة البندقية شهرة، يقع على مسافة قريبة من ميدان بلازا دي سان ماركوس ويصل بين قصر البندقية وسجن سابق لمحاكم التفتيش.

٣ الجندول: هو قارب طويل لكن ليس عريضاً، يستخدم في القنوات المائية لمدينة البندقية بإيطاليا.

فصل حزن قصير

وصلت مدينتي. لا أنكر أنّه عندما لمحت مدينتي الأصلية انتابني شعور جديد، لكن هذا لم يكن لأني عدتُ إلى موطني، بل لأن هذا المكان هو مكان طفولتي، الشارع، البرج، نافورة الزاوية، المرأة ذو الشّال وعمّال النظافة السود، أشياء ومشاهد من طفولتي محفورة في الذاكرة. شعرتُ أنّي ولدتُ من جديد. الروح طائر لا يكترث لمضي السنين، يطير باتجاه الربيع الحقيقي، يعود ليرتوي من مياهه النقية والمنعشة، دون أن يأخذه تيار الحياة الجارفة.

لو انتبهت، ستشعر أنك في مكان تعرفه، مكان مألوف لكنه مختلف، حزين، كانت العائلة مذعورة. أربكني والدي بدموعه، قائلاً: « والدتك على وشك الموت». وبالفعل، لم يكن الروماتيزم هو ما يقتلها، بل كان سرطان المعدة. ما أحزنني هو تألمها بشكل قاسٍ لأن السرطان لا يكترث لفضائل الشخص. في ذلك الوقت كانت أختي سابينا متزوجة من كوتريم، وأغمي عليها في ذلك اليوم من شدّة الإعياء لأنها لم تنم سوى ساعتين أو ثلاثاً في الليل، يا لها من فتاة مسكينة. حتى عمي جواو كان مكتئباً وحزيناً. كانت الدونا أوسيبيا حاضرة مع بعض السيدات، بدا عليهن الحزن بعض الشيء.

« بنيّ « قالت أمي.

عاد الألم لبرهة يقبض بكماشته ثم أشرقت ابتسامة صغيرة على وجه المرأة المريضة التي كان الموت يحوم حولها بأجنحته الأبدية. لم يكن وجهاً بقدر ما كان جمجمة. ذوى جمالها المشرق، ذلك الجسد الذي لم يكن نحيلاً يوماً لم يبق منه سوى العظام وبصعوبة تعرّفت إليها. مضت ثماني أو تسع سنوات منذ رأينا بعضنا آخر مرة، ركعت عند أقدام السرير وأمسكت يديها، بقيتُ صامتاً وهادئاً، و لم أتجرأ على الكلام، لأن كل كلمة قد تكون نشيجاً خانقاً، وكنّا خائفين من قول الحقيقة لها، لكن خوفنا كان هراء لأنها كانت على يقين أنها اقتربت من الموت، لقد أخبرتني بذلك، واكتشفنا نحن الأمر في الصباح التالي.

عاشت صراعاً طويلاً مع الموت، طويلاً وقاسياً، موحشاً، بارداً، قسوته مستمرة وهذا ما ملأني بالألم والحيرة. كانت المرة الأولى التي أشهد فيها موت شخص ما، لم أكن على مقربة من الموت من قبل، كنت أسمع عنه فقط، و لم تكن معرفتي به تتجاوز رؤيته في وجوه الجثث التي رافقتها إلى المقبرة أو في الفكرة المجازية التي عبّر عنها الأساتذة في مواضيعهم القديمة مثل موت القيصر

الغادر، وموت سقراط القاسي، وموت كاتو المشرّف[1]. لكن الصراع الحقيقي للموت هو أن تكون أو لا تكون، إن الموت الحقيقي مؤلم، خانق ومزلزل بدون أي اعتبارات سياسية أو فلسفية. لقد كانت المرة الأولى التي أواجه فيها موت شخص أحبّه. لم أبكِ، أتذكر أني لم أبكِ أبداً طوال مراسم الوفاة، تبلّدت عيناي، اختنقت وتشتت إدراكي. لماذا؟

لقد كانت إنسانة ليّنة جداً، حنونة جداً، تقية جداً و لم تجعل أحداً يذرف دمعة حزن بسببها، والدة رائعة وزوجة طاهرة، لماذا كان يجب أن تموت بهذه الطريقة؟ وأن تتعرّض لنهش هذا المرض الذي لا يرحم؟ يجب أن أعترف أن كل ذلك كان غامضاً ومتناقضاً وغير منطقي بالنسبة لي.

إنه فصل حزين، دعونا ننتقل إلى فصل أكثر سعادة...

****

فصل قصير وسعيد

كنت عبارة عن كتلة من التفاهة والوقاحة حينذاك، ومع ذلك كنت مكسوراً، لم تشغل عقلي أبداً فكرة الحياة والموت في ذلك الحين، حتى ذلك اليوم الذي أمعنت النظر في جحيم المجهول، فقدت شيئاً جوهرياً وقد كان حافزاً ودافعاً مفاجئاً لي...

ولقول الحقيقة سأعكس لكم آراء حلّاق كنت قد التقيته في مودينا وقد عُرف عن هذا الحلّاق عدم إبداء آرائه أبداً. كان أفضل الحلّاقين على الإطلاق، ومهما تطلبت عملية الحلاقة من وقت فإنه لا يغضب أبداً، كان يقوم بالتسريحات مع كثير من الحِكم والنكات الساخرة التي تضمر معانيَ ماكرة ولذيذة، لم يكن لدينا لا أنا ولا هو فلسفة أخرى، وهذا لا يعني أن الجامعة لم تعلمني بعض الحقائق الفلسفية، لكني حفظتُ فقط الصيغ العامة من مصطلحات ومخططات، تعاملت معهم كما تعاملت مع اللغة اللاتينية حيث وضعت سطرين من شعر فرجيل في جيبي، وسطرين من شعر هوراس، ودزينة من العبارات السياسية والأخلاقية لتلبية احتياجات المحادثة، ثم تعاملت معهم بنفس الطريقة التي تعاملت بها مع التاريخ والقوانين التشريعية. انتقيت العبارات اللفظية المميزة والقشور والزخارف لكل صنف...

---

١ كاتو الأصغر: كان رجل دولة في الجمهورية الرومانية القديمة، وأحد أتباع الفلسفة الرواقية، كان خطيباً مثابراً، نزيهاً، خلوقاً، عنيداً وخاض نزاعاً مع يوليوس قيصر.

ربما أفاجئ القارئ بهذه الصراحة التي أقدّمها وتؤكد اعتدالي. لكن كن حذراً أنَّ الصراحة هي خصلة مهمة لرجل على وشك الموت. ففي الحياة، إن إبداء الرأي في الشأن العام، تباين المصالح وصراع الجشع؛ كل ذلك يرغم البشر على إخفاء ملابسهم القذرة، لتمويه الثقوب والرّتق ولا يفشون للغير ما يعترفون به لأنفسهم. والجزء الأقوى في هذه العملية أن الإنسان المُرغم على خداع الآخرين إنما هو يخدع نفسه، وفي هذه الحالة يكبتُ غيظه وهذا شعور مؤلم، ويكون منافقاً وهذا النفاق صفة خسيسة. ولكن الموت يمنحنا أيّما اختلاف، أيّما راحة، وأيّما تحرر! أووه.. كيف يستطيع الناس تبديل جلودهم، رمي محاسنهم في الحضيض، كشف أنفسهم على العلن، فضح الخفايا، إظهار العيوب، الاعتراف بصراحة كيف كانوا من قبل وكيف أصبحوا؛ كل هذا لأنه باختصار لم يعد هناك أي أصدقاء أو جيران أو أعداء أو معارف أو غرباء. لم يعد هناك أي جمهور. إن نظرتنا للشأن العام والتي هي نظرة حادّة وسريعة الحكم تفقد استقامتها لحظة اقترابنا من منطقة الموت. أنا لا أقول إنها لا تصل إلينا وتختبرنا وتحكم علينا، ولكننا لا نكترث لهذا الحكم أو لهذا الاختبار. سيداتي وسادتي الأعزاء الأحياء، لا يوجد شيء في هذه الحياة يُقارن بازدراء الموتى للحياة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

****

في تيجوكا

يا إلهي! لقد سقط قلمي مني وانزلق بشكل ملفت للنظر. لنكن بسيطين كبساطة الحياة التي عشتها في تيجوكا خلال الأسابيع الأولى بعد وفاة أمي. ففي اليوم السابع، عندما انتهت مراسم الدفن والعزاء، جمعت أشيائي من كتب وبعض الخردق وبعض الملابس والسيجار بالإضافة للخادم برودينسيو، الذي ذكرته سابقاً، وذهبت لأبدأ حياتي من جديد في منزل قديم كنا نملكه. حاول والدي جاهداً أن يغيّر رأيي لكني لم أستطع الانصياع له و لم أرغب بذلك، لقد أرادت أختي سابينا أن أذهب وأعيش معها لمدة قصيرة لا تتجاوز الأسبوعين على الأقل، وكان صهري – زوج سابينا– بصدد أن يصحبني للعيش معهم رغماً عني، كان كوتريم شاباً طيّباً، لم يعد مسرفاً كما كان من قبل وأصبح أكثر حرصاً، ويعمل الآن في تجارة الأغذية، يكدح في عمله من الصباح حتى المساء بشكل دؤوب. يجلس في المساء قرب النافذة ويرّم شاربيه، كان هذا كل ما يشغل باله، لقد أحبّ زوجته وطفلته التي أنجبوها في ذلك الوقت والتي توفيت بعد عدّة سنوات، أمّا الناس فكانوا يقولون إنه شخص بخيل.

تخليّت عن كل شيء، كنت في حالة صدمة، وأعتقد أنه منذ ذلك الوقت بدأ وسواس المرض يكبر في داخلي، تلك الزهرة الصفراء، الكئيبة، ذات الرائحة المُسكرة، والناعمة. « من الجيّد أن تكون حزيناً ولا تشتكي»، يجب أن أعترف أنه عندما لفتت انتباهي كلمات شكسبير هذه شعرت بصدىً في داخلي، صدى مُبهج. أتذكر جيّداً كيف شعرت بذلك الصدى المُبهج في داخلي. أتذكر أني كنت جالساً تحت شجرة تمر هندي وكتاب شكسبير بين يديّ، وكانت روحي أكثر حزناً وكآبة من الشخصيات التي أقرأ عنها، مثل حزن العاهرات. لملمت أحزاني في صدري وجمعتها في إحساس واحد هو إحساس الضجر.

إحساس الضجر: احفظ هذا التعبير جيداً عزيزي القارئ، تمعّن به، حافظ عليه، اختبره وإن لم تتمكن من فهمه، فأنت جاهل بأحد أكثر الأحاسيس رقّة في العالم في ذلك الزمن.

كنت أحياناً أذهب للصيد وأحياناً أخرى أنام، أحياناً كنت أقرأ- قرأت كثيراً- وفي أحيان أخرى لم أكن أفعل شيئاً. أطلقت العنان لنفسي بالتنقل بين فكرة وأخرى، وبين مخيّلة وأخرى، كمتشرّد أو كفراشة جائعة. انقضت الساعات واحدة تلو الأخرى، غرَبتْ الشمس، وأسدل الليل ظلاله على الجبل والمدينة. لم يأت أحد لزيارتي. لقد طلبت بصريح العبارة أن أبقى وحدي. يوم، يومان، ثلاثة أيام ومضى الأسبوع كلّه دون أن أنبس ببنت شفة وبدا هذا كافياً لأترك تيجوكا وأعود إلى الحياة الصاخبة. وبالفعل، مع نهاية الأسبوع، كنت قد تجرّعت من الوحدة أكثر من حاجتي، وانحسر حزني، ولم تعد معنوياتي مكتفية فقط بالكتب والخردق أو بإطلالة على الغابات والسماء. كان الشباب في داخلي يعود، وكان من الضروري أن أستجيب له. وضَّبتُ حقيبتي، واضعاً فيها مشكلة الحياة والموت، وساوس شكسبير، القمصان، التأملات وربطات العنق وكنت على وشك إغلاقها عندما أخبرني الخادم الزنجي « برودينسيو» أن أحد معارفي انتقل البارحة إلى منزل قرميدي يبعد عنا مئتي خطوة.

– من تقصد يا برودينسيو؟ قلت له.

– هل يذكر السيّد الصغير الدونا أوسيبيا؟

– أذكر... هل تقصد أنّها هي؟

– نعم، هي وابنتها قدمتا البارحة صباحاً؟

تذكّرت حالاً واقعة ١٨١٤ وماذا حدث حينها، شعرت بالانزعاج. لكن ما أثار انتباهي هو حقيقة أن مجريات الأمور أثبتت أني كنت محقاً في ذلك اليوم. في الحقيقة كان من المستحيل منع قيام

علاقة حميمية بين فيلاسا وبين الدونا أوسيبيا، حتى قبل أن أتوجّه إلى كويمبرا كان يوجد مسبقاً غمز ولمز وثرثرة غامضة حول ولادة طفلة. وقد كتب لي عمي جواو رسالة أخبرني فيها أن فيلاسا ترك بعد وفاته ميراثاً كبيرة للدونا أوسيبيا مما سبب كثرة كلام وإشاعات في الجوار. وبالمناسبة، كان عمي جواو نفسه شديد التوق للفضائح حيث لم يتحدّث عن شيء آخر سوى عن علاقة فيلاسا والدونا أوسيبيا في رسالته الطويلة تلك التي أرسلها لي والتي كانت عبارة عن عدّة صفحات. لقد أثبتت الأحداث أني محق. على الرغم من مضيّ وقت طويل على تلك الحادثة وعلى فعلة فيلاسا والقبلة في الحديقة. وفي آخر المطاف، لم تجمعني علاقة وديّة بالدونا أوسيبيا، واسيت نفسي بهذه الطريقة وأحكمت إغلاق الحقيبة. « هل سيذهب السيد الصغير لزيارة الدونا أوسيبيا؟» سألني برودينسيو، وأردف قائلاً: » لقد كفّنت الدونا أوسيبيا ربّة المنزل الراحلة، والدتك».

تذكّرتُ أني رأيتها مع سيدات أخريات في مراسم الجنازة والعزاء. و لم أكن أعرف أنها قد أسدت ذلك المعروف الأخير لأمي. كان تفكير الخادم منطقياً، أدين لها بزيارة. وقررت أن أزورها مرة واحدة قبل أن أرحل.

***

حيرة الكاتب

فجأة، سمعت صوتاً، لقد كان والدي قادماً وفي جعبته اقتراحين، قائلاً: » مرحباً بنيّ، هذه الحياة لا تليق بك». جلستُ على الحقيبة ورحّبت به دون أي اعتراض. وقفَ محدّقاً بي لبضع دقائق ثم لفّني بذراعيه بحركة وديّة، وقال لي: «بنيّ، امتثل لمشيئة الله».

أجبته مقبّلاً يده: » إني ممتثل يا أبي».

لم يكن قد تناول غداءه بعد لذلك تناولنا الغداء سوية، لم يذكر أحد منا السبب الحزين لمجيئي إلى هنا، تكلمنا عن ذلك مرة واحدة فقط بشكل سريع عندما فتح والدي الحديث حول مجلس الوصايا على العرش. ثم ذكر والدي رسالة التعزية التي أرسلها له أحد الأوصياء. كانت الرسالة معه وكانت مجعّدة من كثرة ما قرأها والدي أمام الناس، أعتقد أنه قال إنّ الرسالة من أحد الأوصياء. وقرأها لي مرتين.

– لقد ذهبتُ وشكرته على هذه اللفتة الكريمة، وأعتقد أنه يجب أن تذهب أيضاً وتشكره بدورك...

– أنا!!

– نعم، أنت. إنه رجل مهم، يشغل منصباً بأهمية الإمبراطور هذه الأيام. علاوة على ذلك، أفكّر في أمر ما. خطة.. سوف أخبرك بكي شيء. لديّ خطّتان: منصب نائب وزواج. قال ذلك على مهل مع بعض الفواصل خلال الحديث وليس بنفس الوتيرة إنّما بنبرة صوت مختلفة كي تضفي الكلمات وقعاً مؤثراً عليّ وتحفر عميقاً في داخلي. لكن الاقتراحات تناقضت كثيراً مع مشاعري الأخيرة التي لم أتمكن من فهمها حقاً. لم يستسلم والدي وتابع إصراره مؤكداً على أهمية المنصب والزوجة.

– هل أنت موافق؟

جاوبته بعد برهة:» أنا لا أفهم في السياسة وكذلك الأمر بالنسبة للزواج، دعني أعيش كما أنا الآن، مثل الدّب».

أجاب والدي:» ولكن حتى الدببة تتزوّج».

– حسناً، أحضر لي فتاة كالدبّة، ماذا عن مجموعة الدب الأكبر [1]»

ضحك والدي ثم عاد للحديث بجديّة بعد الضحك، موضحاً لي أن المنصب السياسي مهم لعشرين سبباً أو أكثر، حيث عدّدهم لي بكل طلاقة وتفصيل شارحاً ذلك مع أمثلة عن أشخاص نعرفهم في حياتنا. وبالنسبة للعروس، كل ما كان عليّ هو رؤيتها فقط، وعندما أراها فسأطلب يدها للزواج فوراً من والدها، دون أن أنتظر يوماً واحداً. حاول أبي بداية بعدّة طرق إثارة فضولي وإذهالي ثم إقناعي بالتودد. كنت أعبثُ برأس عود أسنان تارة، وتارة أبرّم فتات الخبز بين أصابعي، أبتسم حيناً وأكون جدياً حيناً آخر. ولأكون صريحاً لم أوافق تماماً و لم أعترض تماماً على المقترحات، لأن جزءاً مني كان مقتنعاً أن الزوجة الجميلة والمنصب السياسي أشياء تستحق التقدير. ونصفي الآخر كان يقول لا، حيث بدا لي موت أمي خير مثال على هشاشة الأمور، والعواطف والعائلة و.. و..

« لن أغادر قبل أن تعطيني جواباً نهائياً» قال والدي، وردد عبارة « جواب نهائي» وهو ينقر بإصبعه مؤكداً إصراره. تجرّع الرشفة الأخيرة من قهوته، مسترخياً وبدأ الحديث عن كل شيء؛ مجلس الشيوخ، الهيئة التشريعية والقضائية، مجلس الوصايا، إعادة الحكم الملكي، وإيفارستو الذي

---

١ كوكبة الدب الأكبر: أو بنات نعش، من أكثر الكواكب النجمية شهرة وذكرها براس هنا ليحيد الموضوع عن مساره في حديثه مع والده.

كان يريد شراء منزلنا في ماتاكافالوس. بقيت قابعاً عند طرف الطاولة أكتب بطريقة جنونية على قطعة ورق بعقب قلم الرصاص. أخطّ بالقلم كلمة، عبارة، بيت شعر، أنف، مثلّث، وكررت ذلك بشكل عشوائي:

Arma virumque cano
arma virumque cano
arma virumque
arma virumque cano
virumque[1]

كل هذه الخربشات كانت عشوائية ومع ذلك لم تخلُ من بعض المنطق والدلالة. فعلى سبيل المثال، كلمة

virumque

هي ما أوصلتني لاسم الشاعر نفسه " فرجيل" بسبب المقطع الأول. كنت على وشك كتابة هذه الكلمة

virumque

وكتبت اسم فيرجيل:

Virgil Virgil
Virgil

تجاهل والدي لامبالاتي، وقف واقترب مني مُمرّراً عينيه فوق الورقة:

" فيرجيل" صاح والدي، " هذه هي يا بني، يا لها من صدفة، اسم عروسك فيرجيليا".

***

١ من ملحمة الإنيادة التي كتبها فيرجيل.

فيرجيليا

فيرجيليا! لكن هل هي السيدة ذاتها التي ستكون بعد سنوات قليلة.....؟

إنّها هي، تماماً، السيدة ذاتها التي ستكون حاضرة في أيامي الأخيرة عام ١٨٦٩، وقبل هذا التاريخ، قبله بكثير، احتلّت الجزء الأكبر من مشاعري العاطفية. كان عمرها حينها خمسة عشر أو ستة عشر عاماً، ربما كانت من أكثر المخلوقات جرأة في عالمنا البشريّ، وبالتأكيد أكثرهم عناداً. يجب ألّا أقول إنها كانت الأكثر جمالاً بين فتيات تلك الفترة الزمنية، لأن هذه ليست رواية حيث يقوم الكاتب بتمويه الحقيقة ويغمض عينيه عن النمش والبثور. فأنا أيضاً لن أذكر أياً من النمش والبثور التي شوّهت وجهها، لا لن أقول ذلك. لقد كانت جميلة، مليئة بالحيوية وذات طبيعة ساحرة، كانت تمتلك جمالاً غامضا وسرمدياً كفيلا بأن تتوارثه الأجيال حتى نهاية سر الخليقة. هكذا كانت فيرجيليا، كانت جميلة، جميلة جداً، فتاة مغناج، لا مبالية، طفولية، ذات تصرفات غامضة، كسولة جداً، مؤمنة قليلةِ مؤمنة أو ربما تخاف من الله، أعتقد أن الخوف هو سبب ورعها.

بهذه السطور القليلة أصبح لدى القارئ فكرة واضحة عن الصفات الجسدية والأخلاقية للشخصية الذي سيكون لها تأثير كبير على حياتي لاحقاً. كل ما ذكرته هو صفات لفتاة في عمر السادسة عشر فقط. وأنت أيّها القارئ، إن كنت ما تزال على قيد الحياة عندما تخرج هذه السطور إلى العلن. وأنتِ التي تقرأين – حبيبتي فيرجيليا– هل لاحظتي الفرق في لغة اليوم واللغة التي استخدمتها عندما رأيتك أوّل مرّة؟ صدقيني، كانت لغتي صادقة كما هي الآن، إن الموت لم يجعلني فظاً أو ظالماً.

وقد تقولين:» كيف أمكنكَ أن تظهر لي الحقيقة الآن وتعبر عنها بهذه الطريقة بعد مضي كل هذه السنوات؟«.

إنّه تصرف أحمق! تصرف غير واعٍ! لكن هذا بالتحديد ما جعلنا أسياد الأرض؛ إنها قوّة استعادة الماضي تلك التي من شأنها أنّ تقبض على انفعالاتنا المتقلّبة وعواطفنا المغرورة. دع باسكال [١] يتحدّث كما يشاء ويقول إن الإنسان عبارة عن قصبة مفكّرة، لكنّه مخطئ، إنّ الإنسان مجرّد خطأ مطبعي يفكّر، هذا هو حاله، وكل فصل في الحياة هو عبارة عن إصدار جديد يصحح

---

١ باسكال: فيزيائي ورياضي وفيلسوف فرنسي.

الطبعة السابقة، وستكون هذه الطبعة هي نفسها عرضة للتصحيح حتى نحصل على الطبعة النهائية ليقدّمها الناشر مجاناً للديدان.

مضيفاً أن...

« فيرجيليا؟» قاطعت والدي.

« نعم، إنه اسم العروس، إنها ملاك أيها المغفّل. ملاك دون أجنحة، تخيّل فتاة بهذه الصورة، بهذا الطول، مفعمة بالحياة، وعيناها... إنها ابنة دوترا..» قال والدي.

« من يكون دوترا؟»

« إنه المستشار دوترا، يتمتع بنفوذ سياسي كبير، على كل حال، هل أنت موافق؟»

لم أجب مباشرة، حدّقت في مقدمة حذائي لثوان قليلة، وقلت لوالدي: » ظننت أنّك غضضت النظر عن العرضين، الترشح للمجلس والزواج، بالإضافة إلى أن...»

« بالإضافة إلى ماذا؟» ردّ والدي.

« بالإضافة إلى أني لست مجبراً على قبول الأمرين معاً، وأعتقد أنه يمكنني أن أكون رجلاً متزوجاً بعيداً عن مستقبلي السياسي....»

« كل الشخصيات العامة عليها أن تتزوج» قاطعني والدي بهذه الجملة المختصرة، « لكن افعل ما تشاء، أنا موافق على قرارك أياً كان. لكني متأكد أنك لن تقتنع حتى تراها، إضافة إلى أن العروس والبرلمان هما الشيء ذاته حيث... لا، لن أكمل كلامي، ستكتشف ذلك لاحقاً، أنا موافق على إعطائك مهلة لتأجيل الأمر إضافة إلى أنه...»

« إضافة إلى ماذا..؟» قاطعت والدي، مقلّداً طريقته في الكلام.

« أووه، أيّها الأحمق، إضافة إلى أنّه يجب ألّا تكون هكذا دون نفع، مهمّش وحزين. كما أنني صرفت كل هذه الأموال وكل هذا الاهتمام من أجل أن أراك لامعاً كما يجب أن تكون وكما يناسبك ويناسب الجميع، يجب أن يبقى اسم العائلة مشرقاً، ويجب أن يزداد هذا الاشراق وأن تعمل أنت على ذلك. انظر يا بني، أنا في الستين من عمري ومع ذلك، لو اقتضت الضرورة أن أبدأ حياتي من جديد فلن أتردد في ذلك دقيقة واحدة. لا تعش في الظل يا براس، ولا تكن هامشياً. يصنع الرجال مكانتهم بطرق مختلفة، ولكن من المؤكد أن أكثرهم أهمية هو من يعترف

الرجال الآخرون بجدارته. لا تضيّع هذه الفرصة واستفد من إمكانياتك كي لا تذهب سدى...»

استمر الساحر في شعوذته المجلجلة أمامي تماماً مثلما كانوا يفعلون عندما كنت صغيراً لجعلي أمشي بسرعة أكثر. لقد عادت زهرة مرض الوهم [1] تتبرعم مخلّفة وراءها زهرة أخرى أقل صفراوية وسقماً على الإطلاق، إنه حب الشهرة، ضماد براس كيوباس.

***

الزيارة

استطاع والدي إقناعي وكنت جاهزاً لقبول الامتياز والزواج، فيرجيليا ومجلس النوّاب. قال لي بنبرة سياسية: «فيرجيليا تعني كلا الأمرين»، الزواج والمنصب» وأنا وافقت عليهما. عانقني بقوّة، وأدرك أخيراً أن دمه يسري في عروقي.

« هل ستأتي معي؟» قال والدي.

« سوف أعود غداً، عليّ أولاً أن أزور الدونا أوسيبيا »

حرّك أنفه ولكنه لم يقل شيئاً، فقط « مع السلامة « وعاد أدراجه...

في ظهيرة ذلك اليوم ذهبت لزيارة الدونا أوسيبيا، كانت توبّخ البستانية الزنجية لحظة وصولي، لكنها تركت كل شيء حالما رأتني وأتت لتتحدّث معي برحابة صدر وسعادة صادقة ممّا جعلني أتخلص من خجلي، أعتقد أنها طوّقتني بكلتا يديها القويتين، أجلستني بجانبها على الشرفة وسط دهشتي من حفاوتها.

« انظر إلى نفسك يا براسينهو! لقد أصبحت رجلاً، مَن كان يتوقع منذ عدّة سنوات أنك ستصبح رجلاً عظيماً، ووسيماً، إنّك لا تتذكرني جيداً، أليس كذلك؟»

قلت لها: « أنا أذكرك، فمن المستحيل أن أنسى صديقة مقرّبة من العائلة مثلك. ثم بدأت الدونا بالحديث عن أمي بأسى كبير، خدشني شعورها على الفور وبدوتُ حزيناً، لاحظت الدونا ذلك في عينيّ وغيّرت الحديث. طلبت مني أن أخبرها عن رحلاتي، دراستي وعلاقاتي العاطفية، نعم! علاقاتي العاطفية. اعترفت لي أنها كانت امرأة ماجنة. وفي هذه اللحظة تذكرتْ ما حصل في ذلك العام (١٨١٤)، هي، فيلاسا، الحديقة، القبلة وصراخي. كنتُ أتذكّر ذلك عندما سمعتُ صرير الباب، حفيف تنورة وصوت يقول: ماما.. ماما.

---

١ مرض الوهم الذي يتحدّث عنه الكاتب في الفصل الأول من الكتاب.

زهرة الشُّجيرات

كانت صاحبة الصوت والتنورة فتاة سمراء، وقفتْ عند مدخل الباب لبضع ثوان لترى من هذا الغريب، تلاه صمت مصطنع ثم كسرت الدونا هذا الصمت قائلة:

« تعالي يا يوجينيا، ألقي السلام على الدكتور براس كيوباس، ابن السيد كيوباس، لقد عاد من أوروبا »

والتفتت إليّ وقالت:» إنها ابنتي يوجينيا».

كانت يوجينيا زهرة مقطوفة من شجيرة، بالكاد استجابت لانحناءة الترحيب اللطيفة التي بادرتُ بها. نظرتْ إليّ وهي متفاجئة وخجولة واقتربت ببطء من كرسي أمها. قامت الدونا بإكمال ضفر جديلتها.

قالت الدونا:» أووه أيتها الشقيّة، لا يمكن أن تتخيّل يا دكتور ماذا يعني....؟» ثم قبّلت ابنتها بحنان كبير لامسني قليلاً، لقد ذكّرتني بأمي – وسأقولها حالاً – تولدت لديّ لهفة بأن أصبح أباً.

قلتُ مستغرباً: « شقيّة، أليست كبيرة على هذه التسمية؟ تبدو كذلك».

« كم تحسب عمرها؟»

« سبعة عشر»

لا، إنها أصغر بسنة.

السادسة عشرة، حسناً، إنها شابة.

لم تستطع يوجينيا إخفاء الرضا الذي شعرتْ به عند سماع كلماتي، لكنها كبحت نفسها فوراً وعادت كما كانت من قبل صلبة، باردة وصامتة. في الحقيقة بدتْ أكثر أنوثة مما كانت عليه. كان من الممكن أن تكون طفلة صغيرة تلعب، أكثر من كونها فتاة شابة، ولكنها كانت هادئة، جامدة المشاعر وقد أظهرت رباطة جأش كامرأة متزوجة وقد يكون هذا ما قلّل من جمالها العذري، تآلفنا على الفور ثم غنّتْ لها أمّها ترنيمات واستمعتُ إليهم بتحبّب. كانت تبتسم وعيناها تلمعان وكأن في دماغها فراشة صغيرة تطير بأجنحة ذهبيّة وعيون ألماسية.

تعمّدتُ أن أقول في داخلها لأن ما كان يرفرف خارجاً هو الفراشة السوداء التي أتت إلى الشرفة بمحض الصدفة وبدأتْ ترفّ بأجنحتها حول الدونا أوسيبيا.

صرخت الدونا أوسيبيا ثم وقفت وأقسمت ببضع كلمات غير مترابطة: » ابتعدي عني، ابتعدي عني أيتها الحشرة الشيطانية... أنقذيني يا مريم العذراء».

قلت لها: » لا تخافي» أخذتُ منديلي وأخفتُ الفراشة به، جلست الدونا مجدداً، لاهثة ومرتبكة قليلاً. كانت ابنتها شاحبة وخائفة، ربما كانت تخفي ذلك الانطباع بإرادة قوية، صافحتها مودعاً وغادرت وأنا أضحك على خرافات المرأتين، بضحكة هادئة، فاترة ومتعالية.

بعد الظهر رأيت الفتاة على ظهر حصان، يتبعها خادم المنزل، لوّحت لي بالسوط، ويجب أن أعترف بأني أوهمت نفسي بفكرة أنني لو تقدمت بضع خطوات باتجاهها ستلتفت إليّ ولكنها لم تفعل، لم تلتفت إلى الخلف.

****

الفراشة السوداء

في اليوم التالي، بينما كنت أجهز نفسي للرحيل، دخلت غرفتي فراشة سوداء تشبه تلك الفراشة لكنها أكبر منها. تذكّرتُ الحديث الذي دار بالأمس وضحكت.

بدأت حالا أفكّر بابنة الدونا أوسيبيا، بالخوف الذي سيطر عليها وبالوقار الذي أظهرته وتمكنت من الحفاظ عليه رغم الفزع. بعد أن رفرفتْ الفراشة حولي، حطّت على رأسي وقمتُ بإبعادها. ذهبت وحطّت على اللحاف، طاردتها، فحطّت على بورتريه قديم لوالدي. كانت سوداء كظلام الليل. جعلتني حركتها الناعمة التي بدأت تحرك بها أجنحتها بطريقة ساخرة، أقلق حول قضية هامة. استدرتُ وغادرت الغرفة ولكني شعرت بصدمة عصبية عندما عدت بعد عدّة دقائق ووجدتها ما تزال في نفس البقعة، مددت يديّ إلى المنشفة، ضربت الفراشة بها ثم سقطتْ ولكنها لم تسقط ميتة، كانت ما تزال تلوي جسدها وتحرّك قرون الاستشعار، لقد أسفتُ على ما فعلتُ وأخذت الفراشة في راحة يدي وذهبت لأضعها على إفريز النافذة ولكنني كنت قد تأخرت كثيراً. كانت الفراشة تلفظ أنفاسها الأخيرة بعد ثواني، مما أزعجني وأصابني بالإحباط.

« لماذا لم يكن لون الشّر أزرق؟» قلت لنفسي.

كانت تلك الفكرة من أعمق الأفكار التي تشكلت مذ خُلقت الفراشات، بمثابة عزاء لي بعد الفعل الشنيع الذي قمت به، وجعلتني متصالحاً مع نفسي. سمحت لنفسي بتأمل الجثة بشفقة. عليّ أن أعترف أني تخيّلتها قادمة من بين الخشب، تتناول الفطور، وأنها كانت سعيدة وكان صباحاً جميلاً. أتت من هناك، بخجلها وسوادها، تستمتع بوقتها كفراشة في المدى الفسيح للسماء الزرقاء، هذه السماء هي زرقاء دائماً لجميع الأجنحة التي تحلّق. دخلت من نافذتي ووجدتني. أعتقد أنها لم تر أبداً رَجلاً من قبل. ولذلك فهي لا تعلم كيف يكون الرجل. دارتْ حول جسدي مدة طويلة ورأت أني أتحرّك، لاحظت أن لديّ عينين، ذراعين، وأرجل، مظهراً لاهوتياً وتركيبة جبارة، ثم قالت لنفسها: « من المحتمل أن هذا هو مخترع الفراشات». لقد تملكتها الفكرة وأخافتها وأوحى لها هذا الخوف الفاضح أن الطريقة الأفضل لتُسعد خالقها هي أن تقبّله على جبينه، وقبّلتني على جبيني. عندما أبعدتها عني ذهبت لتحط على اللحاف حيث شاهدت صورة والدي ومن المعقول جداً أن تكون اكتشفت نصف الحقيقة هناك وأدركت بأن هذا هو والد خالق الفراشات وطافت لتطلب رحمته، ثم وضعتْ لطمة المنشفة نهاية لهذه المغامرة. لم تعنِ لها شيئاً هذه السماء الفسيحة، ولا جمال الأزهار أو لمعان الأوراق الخضراء

مقارنة بمنشفة الوجه، وحذاء الحمام القماشيّ. انظر كيف أنه من الجيد أن تكون أفضل من فراشة، لأنه حتى لو كان لونها أزرق أو برتقالياً فإن حياتها لن تكون آمناً أبداً. كان من الممكن أن أتفنن بقتلها من أجل أن أمتّع ناظري، لكني لم أفعل، وهنا يكمن عزائي. لامست إصبعي الأوسط بإبهامي مصدراً صوت نقرة، وسقطت جثّة الفراشة في الحديقة بلمح البصر. كان قد حان وقتها وكانت النملات الحكيمات قد وصلن. كلا؟؟ سأعود إلى الفكرة الأولى والتي تقول إنه كان من الأفضل لو أنّها ولدت زرقاء...

****

عرجاء منذ الولادة

غادرتُ المكان لأنهي تحضيراتي من أجل رحلة العودة. لن أقوم بتأجيلها مرة أخرى. سوف أعود مباشرة. سأعود حتى لو استوقفني أحد القرّاء اليقظين ليسألني هل سيكون الفصل الأخير حدثاً مزعجاً أو أني استخفّيت بهم!

وا أسفاه، لم يكن قدوم الدونا أوسيبيا في الحسبان. لقد كنت متهيئاً للرحيل عندما أتت إلى المنزل لتدعوني بأن أؤجل عودتي وأتناول العشاء معها في ذلك اليوم. عملتُ جاهداً كي أتهرّب من فكرة العشاء لكنها أصرّت ، أصرّت أكثر مما ينبغي، بطريقة لم أستطع رفضها أبداً.. إلى جانب ذلك، كنت أريد ردّ الجميل لها، فذهبتُ معها. لم تتزيّن يوجينيا في ذلك اليوم، واعتقدتُ أن الزينة التي كانت تضعها من قبل كانت من أجلي، أو أنها معتادة على وضعها بشكل دائم. حتى الأقراط الذهبية التي كانت ترتديها البارحة لم تكن تتدلى من أذنيها، أذنان شهيّتان لرأس حورية. كانت ترتدي فستاناً ناعماً من الموسلين، أبيض اللون وبسيطاً جداً دون أية تصاميم، فقط زر من اللؤلؤ على الياقة بدلاً من البروش، وأزرار أخرى على المعصمين مغلقة الأكمام ودون أساور في يديها. هكذا كانت تبدو في مظهرها الجسدي قبل أن أتوّغل في روحها. أفكار واضحة، تصرّفات بسيطة، عاطفة طبيعية محددة، ومظهر سيدة ولا أعلم ربما شيء ما آخر، نعم! كان فمها يشبه فم أمّها بالضبط، مما جعلني أتذكّر الحادثة التي حصلت عام ١٨١٤، وشعرت بضرورة أن أشرح أبيات الشعر ذاتها للفتاة.

قالت لي الأم عندما انتهينا من آخر رشفة قهوة: دعني أريك أملاكنا « ذهبنا خارجاً إلى الشرفة، ثم من هناك إلى الأراضي حيث لاحظت أمراً ما. كانت يوجينيا تعرج بشكل ضئيل

جداً، ضئيل مما جعلني أسألها إذا كانت قد جرحت قدمها، لم تنبس الدونا ببنت شفة، أجابت الابنة دون تردد: » كلا يا سيدي، أنا أعرج منذ الولادة».

لعنت نفسي في تلك اللحظة. كنت أحمقَ وفظّاً. حقاً، كان من الواضح أنها عرجاء و لم يكن ثمة داع للسؤال عن أي شيء. تذكّرت أوّل مرّة كنت قد رأيتها الليلة الماضية حيث إن الفتاة وصلتً إلى كرسي أمها ببطء وبنفس ذلك اليوم وجدتها قد سبقتنا إلى طاولة العشاء. ربما فعلت ذلك لتخفي عيبها. ولكن ما السبب الذي جعلها تظهره الآن؟ نظرت إليها ووجدتها حزينة، حاولتُ أن أتخلّص من خطئي الفادح، لم يكن الأمر صعباً لأن أمها الماجنة - بحسب اعترافها لي- تداركت الأمر وبدأت بسرعة حديثاً معي. نظرنا حول كل المكان بما فيه من أشجار وزهور وبركة البط وحوض الغسيل. العديد من الأشياء التي مررنا بها وكانت تعلّق على بعضهم بين الحين والآخر. وخلسة، تفحّصتُ يوجينيا بعينيّ.

أنا متأكد أنّ يوجينيا لم تكن فتاة ضعيفة، بل فتاة سويّة وبصحة قوية. شعرت ذلك من خلال عينيها المطمئنتين والسوداوين، أعتقد أنها أخفضت نظرها مرتين أو ثلاث مرّات، فقط لمرتين أو ثلاث مرّات كانت عيناها ضبابيّتين. لكن عموماً كانت تنظر إليّ بكل جرأة ووضوح دون خجل أو مواربة.

****

المحظوظون لا يغادرون

أسوأ ما في الأمر أنها كانت عرجاء، فتاة بمثل هذه العيون الصافية وهذا الفم النضر، وهذا الاتّزان كسيدة ناضجة، وتكون عرجاء! هذا التناقض من شأنه أن يدفع الإنسان ليؤمن بأن الطبيعة أحياناً هي الساخر الأكبر منه. بدأت أتساءل في نفسي؛ كيف تكون جميلة وهي عرجاء؟! ولماذا هي عرجاء إذا كانت جميلة، كان هذا هو السؤال الذي راودني كثيراً وأنا في طريق عودتي إلى المنزل في الليل دون أن أتوصل لتفسير مقنع لهذه الأحجية. إن أفضل شيء تفعله عندما تعترضك أحجية صعبة الحل هو أن تقذفها بعيداً عن تفكيرك، وكان هذا ما فعلته. مددتُ يدي إلى منشفة أخرى وأبعدت فراشة سوداء جديدة كانت ترتعد في عقلي. شعرتُ أني هدأت وذهبت للنوم. ولكن الأحلام التي هي منفذ للروح جعلت الحشرة تعود إليّ حيث أمضيت الليل بطوله أفكّر بخصوص هذه المسألة الغامضة دون أن أتوصل لشرح لها. كانت السماء تمطر في ذلك الصباح وعزمت أن أؤجل رحيلي ولكن في صباح اليوم التالي كان الجو مشرقاً والسماء زرقاء وصافية، وعلى الرغم من ذلك لم أذهب. كذلك الأمر في اليوم الثالث والرابع وهكذا حتى نهاية الأسبوع. كان صباحاً جميلاً، معتدلاً ومغرياً، وهناك في المنزل، كانت العائلة، العروس ومجلس النواب ينتظرونني، ولكن كنت غير قادر أن ألبي نداء أي أحد فيهم. كنت مسحوراً بقدميّ « فينوس» العرجاء[1]. كلمة « مسحور» ما هي إلّا أسلوب وصف منمّق، في الحقيقة إنه ليس سحراً إنما هي سعادة كاملة تنم عن رضا جسدي وروحي. لقد أحببتها بصدق، وشعرت أني بخير عند قدمي ذلك المخلوق البريء، الساذج وغير الشرعي، فتاة عرجاء، هي ثمرة الحب والازدراء وأعتقد أنها شعرت أيضاً بتحسّن أفضل عندي قدمي، حصل كل ذلك في تيجوكا. ظلّت الدونا أوسيبيا تراقبنا ولكن ليس كثيراً، لتضفي جواً لطيفاً في تلك اللحظة. أودعتني هذه الفتاة روحها المتفتّحة في أول لحظات نضجها.

سألتني يوم السبت: «هل ستعود غداً؟

« إني أخطط لذلك.»

«لا تذهب».

وبالفعل لم أذهب، وأضفت نكهة إنجيلية لمقولتي الخاصة:» طوبى للذين لا يرحلون من أجل القبلة الأولى لحبيباتهم « وبالفعل، كانت القبلة الأولى ليوجينيا يوم الأحد، القبلة الأولى لأول

---

١ فينوس: آلهة الجمال عند الإغريق.

رجل في حياتها، لم تكن هذه القبلة مسروقة ولكنها قدمت ببراءة، بنفس الطريقة التي يدفع بها المديون المخلص دينه. يوجينيا الطيّبة! لو كنت تعلمين ما هي الأفكار التي تدفقّت من عقلي حينها، إنك ترتعشين بمتعة، يداك حول كتفيّ، تتأملين زوجك المستقبلي، وأنا كانت عيناي منصبّتين على عام ١٨١٤، في الحديقة، على فيلاسا، أفكر أنك لا تستطيعين أن تخرجي من دائرتك، وتنكري أصلك....

وبشكل غير متوقّع دخلت الدونا أوسيبا لكن ليس بشكل مفاجئ لدرجة أن تكشف أمرنا. توجّهتُ إلى النافذة، وجلست يوجينيا لتسوي إحدى ضفائرها.

عجبي من هذه القدرة على التظاهر بفرح! يا لها من مهارات لا منتهية! يا لها من طرطوفية [١] عميقة، كان يجب ألّا أستغرب كل هذا السلوك فهو أمر طبيعي يسري في عروقك، غير مدروس لأنه طبيعي مثل نزعة غريزية، مثل غريزة النوم. والأغرب من ذلك أن الدونا لم تشك بأي شيء.

***

١ الطرطوفية: الكذب والنفاق نسبة لمسرحية لموليير بعنوان " طرطوف" وهو ملهاة يكشف للقارئ الجانب الجذّي من شخصية مؤلفه " موليير" ويعالج موليير مشكلة اجتماعية خطيرة وهي مشكلة النفاق الاجتماعي.

من أجل روح حسّاسة

أنا متأكّد أنه من بين خمسة أو ستة قرّاء، ستكون هناك بالتأكيد روح حسّاسة مضطربة من الفصل السابق وقد تكون ترتعد حول قدر يوجينيا وربما.. نعم ربما في داخل أعماقها تدعوني ساخراً [1] أنا روح حسّاسة ساخرة. وقسماً بديانا [2] تستحق هذه الإهانة أن تغسل بالدم، هذا إذا كان الدّم قادراً على غسل أي شيء في هذا العالم. كلّا أيتها الروح الحساسة أنا لستُ ساخراً ولكنني إنسان. كان عقلي عبارة عن مسرح تُعرض على خشبته جميع أنواع المسرحيات: من المسرحيّات المقدّسة، المسرح الملتزم، مسرح الشك، الكوميديا الأنيقة، المسرح الهزلي الجامح، التمثيليات القصيرة، التهريج، الكوميديا الساخرة، عاصمة الجحيم في « الفردوس المفقود» والروح الحساسة، خليط من الأشياء والأشخاص الذين من خلالهم تستطيع أن ترى كل شيء بدءاً من أجمل وردة في سميرنا [3] حتى نبتة السذّاب [4] في الباحة الخلفية لمنزلك. من سرير كيليوباترا الفخم إلى زاوية الشاطئ حيث يغرق المتسوّل في نومه. ولتجاوز كل هذا تحتاج لأفكار من أشكال وأنواع مختلفة، لم يكن الجو العام يقتصر على وجود الماء والطائر الطنّان فقط بل أيضاً كان هناك حلزون وضفادع صغيرة، وبالعودة إلى تعبير « الروح الحسّاسة» اضبط أعصابك، امسح نظارتك... لأن عدم الوضوح يكون أحياناً بسبب الزجاج ودعنا ننتهي من وردة الشجيرات هذه.

***

---

١ قد يكون الكاتب يشير إلى فكر الفلاسفة الكلبيين الذي يؤمنون بأن الفضيلة هي الخير الأوحد وجوهرها ضبط النفس، وعادة ما يعبرون عن موقفهم بالسخرية والتشاؤم.

٢ الآلهة ديانا: آلهة القمر والعفّة، وهي مرتبطة بالأرض والخصوبة والولادة في الميثيولوجيا الرومانية.

٣ سميرنا: مدينة إغريقية قديمة تقع على الساحل الغربي للأناضول على البحر المتوسط.

٤ نبتة السذّاب: يُعرف أيضاًأيضاً بنبتة الفيجن أو الرحمة ويعد أحد النباتات المعمرة، يتراوح طوله بين ٥٠ لـ ١٠٠ سم ويضم حوالي ٤٠ نوعاً، وهو من الأعشاب التي تنمو في البر وعلى سفوح الجبال، في جنوب شرق إيطاليا وفرنسا وجنوب إسبانيا.

الطريق إلى دمشق

كان ذلك في الأسبوع التالي، كما لو أني كنت في طريقي إلى دمشق حيث سمعت صوتاً غامضاً يهمس لي بالكلمات الموجودة في الكتاب المقدّس: في الإصحاح التاسع: ٦:٩ « انهض واذهب إلى المدينة[١] « كان هذا الصوت يأتي من داخلي، من مصدرين: الشفقة التي جعلتني عاجزاً أمام براءة الفتاة الصغيرة. والخوف من الوقوع حقاً في حب هذه الفتاة والزواج منها.

إنّها امرأة عرجاء! وليس لديّ أدنى شك أنها اعتقدت أن هذا هو سبب عودتي إلى المدينة وقد أخبرتني به علناً. حدث ذلك على الشرفة ظهيرة يوم الاثنين عندما أخبرتها أني سأعود في صباح اليوم التالي « الوداع» حدّقت بي ممدودة اليدين، وقالت: » إنك تفعل الصواب». وبما أني التزمتُ الصمت حينها، تابعتْ كلامها قائلة: « إنك تفعل الصواب في هروبك مني ومن فكرة الزواج السخيفة». كنت سأقول لها كلا، ولكنها انسحبت ببطء تغصّ بدموعها. أمسكتُ بها بعد أن ابتعدت عني بضعة خطوات وأقسمت لها بكل القديسين بأنني مجبر على العودة، ولكنني بقيتُ أحبّها وبشدّة. استمعتْ إلى كل هذه الترهات الباردة دون أن تقول أي شيء. سألتها أخيراً: هل ستصدقينني؟

أجابت: كلا، لقد قلت لك بأنك تفعل الصواب.

حاولت أن أعيدها ولكن النظرة التي رمقتني بها لم تكن نظرة رجاء بأن أتركها بل نظرة أمر بأن أرحل. في صباح اليوم التالي غادرتُ تيجوكا ساخطاً بعض الشيء، وراضياً قليلاً. ذهبت مباشرةً وقلت في نفسي: « لقد كان من الصواب أن أطيع والدي حيث كان من المناسب أن أدخل غمار السياسة»..

لقد كان والدي مُحقاً

الدستور.. وعروستي... وحصاني.....

---

١ الطريق إلى دمشق: من سفر أعمال الرسل، الإصحاح التاسع، وجملة " انهض واذهب إلى المدينة" هي العبارة التي يقولها السيد المسيح لشاول وهو في طريقه إلى دمشق، يقع شاول في الأسر ويصيب بالعمى لكن المسيح يشفيه وهنا يصبح شاول مؤمنا ويعتنق المسيحية وشاول هو بولس الرسول.

الحذاء

أبي، الذي لم يكن يتوقع قدومي، عانقني حالما رآني، يملؤه الحنان والعرفان، قائلاً: » هل حقاً أراك أمامي، هل يمكنني أخيراً أن.....»؟

تركته متحفظاً على كلامه وذهبت لأخلع حذائي الذي كان ضيّقاً، وحالما تحررت من الحذاء أخذت نفساً عميقاً، تمددت ومددت قدميّ وغرق كل جزء من جسمي في راحة نسبية. ثم تأملت حقيقة أنّ الحذاء الضيّق هو واحد من أكثر الأشياء قيمة على كوكب الأرض لأن ضيق الحذاء هو ما يمنحك فرصة التلذّذ بالراحة عند خلعه.

عاقب قدميك بحذاء ضيّق أيّها البائس ثم سامحهما وستحصل حينها على سعادة بخسة كرحمة من صانعي الأحذية ولذّة مستحقّة من أبيقور[1]. عندما كانت هذه الفكرة تدور في أرجوحة رأسي الشهيرة، أدرت نظري باتجاه تيجوكا ورأيت الفتاة العرجاء الصغيرة تختفي في أفق الماضي. وشعرتُ أنّ قلبي لن يتوانى في خلع الحذاء حتى. لقد كان الانغماس في اللذّات سبباً في خلعه. بعد أربعة أو خمسة أيام كنت أتلذذ بمتعة تلك اللحظة السريعة التي لا يمكن وصفها أو كبتها، والتي جاءت بعد ألم حادّ واستغراق في التفكير وتوعّك. استنتجتُ من ذلك أن الحياة هي أكثر الظواهر إبداعاً، فالجوع لا يشتدّ إلّا لجعلك تأكل، لقد ابتكرت الحياة تلك الأشياء فقط لتجعل من السعادة الدنيوية سعادة كاملة، وبكل ثقة يمكنني أن أخبرك أن كل الحكمة الإنسانية لا تساوي زوج أحذية قصير. والراحة الجسدية لا تضاهيها أي فلسفة.

يوجينيا، يا صغيرتي، لا تخلعيهما أبداً، لقد اجتزت هذا الطريق بأكمله وأنت تعرجين من رجلك ومن الحب، حزينة كجنازة شخص فقير، منزوية، صامتة، متعبة، وأنت أيضاً قدمت إلى هذه الضفّة الأخرى، ما أجهله هو إذا كان وجودك بالفعل ضرورياً في هذا العصر؟ من يدري؟ ربما خطوة واحد إلى الوراء كانت كفيلة بإفشال المأساة الإنسانية.

***

١ أبيقور: فيلسوف يوناني قديم وهو مؤسس المدرسة الأبيقورية في الفلسفة، تقوم الأخلاق عند أبيقور على مادية واضحة، وإلى بيان أن مذهب المتعة هو أسهل الطرق إلى الحكمة، والغاية الوحيدة التي يسلّم بها أبيقور هي اللّذة.

أخيراً

وأخيراً! ها هي فيرجيليا، وقبل أن أذهب إلى منزل المستشار دوترا، سألت والدي، إن كان هناك أي التزامات أو إجراءات بخصوص الزواج. فقال:» لا، لا يوجد التزامات، لكن في وقت سابق وعندما كنت أحدثه عنك، أفصحتُ له عن رغبتي في أن أراكَ نائباً، لقد تحدثت بطريقة جعلته يعدني أن يفعل شيئاً حيال ذلك وأظنه سوف يفعل. وبالنسبة للعروس- هذا الاسم الذي أطلقه على تلك المخلوقة الرائعة، إنها مثل جوهرة، وردة، نجمة، شيء نادر، إنها ابنته، وتخيّلتُ أنك في حال تزوجتها فستصبح نائباً بطريقة أسرع».

- « هل هذا كل شيء؟» قلتُ له.

- « نعم، هذا كل شيء» قال أبي.

ومن هناك ذهبنا إلى منزل دوترا، كان هذا الرجل وطنياً، مرِحاً، مبتسماً، مبتهجاً، غاضباً بعض الشيء من الاضطرابات لكنه ليس يائساً من إمكانية علاجهم بشكل سريع. كان يظنّ أني ترشّحت بشكل قانوني وكان من الأفضل أن يعتقد ذلك، وأياً يكن، فلننتظر بضعة أشهر. ثم قدّمني إلى زوجته- سيدة محترمة- وابنته التي كانت كما وصفها والدي تماماً، أقسم أنها كانت كذلك. أعد قراءة الفصل السادس والعشرين. أنا الذي كانت لديّ فكرة بسيطة عن الفتاة، حدّقت بها بطريقة معيّنة. وهي التي لا أعلم إن كان لديها أدنى فكرة عني، لم تحدّق بي بشكل مختلف عن المعتاد. كانت النظرات الأولى بسيطة ونقية لشخصين على وشك الزواج، وفي نهاية الشهر أصبحنا مقربين من بعضنا.

****

النسخة الرابعة

دعاني دوترا لتناول العشاء معهم في إحدى الليالي، وأنا قبلتُ الدعوة. وفي اليوم التالي وأثناء ذهابي إلى منزل دوترا، طلبت من الحوذي أن ينتظرني في لارجو ساو فرانسيسكو دي باولا وذهبتُ في نزهة.

هل ما زلت تذكر نظريتي عن النسخ البشرية عزيزي القارئ؟ حسناً، في ذلك الوقت كنت أنهي النسخة الرابعة حيث راجعتها وصححتها ولكنها ما تزال تحتوي على بعض الأخطاء

العفوية والاستخدامات غير المناسبة لبعض الكلمات. بالإضافة إلى وجود خلل تم تعويضه من خلال أسلوب الكتابة الذي كان أنيقاً وبربط الجمل بطريقة فاخرة. وبعد الانتهاء من نزهتي وعند مروري في رودوس أوفريس نظرتُ إلى ساعتي وإذ بالغطاء الكريستاليّ يتدحرج أمامي على الرصيف. فقصدت أول محل صادفته في طريقي لإصلاحها، كان محلاً مكعب الشكل، أو أكبر من المكعب بقليل، مظلماً وممتلئاً بالغبار.

كان في داخل المحل امرأة تجلس خلف المنضدة، وجهها أصفر ومليء بالبثور، لم ألمحها للوهلة الأولى، لكن سرعان ما أصبح المشهد مثيراً للفضول. لا يمكن أن تكون هذه السيدة قبيحة فيما مضى، على العكس، من الواضح جداً أنها كانت جميلة، جميلة جداً ولكن المرض وعلامات الهرم المُبكر قد دمّرت زهوة جمالها. إن مرض الجدري مرض مريع، يترك علامات كثيرة وكبيرة تشكل نتوءات وندبات في جميع أنحاء الوجه مما يجعلنا نشعر أن هذا الوجه هو عبارة عن صحن رملي سميك القشرة، سميك جداً. كانت عيناها أفضل جزء في المشهد برمته، ومع ذلك كانتا توحيان بتعبير غريب ومشمئز، على كل حال تغير كل هذا حالما بدأت الحديث معها. أما بالنسبة لشعرها فكان رمادياً بمجمله، ومغبرٌ مثل باب المحل. كان هناك أيضاً ألماسة تلمع في أحد أصابع يدها اليسرى. هل يمكنكم تصديق ذلك، أيتها الأجيال القادمة؟ إن تلك المرأة كانت مارسيلا.

لقد كان من الصعب أن أتعرّف عليها مباشرة، لكنها عرفتني على الفور حالما بدأت حديثي معها. لمعت عيناها وتغيّرت تعابير وجهها فكانت نظراتها تارة جميلة وتارة حزينة. شعرت أنها تحاول التهرّب أو الاختباء بحركة ما. كانت تلك الحركة تعبيراً عن غريزة الغرور والتي استمرّت للحظات. جلست مارسيلا مبتسمة وقالت وهي تشبك يديها: «هل تريد شراء شيء ما؟»

لم أجبها وفهمتْ مارسيلا سبب صمتي فهذا لم يكن صعباً أبداً، وأعتقد أنها – حسب ظنّي– كانت حائرة في تحديد أيهما أقوى: الخوف من الحاضر أم ذكريات الماضي. قدّمت لي كرسياً حتى أجلس وبدأت بالحديث عن نفسها بينما المنضدة تفصل بيننا، تحدثت مطوّلاً عن الحياة التي عاشتها وعن الدموع التي ذرفتها بسببي، تحدثت عن اشتياقها لي وعن معاناتها وأخيراً عن مرض الجدري الذي شوّه وجهها وكان عوناً للزمن الذي جار عليها باكراً. الحقيقة أنّ روحها كانت بالأصل روحاً متداعية. فهي كانت ستبيع كل شيء، كل شيء تقريباً حتى الرجل الذي أحبّها في وقت مضى ومات بين يديها، وترك لها محل المجوهرات هذا، لكن لسوء الحظ أنه ما من زبائن كثر يدخلون المحل، ربما بسبب غرابة أن تدير امرأة محل مجوهرات. وعلى الفور سألتني عن حياتي، لكني لم أبدد وقتاً في الحديث معها، كان جوابي مقتضباً، ليس طويلاً، وليس ممتعاً.

وسألتني بعد حديثي المقتضب: » هل تزوّجت؟»

أجبتها بشكل جاف: » ليس بعد».

أشاحت مارسيلا بنظرها خارجاً إلى الشارع وكأنّها كانت تستعيد الذكريات بحزن. وأنا بدوري أطلقت العنان لنفسي أيضاً بالغوص في الماضي، وفي منتصف الحنين والذكريات سألت نفسي ترى ما هو السبب الذي جعلني أبدو أحمقَ لهذه الدرجة؟ وبالتأكيد لم أقصد الحماقة في علاقتي بمارسيلا التي تعرّفت عليها عام ١٨٢٢، لكن الحماقة في تبذير الأموال حينها، هل كان جمال تلك الأيام الماضية يستحق فعلاً ثلث تلك التضحية؟ هذا ما كنت أبحث له عن جواب في وجه مارسيلا، وجاءني الجواب لا. وفي الوقت نفسه، كانت عيناها تطلب مني أن أعود إلى ذلك اليوم، إلى شعلة الجشع التي أشعلتهما. لم أكن قادراً على رؤية ذلك في عينها فما كنت أراه كان عينيها في النسخة الأولى. ثم سألتني وهي تستعيد وعيها من خدر الذكريات: » لماذا جئت إلى هنا؟ هل لمحتني وأنت في الطريق؟»

مكتبة سُر مَن قرأ

أجبتها: » كلا، لقد انكسر غطاء ساعتي الكريستالي وكنت أبحث عن محل ساعات لشراء غطاء جديد للساعة، لذلك اعذريني، أنا في عجلة من أمري، أريد أن أبحث عن محل آخر».

ابتسمت مارسيلا بحزن، والحقيقة أني شعرت بنفسي بائساً ومزعجاً في نفس الوقت لذلك آثرت الخروج من هذا المكان. قامت مارسيلا بمناداة صبي زنجي، وأعطته الساعة على الرغم من اعتراضي، وقامت بإرسال الصبي مع الساعة إلى المحل المجاور لشراء غطاء لها. لم يكن في اليد حيلة فجلستُ مجدداً. قالت لي مارسيلا إنها تريد الحصول على الحماية من أشخاص ذوي نفوذ كانت قد عرفتهم في الماضي، وأظنّ لهذا السبب عرضت عليّ تقديم مجوهرات جميلة ورخيصة الثمن وأقسمت على فعل ذلك، لأنها تعلم أنه من الطبيعي أن أتزوّج عاجلاً أم آجلاً، لم تقل « رخيصة» حرفياً لكنّها استخدمت مجازاً لطيفاً وواضحاً.

لقد بدأ الشك يراودني أنها لم تتعرّض لأي مصيبة سوى « مرض الجدري» فمن الواضح أنّها ادّخرت أموالها في مأمن من غدر الزمن، وأنها تساومني فقط لغاية وحيدة وهي إرضاء شغفها في جمع الثروة. لقد كان هذا الأمر بمثابة دودة نخرت حياتها، وكان هذا بالضبط ما علمته لاحقاً.

****

وبينما كنت أفكر في ذلك الأمر بيني وبين نفسي، دخل المحل رجل قصير، حاسر الرأس بصحبة فتاة في الرابعة من عمرها.

سأل الرجل مارسيلا: » كيف كان يومك؟ «

« ليس سيئاً، تعالي يا ماريكوتا »، قالت مارسيلا.

التقط الرجل الطفلة بذراعيه ورفعها فوق المنضدة، وقال لها: » اذهبي واسألي الدونا مارسيلا كيف قضت ليلتها، كانت متشوّقة للمجيء إلى هنا ولكن والدتها لم تكن قادرة على تجهيز ملابسها، أليس كذلك يا ماريكوتا؟ اطلبي بركات الدونا مارسيلا واحذري من المفتاح الكهربائي. وبالمناسبة، لا يمكنك تخيلها كيف تبدو في المنزل وكيف تتصرّف. تتحدث عنك طوال الوقت، وأمامك هنا تبقى جامدة كالدميّة، لكنها البارحة...ووجّه كلامه مرة ثانية للطفلة: هل يمكنني إخبارها يا ماريكوتا؟

« لا، لا تخبرها يا أبي » قالت الطفلة.

« هل كان شيئاً مخجلا؟ » سألت مارسيلا وهي تربت على وجه الفتاة.

« سوف أخبرك، علمتها والدتها أن تقول « أبانا » و » السلام عليك يا مريم »، لكن الصغيرة سألتني البارحة بصوتٍ خجول، « لا يمكنك أن تتخيّل، لو كان مسموحاً لي أن أقدمهم للقديسة مارسيلا؟ »

« يا للمسكينة! » قالت مارسيلا وهي تقبّلها.

« إنها علاقة حب، ارتباط عاطفي، هل يمكنك تخيّل ذلك، لقد قالت أمها إنها مسحورة بكِ ».

قال الرّجل عدّة أشياء أخرى، كان كلامه عاطفياً وحميمياً، وقبل أن يغادر مع الطفلة رمقني بنظرات فضولية ومريبة، وسألتُ مارسيلا: » من هذا الرجل؟ «

أجابت مارسيلا: » إنه جارنا الساعاتي، إنه رجل طيب وزوجته أيضاً، أما ابنته فهي مذهلة.. أليس كذلك؟ يبدو لي أنها تحبني كثيراً، إنهم أناس طيبون ».

عندما قالت مارسيلا هذه الكلمات شعرت أنّ صوتها يرتعش بفرح، وأن وجهها قد غمرته لمسة سعادة.

في العربة

دخل الصبي الزنجي أثناء ذلك حاملاً معه الساعة وقد وضع لها غطاء كريستالياً جديداً. وكان عليّ الذهاب لأن وجودي هناك بدأ يزعجني فعلاً. أعطيت الصبي قطعة نقدية نحاسية لقاء تصليح الساعة، وأخبرت مارسيلا أني سأعود في وقت آخر، وغذيتُ خطوتي. ولقول الحقيقة، عليّ أن أعترف أن قلبي كان يخفق قليلاً، لكن هذا الخفقان ما كان سوى قرع جرس الموت لشيء ما، أمّا روحي فكانت رهينة أفكار معاكسة.

أتذكّر أن ذلك اليوم أشرق بسعادة، كرّر لي والدي سلفاً أثناء تناول وجبة الإفطار الخطاب الأوّل الذي سوف أقدمه لمجلس النواب. كنّا نتسامر ونضحك كثيراً وكانت الشمس أيضاً ساطعة جداً وكأنه يوم من أجمل الأيام في العالم، تماماً مثلما كانت فيرجيليا تضحك عندما أخبرتها عن مسامراتنا الصباحية. كل شيء كان يسير بشكل جيد إلى حين فقدت غطاء ساعتي الكريستالية، ودخلت أول محل صادفني وبلمح البصر، وجدت الماضي يظهر أمامي مباشرة، يمزقني، يلثمني ويستجوبني بوجه شوّهه الحنين والجدري.

تركت هذا الماضي خلفي وهرعت إلى داخل العربة التي كانت بانتظاري في شارع لارجو ساو فرانسيسكو دي باولا وأمرتُ السائق أن يقود بسرعة، فقام بتسريع خطى الحيوانات وبدأت العربة تهزّني بقوّة. سمعت صوت صرير النوابض، واجتازت العجلات بسرعة الطين الذي خلّفه المطر مؤخراً، حاولت التخلص من كل شيء لكنه بدا وكأنه ما يزال ملتصقاً بي.

أليس هناك نوع من الرياح التي لا تكون قويّة ولا عاصفة، لكنها حارة قليلة، تهبّ أحياناً بفتور فلا تسقط القبعة عن رأسك ولا ترفع التنورة عالياً، ومع ذلك فهي أسوأ من الرياح العاتية لأنها تخفض الروح وتضعفها وتذيبها نوعاً ما؟

حسناً، هذا بالضبط ما شعرتُ به، ريح تعصف في داخلي، ووجدتُ نفسي محشوراً بين الماضي والحاضر، كنت أتوق لأن أخرج فوق بساط المستقبل. والأسوأ من ذلك أن العربة توقفت عن الحركة.

« جواو» صرخت في السائق « هل توقفت العربة؟»

« أووه، أيّها السيّد الصغير، لقد وصلنا إلى منزل المستشار للتوّ».

الهلوسة

لقد كان السائق مُحقاً، دخلت منزل المستشار دوترا مُسرعاً، وجدتُ فيرجيليا قلقة، بمزاج سيء، وعابسة الوجه، وأمّها، التي كانت صمّاء، كانت موجودة معها في غرفة المعيشة. وبعد إلقاء التحيّة قالت لي الفتاة بامتعاض:» توقعنا حضورك باكراً».

دافعت عن نفسي قدر الإمكان واختلقتُ ذرائع مختلفة؛ أخبرتها عن الحصان العنيد وعن صديق استوقفني في الطريق وأخّرني. وفجأة اختنق صوتي وماتت الكلمات على شفاهي، كنت مشلولاً من شدّة الحيرة. هل يمكن أن تكون هذه الفتاة هي فيرجيليا ذاتها؟ نظرتُ إليها مجدداً وكان شعوري مؤلماً جداً لذلك تراجعت خطوة للخلف وأشحت نظري بعيداً. ثم نظرتُ إليها مجدداً، كان الجدري قد أكل وجهها. بشرتها التي كانت ناعمة ووردية وصافية قبل يوم واحد، أصبحت الآن شاحبة وصفراء، وكأنها وصمت بنفس السوط الذي دمّر وجه المرأة الإسبانية. عيناها اللتان كانتا دائماً حيويتين، أصبحتا باهتتين. وشفاهها حزينة، وفوق كل هذا كانت تحوطها غمامة كآبة. نظرتُ إليها جيّداً، وأمسكتُ يدها وسحبتها نحوي بهدوء، و لم أنخدع بمنظرها فقد بدَتْ البثور واضحة في وجهها واعتراني شعور بالاشمئزاز.

ابتعدت فيرجيليا عني وجلستْ على الأريكة. مضى بعض الوقت وأنا أنظر إلى مقدّمة حذائي، وأفكّر، « هل يجب أن أغادر أم أبقى؟». رفضتُ الفكرة الأولى والتي كان سخيفة تماماً، وتقدمت باتجاه فيرجيليا التي جلست دون أن تنطق بكلمة. نظرتُ إليها باحثاً عن آثار المرض في وجهها، لكن عبثاً لم أجد شيئاً، كانت بشرتها ناعمة وبيضاء كالعادة.

« لماذا تنظر هكذا وكأنك تراني للمرة الأولى» قالت لي فيرجيليا بعدما لاحظت أني أحدّق بها بشدّة.

« لم أر أحداً بهذا الجمال من قبل»، قلت لها وجلستُ بينما كانت صامتة، تنقر بأظفارها. ساد الصمت لثواني ثم بادرتُ أنا بالحديث عن أشياء لا علاقة لها بالحادثة. لم تبدِ فيرجيليا أية ردة فعل و لم ترد على كلامي و لم تنظر إليّ حتى. كانت تمثالاً صامتاً باستثناء حركة النقر بأظفارها. نظرت باتجاهي مرة واحدة فقط لكن نظرتها كانت للأعلى، رافعة الزاوية اليسرى من فمها، عاقدة حاجبيها حتى التصقا ببعضهما. كل هذه التعابير أضفت على وجهها ملامح تتراوح بين الحزن والسخرية. كان هناك شيء من العتب في ذلك الازدراء، كان تعبيرا مبتدعاً، ينمّ عن معاناة

في داخلها، إمّا أنّها كانت تعاني حقاً أو أنها فقط منزعجة قليلاً. ولأن هذا الألم الخفيّ تسبب بالمزيد من الجراح، فمن المحتمل جداً أن تكون فيرجيليا قد عانت ألماً مضاعفاً أكثر من طاقتها، أظن أن هذا يسمّى بالحالة الميتافيزيقية [1]».

***

إرث أرسطو

هناك شيء آخر يبدو لي أنه يخضع لمفهوم الميتافيزيقية: على سبيل المثال، ضع كرة في وضعية الحركة، فستتدحرج الكرة، ثم المس كرة أخرى، فستتحرّك الكرة الثانية مثل الكرة الأولى بتأثير الدافع الذي انتقل إليها بواسطتك.

دعونا نفترض أن الكرة الأولى تدعى مارسيلا، وهذا مجرد افتراض. والكرة الثانية تدعى براس كوباس، والثالثة فيرجيليا. ما حدث هو كالتالي: تتدحرج مارسيلا التي تلّقت صفعة من الماضي، حتى تبلغ براس كوباس الذي بدوره يتفاعل مع القوّة الدافعة، ويبدأ أيضاً بالتدحرج حتى يصبح مواجهاً لفيرجيليا التي ليس بإمكانها فعل أي شيء للكرة الأولى « مارسيلا». وبهذا الانتقال البسيط للقوة أصبح لديك نقيضان اجتماعيان يتفاعلان معاً وينبثق منهما شيء جديد يمكن تسميته التقاء الكره البشري. كيف أمكن لأرسطو أن يهمل هذا الفصل؟

---

١ الميتافيزيقيا أو ما وراء الطبيعة: هي أحد أفرع الفلسفة التي تهتم بدراسة جوهر الأشياء ويشمل أسئلة الوجود والصيرورة والكينونة والمبادئ الأولى للوجود والطبيعة الأساسية للواقع. وقد قسّم أرسطو الميتافيزيقا إلي ثلاثة فروع رئيسية: هي اللاهوت الطبيعي (مفهوم الإله) الكوزمولوجيا (العلوم الكونية)، الأنطولوجيا (مفهوم الوجود).

ستكونين ماركيزة

لأني سأصبح ماركيزاً

كانت فيرجيليا تثير إزعاجاً متعمداً، ملاك مزعج، لكنها ليست سوى صورة عن محيطها...

ثم ظهر لوبو نيفيز الذي لم يكن أكثر رشاقة مني ولا أكثر أناقة وثقافة ولا أكثر لطفاً، لكنه خطف فيرجيليا والترشّح في غضون أسابيع وبأسلوب قيصريّ. لم يسبق ذلك أي غضب أو خلاف بين العائلتين على الإطلاق، حيث أقدم دوترا في أحد الأيام على إخباري أنه عليّ انتظار فرصة أخرى لأن لوبو نيفيز تلقى دعماً في ترشيحه من أشخاص ذوي نفوذ. فاستسلمتُ للأمر وكانت هذه بداية هزيمتي.

وبعد أسبوع كانت فيرجيليا تسأل لوبو نيفيز وهي مبتسمة:» متى ستصبح وزيراً في مجلس الوزراء؟»

فأجابها قائلاً: « بعد سنة من الآن».

ردّت فيرجيليا:» هل تعدني بأنك ستجعل مني بارونة يوماً ما».

فكان ردّ لوبو:» ستصبحين ماركيزة، لأنني سأصبح ماركيزاً».

منذ تلك اللحظة أصبحتُ تائهاً، لأن فيرجيليا فاضلت بين الصقر والطاووس، واختارت الصقر تاركة الطاووس لحيرته وحقده والقبلات الثلاث أو الأربع التي قبّلتها إياهم، وربما خمس قبلات، وحتى لو كانوا عشر قبلات فلن تكون هذه القُبل ستغيّر في الأمر شيئاً. فشفاه الرّجل ليست مثل حافر حصان أتيلا [1] التي طهرّت كل أرض دخلها، بل على العكس تماماً.

---

١ الحصان أتيلا: فرس أصيل (١٨٣٩- ١٨٤٦) شارك في مسابقات ملكية وامبراطورية وفاز بعدّة سباقات، تم تأجيره وبيعه وشراؤه مرات عديدة.

أحد أفراد عائلة كوباس

أصيب أبي بالصدمة لما آلت إليه الأمور، لا بل يمكنني القول إن موته لم يكن يحتاج لسبب آخر أكثر من هذا. لقد بنى العديد من القلاع والأحلام معها، لذلك لم يتمكن من تحمّل رؤية كل ذلك يتدمر أمامه دون أن يتعرّض لصدمة كبيرة تهزّ كيانه. رفض في البداية تصديق ما حصل. هل يمكن أن يحصل هذا مع أحد أفراد عائلة كوباس! مع غصن من شجرة عائلة كوباس الشهيرة، قال هذا بطريقة مقنعة لدرجة أني نسيت السيدة المتقلّبة لبرهة وبتّ أفكر بتلك الواقعة، فقد كنت أعلم بقصة صانع البراميل، ليست غريبة بالنسبة لي لكنها مثيرة للفضول: لقد تحوّل الخيال إلى يقين.

« عائلة كوباس» كرّر لي هذه الجملة مجدداً صباح اليوم التالي أثناء تناول الفطور. لم يكن فطوراً ممتعاً فقد كنتُ أترنّح من قلّة النوم، بقيت مستيقظاً فترة طويلة في الليل، هل كان ذلك بسبب الحبّ؟ مستحيل أن يكون بسبب الحبّ. لأنّ الرجل لا يعشق المرأة ذاتها مرتين، وأنا الذي سيقع في غرام تلك المرأة لاحقاً. لم يكن يأسرني شيء في ذلك الوقت سوى نزوة عابرة كنوع من المجاراة لحماقتي. وكان ذلك كافياً لإدراك مدى وعيي بالأمر. لقد كان مُغيظاً بعض الشيء، مغيظاً بشكل حاد مع بعض الوخز كأنّه دبوس، لكنه اختفى مع دخّان السجائر وحفلات الصخب والقراءة المشتتة حتى انبلج فجر جديد، ذلك الفجر الهادئ.

كنت شاباً، وأستطيع تدارك الأمر ومعالجة نفسي ولكن أبي لم يكن قادراً على تحمّل أعباء الكارثة بسهولة. لكن عندما أفكر جيّداً في الأمر، أدرك في الصميم أنّه لم يمت من هول الصدمة لكنها بالتأكيد فاقمت من وعكاته الصحيّة الأخيرة. توفي والدي بعد أربعة أشهر وكان حزيناً، منفطر القلب، ومستغرقاً في التفكير بشكل حاد ومستمر، وكأنه يشعر بتأنيب الضمير، والاستياء بشكل قاتل مما حدث، كل هذا ترافق مع الروماتيزم والسعال. وقد حدث في أحد المرّات عندما جاء أحد الوزراء ليستدعيه، أذكر ذلك بدقة؛ كيف ارتسمت على وجهه ابتسامة من الأيام الخوالي، ولمعت عيناه بشدّة، وكأن ذلك آخر وميض لروح تلفظ أنفاسها الأخيرة – لكن – ولأن الفرح لم يعد يعنيه عاد الحزن بسرعة ليخيّم عليه مباشرة، الحزن أو الموت قهراً لأنه لم يتمكّن من رؤيتي في منصب يليق بي قبل موته.

وقال له:» هل يمكن أن يحصل هذا مع أحد من أفراد عائلة كوباس!».

توفي بعد عدّة أيام من زيارة الوزير في أحد صباحات يوم من شهر مايو/ أيار، كنا بجانبه أنا وأختي سابينا وعمي إلديفينسو الكاهن وصهري زوج سابينا. توفي بالرغم من كل العلاج الذي قدمه له الأطباء وبالرغم من حبّنا وعنايتنا الكبيرين، وبالرغم من كل شيء، كان سيموت ومات.

ملاحظات

شهقات ودموع، المنزل كلّه في حالة تأهّب، الجميع متّشح بالمخمل الأسود، جاء الرجل الذي سوف يكفّن الجثّة، والآخر الذي تولى مهمة أخذ قياسات الكفن والتابوت وتم تحضير الشمعدانات، والدعوات.

توافد الضيوف بهدوء وبطء، كانوا يصافحون أفراد العائلة، بعضهم حزين، والآخر تعلو وجهه نظرة جادّة حزينة. وكان هناك أيضاً القس وخادم الكنيسة. أقيمت الصلوات، تم رشّ الماء المقدّس في المنزل وتسمير التابوت، حمله ستة أشخاص وانطلقوا رغم البكاء والدموع والنحيب.

بكى أفراد العائلة مجدداً ومشوا خلف النعش، يحملونه على أكتافهم ثم وضعوه في عربة الموتى التي بدأت بالسير وخلفها باقي العربات واحدة تلو الأخرى.

إن كل ما سبق هو مجرّد قائمة بسيطة من الملاحظات التي دوّنتها من أجل فصل حزين ومبتذل لن أكتبه.

***

الميراث

دع القارئ يلقي نظرة علينا الآن، بعد أسبوع من وفاة أبي، أختي تجلس على الأريكة، وإلى الأمام منها بقليل يجلس كوتريم متكئاً على نضد المائدة، يداه مطويتان ويعضّ شاربه. عُدتُ خطوة إلى الخلف ثم تقدّمت خطوة إلى الأمام مُحدّقاً في الأرضية. حزنٌ عميق يخيّم علينا، وصمتٌ مطبق يعمّ المكان.

كان كوتريم يقول:» رغم كل شيء فإن هذا المنزل لا يساوي أكثر من ثلاثين كونتوس، ولنفترض أنه يساوي خمسة وثلاثين كونتوس».

قلت لكوتريم:» أتصوّر أنه يساوي خمسين وسابينا تعلم أنه يساوي ثمانية وخمسين».

ردّ كوتريم:» قد يكون سعره ستون، لكن هذا لا يعني أنه يستحق هذا السعر، إنّه يساوي الآن أقل بكثير، أنت تعلم أن أسعار المنازل انخفضت كثيراً على مدار العام. انظر، في حال كان هذا المنزل يساوي فعلاً خمسين كونتوس، فكم تعتقد أن المنزل الذي تريده، أقصد المنزل الريفيّ، يساوي؟

« دعنا لا نتحدّث في هذا الأمر، فهو منزل قديم».

« قديم!» صاحت سابينا، رافعة يديها إلى السقف.

« وهل تعتقدين أنه منزل جديد، أتحدّاك أن تقولي هذا».

« بالله عليك يا أخي، دعنا نتوقف عن هذا الهراء»، قالت سابينا وهي تنهض من على الأريكة، « يمكننا أن نقوم بجميع الإجراءات بأسلوب ودّي، وبسلاسة، على سبيل المثال، دعنا نتفق أن كوتريم لن يأخذ العبيد، سيأخذ فقط الحوذي وباولو...».

سارعت بالقول:» لا، ليس الحوذي، فأنا أريد العربة ولن أبحث عن سائق جديد».

« حسناً، سوف أبقي باولو وبردينيسيو معي» قالت سابينا.

« برودينسيو أصبح حراً»

« أصبح حراً؟».

« نعم، ومنذ عامين».

« كيف أمكن لوالدك أن يتخّذ قرارات في هذا المنزل دون أن يخبر أحداً؟ عظيم، ماذا عن الطبق الفضيّ؟ لا أتصور أنه أطلق سراحه أيضاً، أليس كذلك؟».

لقد تحدثنا عن الطبق الفضيّ، ذلك الطبق الفضي يعود لعصر الملك خوسيه الأول، إنه الشيء الأكثر أهمية في الميراث، بسبب صنعته البديعة، وأصول ملكيته التي تعود للعصور القديمة، حيث قال والدي أن « الكونت دي كونها « أهداه لجدي العظيم لويس كوباس عندما كان الكونت يشغل منصب نائب ملك البرازيل.

تابع كوتريم:» وبالنسبة للطبق الفضيّ فلن أتحدّث في الأمر إن لم يكن لدى أختك رغبة في الاحتفاظ به، وأظن أنها محقة في ذلك، سابينا فتاة متزوجة وتحتاج لطبق أنيق وجيّد. أنت شاب أعزب ولا يأتيك ضيوف، ولا....»

« لكني قد أتزوّج».

« من أجل ماذا ستتزوّج؟ « قطعتنا سابينا.

كان سؤال سابينا سؤالاً مؤثراً جداً لدرجة جعلني أنسى كل رغباتي لدقائق، ابتسمت، وأخذت يد سابينا، مربّتاً على راحة كفّها بنعومة وبطريقة مرهفة جعلت كوتريم يفسّر الأمر على أنه إشارة لقبولي وشكرني بدوره.

جاوبته:» من أجل ماذا تشكرني، فأنا لم أتنازل عن أي شيء ولن أفعل».

« لن تتنازل عن أيّ شيء».

أومأت له بالإيجاب.

« دعه يكمل يا كوتريم» قالت أختي» أريد أن أعرف إن كان يريد الثياب التي على أجسادنا أيضاً، هذا كل ما كان ينقصنا».

فقال كوتريم:» لن ينقصنا شيء آخر، أنت تريد العربة وتريد الحوذي وتريد الطبق الفضيّ، تريد كل شيء، انظر، سيكون من الأسرع أن تصحبنا إلى المحكمة وتثبت أمام الجميع أن سابينا ليست أختك وأنا لست صهرك والله ليس الله. افعل ذلك، ولن تخسر شيئاً ولا حتى ملعقة صغيرة. هيّا يا صديقي، حاول أن تتصرف بطريقة أخرى».

لقد كان غاضباً جداً لدرجة أني لم أفكر سوى في طرح اقتراح لفضّ الخلاف وهو: أن نتقاسم الطبق الفضيّ. ضحكَ ساخراً وسألني لمن سيكون إبريق الشاي، ولمن ستكون زبدية السكّر. ثم قال بعد ذلك بأنّنا قد نحصل على فرصة لتصفية حساباتنا والحصول على مطالبنا في المحكمة على الأقل. وفي هذه الأثناء توجهت سابينا إلى النافذة المُطلّة على الحديقة. التفتت إلينا بعد برهة واقترحت بأنها ستتنازل عن باولو وباقي العبيد بشرط إعطائها الطبق الفضيّ. كنت سأبادر بالقول إني أرفض هذا المقترح لكن كوتريم سبقني وقال ما كنت أنوي قوله.

« أبداً، لن أقدم أي تبرعات خيرية « قال كوتريم.

تناولنا عشاءنا في جو من الكآبة، جاء عمي الكانون بعد العشاء وحضر مشادّة صغيرة أخرى.

« يا أطفالي» قال عمي « تذكروا أن أخي ترك لكم رغيف خبز كبيراً يكفيكم جميعاً.

« نعلم ذلك، لكن خلافنا ليس على رغيف الخبز بل على الزبدة، فأنا لا يمكنني أن أبلع رغيفاً جافاً» ردّ كوتريم.

في نهاية الأمر، تقاسمنا الميراث فيما بيننا لكننا لم نتصالح، ويمكنني إخباركم أنه برغم الخلاف الكبير، كان من الصعب عليّ القطيعة مع سابينا. لقد كنا دوماً أصدقاء جيدين، لعبنا سوية في مرحلة الطفولة وغضبنا سويّة، وعشنا الفرح والحزن عندما أصبحنا راشدين، ولطالما تقاسمنا رغيف الفرح والبؤس كأخ وأخت، كما كنا دوماً كأخ وأخت طيبين. لكننا جرحنا بعضنا كجمال مارسيلا الذي دمّره مرض الجدري.

المنعزل

مارسيلا، سابينا، فيرجيليا، أنا هنا أرتب جميع المقارنات مع بعضها إذا اعتبرنا أن هؤلاء الأسماء والأشخاص هم فقط مراحل مرّت بها مشاعري الداخلية. وأعتذر منك أيها القارئ لعاداتي السيئة، ضع ربطة عنق أنيقة، ارتدِ صدرية متسّخة قليلاً ثم تعال معي، ادخل هذا المنزل، تمدد على هذه الأرجوحة الشبكيّة التي كانوا يضعوني فيها في أفضل فترة عشتها مدة عامين، إنها من ممتلكات أبي حتى عام ١٨٤٢. ادخل، وفي حال شممت بعض العطور على منضدة الزينة، فلا تظن أني رششتها لأستمتع برائحتها. إنها من أثر (ن) أو (ز) أو (ي) لأن كل هذه الأحرف الأولى مهّدوا لدناءتهم الأنيقة هناك. لكن إذا كنت تتمنى الحصول على شيء آخر بالإضافة للعطر، فاحتفظ بهذه الأمنية لنفسك، لأني لم أحتفظ بأي صور تذكارية أو أية رسائل أو يوميات. حتى المتعة ذاتها تلاشت وتركتني مع الأحرف الأولى لهذه الأسماء.

عشت نصف حياتي في عزلة، وبعد ذلك بفترات طويلة بدأت بحضور بعض الحفلات أو بعض المسرحيات أو محاضرة ما، لكنني قضيت معظم وقتي وحيداً. كنت أعيش، مطلقاً العنان لنفسي للتقلب بين مجريات الأيام مداً وجزراً، كنت أحياناً أقضي أيامي بحيوية، وأحياناً أخرى بفتور، في مكان ما بين الطموح والإحباط. كنت أكتب في السياسة والأدب، أرسلتُ مقالات وقصائد للصحف، وتمكنت من صنع سمعة جديرة بالاحترام، كشاعر وكشخصية جدلية. عندما تذكرت لوبو نيفيز الذي كان نائباً بالفعل، وفيرجيليا الماركيزة المستقبلية، سألت نفسي حينها فيما إذا كنت سأصبح نائباً وماركيزاً أفضل من لوبو نيفيز، أنا الذي كنت أستحق الأفضل، أفضل منه بكثير، قلتُ ذلك وأنا أنظر لأرنبة أنفي...

****

ابن عم فيرجيليا

« هل تعلم من جاء البارحة من ساو باولو؟ « قال لي لويس دوترا في إحدى المساءات. كان لويس دوترا ابن عمّ فيرجيليا وكان أيضاً شخصاً مقرّباً من الشعراء. كان شعره أجمل من شِعري وكان يستحق الحفاوة أكثر مني، لكنه كان بحاجة للحصول على استحسان البعض من أجل أن يصفق له الآخرون، ولأنه كان خجولاً فلم يطلب الدعم من أي أحد، اكتفى فقط بالاستمتاع بسماع كلمات التقدير، ثم كان يستجمع قواه من جديد ويغرق في العمل كمراهق.

مسكين لويس دوترا! كان يسرع إليّ بمجرد أن يدوّن شيئاً ويحوم حولي مترقباً أن يحصل مني على رأي أو كلمة أو إيماءة استحسان على منتجه الجديد، وأنا بدوري أحدثه عن آلاف الأشياء المختلفة مثلا الحفلة الأخيرة في حيّ كاتيت الواقع في مدينة ريو دي جانيرو، صالون للمناقشات، العربات، الأحصنة، أتحدث معه في كل شيء ما عدا شعره أو نثره. كان يرد عليّ في البداية بنشاط ثم بتراخٍ أكثر حتى يتحوّل جوهر الحديث عن مجراه. كان يفتح كتاباً ويسألني ما إذا كنت أنوي القيام بعمل جديد، وكنت أقول له نعم أو لا، وأغيّر اتجاهي ليصبح خلفي فيصاب بالإحباط بشكل كامل ويرحل حزيناً. كان هدفي من كل هذا إحباطه، تجاهله وجعله يفقد ثقته بنفسه، كنت أقوم بكل هذا وأنا أنظر إلى أرنبة أنفي...

****

أرنبة أنفي

أيها الأنف! إنك ضمير لا يمكن تأنيبه، كم كنت مفيداً لي في حياتي، هل سبق وأن تأملت عزيزي القارئ الغاية من وجود الأنف؟ لقد شرح الدكتور بانغلوس أن وظيفة الأنف تقتصر على استخدام النظارة. ويجب أن أعترف أن هذا الشرح ولمدة معيّنة كان بالنسبة لي التفسير النهائي لوجود الأنف. لكن حدث أنه وفي أحد الأيام وبينما كنت أفكّر في هذه الأمور وغيرها من الأمور الفلسفية الغامضة الأخرى، عثرت على التفسير الحقيقي والنهائي للأمر. كل ما أريده هو اتباع عادات « الدرويش»، وكما يعلم القارئ أن الدرويش يمضي ساعات طويلة من وقته يحدّق في أرنبة أنفه من أجل هدفه الوحيد في رؤية النور السماويّ. عندما يثبّت عينيه في مقدمة أنفه يفقد إحساسه بالعالم الخارجي، يصبح منتشياً وغير مرئي، مكتشفاً اللامدرك، منفصلاً عن العالم الخارجي، متلاشياً، يصبح شخصاً أثيرياً. إن الوصول إلى هذه الدرجة من السمو عند تأمل مقدمة الأنف هي الظاهرة الأكثر نبلاً في الروح، كما أن قدرة بلوغها ليست حكراً على الدرويش وحده، إنه أمر كوني. كل إنسان لديه الحاجة والقدرة ليتأمل أنفه بغية بلوغ النور السماويّ. ومثل هذا التأمّل الذي تأثيره يتبع لأنف واحد فقط، يشكل توازن المجتمعات. إذا تأملت الأنوف بعضها بعضاً فقط، لما استمرت البشرية قرنين من الزمن حيث كانت ستتلاشى منذ القبائل الأولى.

يمكنني أن أسمع اعتراضاً من القارئ على هذا الأمر، حيث سيسأل:» كيف يمكن لهذا أن يحدث، إذا لم يسبق لأحد أن رأى رجالاً يتأملون أنوفهم؟».

أيّها القارئ الأبله، هذا يثبت أنك لم تدخل أبداً إلى دماغ بائع القبعات النسائية، الذي يمرّ بجوار متجر قبّعات لتاجر منافس كان قد افتتح متجره منذ عامين، وكان للمتجر بابان والآن أصبح له أربعة أبواب. كما يعد بأن تصبح الأبواب ستة أو ثمانية. يدخل زبائن التاجر المنافس عبر الأبواب، يقارن بائع القبعات ذلك المتجر بمتجره الأقدم والذي له بابان فقط حيث يلاحظ أن الطلب قليل على قبعاته على الرغم من السعر ذاته في كلا المتجرين. من الطبيعي أن يكون أمراً مخزياً، لكنه يواصل المشي، والتركيز خافضاً نظره أو ينظر بشكل مستقيم، يفكر في أسباب نجاح الآخرين وفي سبب فشله، في حين أنه كبائع قبّعات هو أفضل بكثير مقارنة ببائع المتجر الآخر. في تلك اللحظة كانت عيناه مثبتتين على أرنبة أنفه.

والنتيجة إذن أنه ثمة قوّتان أساسيتان: قوّة الحب التي تضاعف الأجناس، وقوّة الأنف التي تجعله تابعاً للفرد وللإنجاب والتوازن.

****

زوج فيرجيليا

« إن الشخص القادم من سان باولو هي فيرجيليا ابنة عمي، زوجة لوبو نيفيز» قال لويس دوترا.

« أوه، حقاً!».

« واليوم وللمرة الأولى علمتُ شيئاً أيها المحتال....».

« ماذا هو هذا الشيء الذي علمته؟».

« علمتُ بأنّك كنت تنوي الزواج من فيرجيليا».

« لقد كانت فكرة والدي، مَن أخبرك بالأمر؟»

« هي أخبرتني بنفسها، حدثتها عنك كثيراً، فأخبرتني بكل شيء».

وفي اليوم التالي وفي شارع روا دو أوفيدور، وفي المدخل الخشبي للمطبعة، شاهدتُ امرأة رائعة على بعد مسافة مني، لقد كانت فيرجيليا. تأكدتُ أنها هي حالما اقتربت بضع خطوات مني، كانت مختلفة جداً، كما أضفى جمالها الطبيعي وتبرجها لمسة جمال لا غبار عليها. تبادلنا التحية، وتابعت طريقها باتجاه زوجها الذي كان ينتظرها في العربة المركونة على بعد خطوات.

كنتُ مذهولاً حقاً.

وبعد أسبوع التقيتها صدفة في إحدى الحفلات، أعتقد أننا تبادلنا كلمتين أو ثلاث كلمات. ولكن بعد شهر كنا في حفلة أخرى في منزل إحدى السيّدات، حيث كانت أروقة منزلها عبارة عن جوهرة من العهد الملكي الأول ولا تقلّ جمالاً عن أروقة المنازل في العهد الملكي الثاني، لكن لقاءنا أنا وفيرجيليا كان أوسع وكان أطول من المرة الماضية لأننا تبادلنا الأحاديث ورقصنا الفالس، كانت رقصة الفالس ممتعة جداً. رقصنا سوية، ولا أنكر أنه حالما ضغطت ذلك الجسد المرِن والرائع إلى جسدي شعرت بإحساس استثنائي، إحساس رجل مسلوب.

« إن الجو حار، هل نخرج إلى الشرفة؟» قالت فيرجيليا عندما انتهينا من الرّقص.

« لا، ربما تتعرضين لنزلة برد، دعينا نتوجّه إلى الغرفة الأخرى».

كان لوبو نيفيز يقبع في الغرفة الأخرى وقد أثنى كثيراً على كتاباتي السياسية، أما الأدبية فلم يدلي بدلوه لأنه لم يفهمها، لكن بالنسبة للسياسية قال إنها مقالات رائعة، فأنت ذو فكرٌ نيّر وكتابة متقنة. جاء ردي بقدر متساو من المجاملة وذهب كل منا في طريقه، راضين تماماً عن هذا اللقاء.

وبعد ثلاثة أسابيع، تلقيت دعوة منه للقاء ودّي، فلبيّت الدعوة. رحبت فيرجيليا بي بهذه الكلمات اللطيفة: » سترقص الفالس معي هذه الليلة»، والحقيقة أنني اكتسبت سمعة راقص فالس مرموق. فلا تتفاجأ عزيزي القارئ من كونها آثرت الرقص معي، فقد رقصنا مراراً وتكراراً.

وإذا كان أحد الكتب قد تسبب بوقوع فرانشيسكا في الحب، فإن رقصة الفالس هذه قد تسببت في وقوعنا في الحب. أعتقد أني أمسكت يدها في تلك الليلة بقوة وهي لم تمانع، عانقتها كما لو أننا أودعنا كل شيء طيّ النسيان، كانت كل العيون تراقبنا وتراقب الآخرين أيضاً الذين كانوا يعانقون بعضهم ويدورون في انسجام.

****

إنّها ملكي

إنها لي، قلت ذلك لنفسي حالما مررتها إلى شاب آخر في الرقص، ويجب أن أعترف أني أمضيت بقية الأمسية مع هذه الفكرة التي سكنت روحي ليس بقوّة المطرقة بل بقوّة الحفّارة التي هي أكثر إلحاحاً.

« إنها لي» قلت لنفسي عندما وصلتُ باب منزلي.

وهناك، كما لو أنه القدر أو الفرصة أو أياً يكن فقد استعدت ما غذّى عاطفتي الشغوفة بالخيال، لمحتُ شيئاً أصفر ومدوّراً كان يلمع أمامي على الأرضية، انحنيتُ والتقطته، كانت عملة ذهبية من فئة نصف دوبلون.

« إنها لي» كررتُ ذلك وابتسمت.

لم أفكّر كثيراً بأمر العملة الذهبية في تلك الليلة، لكني تذكرت الحادثة في اليوم التالي، شعرت بشيء من تأنيب الضمير، وسمعت صوتاً ما يسألني لماذا يجب أن تكون هذه القطعة النقدية اللعينة ملكي وأنا لم أرثها و لم أكتسبها لكني وجدتها في الشارع. ومن الواضح أنها ليست لي، لا بد أنها لشخص آخر، شخص أضاعها، قد يكون شخصاً فقيراً أو غنياً لكنه قد يصبح فقيراً بعد أن فقد العملة الذهبية. قد يكون عاملاً ولا يملك فلساً يطعم به زوجته وأطفاله، لكن حتى لو كان غنياً فمن واجبي أن أعيدها. كان من الأنسب إعادة قطعة النقود بأفضل طريقة بل بالطريقة الوحيدة وهي عبر الإعلان عنها أو عبر الشرطة. أرسلت رسالة إلى قائد الشرطة مرفقة بالعملة الذهبية وطلبت منه أن يعيد قطعة النقود ليد صاحبها الحقيقي بكل الوسائل المتاحة لديه.

أرسلت الرسالة وتناولتُ فطوراً هادئاً، ويمكنني القول أيضاً إنه كان فطوراً سعيداً، كنت قد رقصت كثيراً البارحة وبكل كياني لدرجة أني فقدت أنفاسي، لكن بالعودة إلى قصة النصف دوبلون فقد كان الأمر بمثابة نافذة طرقت الجانب الآخر من الأخلاق، اجتاحتني موجة من الهواء النقيّ وتنفست السيدة في داخلي بعمق. د ع ضميرك يتنفس! هذا كل ما يمكنني إخبارك به. ومع ذلك، وإن لم يكن من أجل سبب آخر، فإن قيامي بهذا الأمر كان شيئاً جميلاً لأنه عبّر عن تردد حقيقي ومشاعر روح مرهفة.

هذا ما كانت تقوله لي السيّدة التي تسكنني، قالت ذلك بطريقة صارمة ولطيفة في الوقت ذاته. هذا ما كانت تقوله لي عندما كنت متكئاً على إفريز النافذة المفتوحة.

« لقد فعلت الصواب يا كوباس، لقد تصرفت بشكل صحيح، لم يكن هذا الهواء نقياً فقط، لكنه بلسم للجروح أيضاً، إنه نسيم الجنان الأبدية، هل تريد أن ترى بأمّ عينيك ماذا فعلت يا كوباس؟

وأخرجت السيدة الطيّبة مرآة وفتحتها قبل أن أفتح عيني. لقد رأيت، رأيتُ بوضوح النصف دوبلون المدوّر الذي وجدته الليلة الفائتة، مدوّراً، لامعاً، مضاعفاً نفسه حتى أصبح عشرة، ثم أصبح ثلاثين، ثم خمسمئة، معبراً بهذه الطريقة عن المنفعة التي يمكن أن تعود عليّ في الحياة والموت بعمل بسيط كإرجاع شيء إلى أصحابه. كنت غارقاً بكل كياني متأملاً ما قمت به، كنت أنظر إلى نفسي مجدداً، وجدت نفسي إنساناً طيّباً، وربما أكون عظيماً.

هل هي مجرّد قطعة نقدية بسيطة؟ انظر ماذا يعني أن نرقص الفالس قليلاً بعد.

ولهذا اكتشفت أنا، المدعو براس كوباس، قانوناً عظيماً هو قانون النوافذ المتكافئة، وأسستُ لحقيقة أن طريقة التعويض عن نافذة مغلقة تكون بفتح نافذة أخرى، لذلك فالأخلاق قادرة على جعل الضمير يتنفّس بشكل متواصل. ربما تحتاج شيئاً مادياً أكثر لتدرك ماهية هذا الكلام، شيء كطرد، على سبيل المثال، طرد غامض. حسناً لننتقل إلى فصل الطرد الغامض.

****

الطّرد الغامض

الأمر وما فيه أنني بعد عدّة أيام وأنا في طريقي إلى شارع بوتافوغو تعثرتُ بطرد كان ملقى على الشاطئ. وليس ذلك بالضبط ما حدث فلقد كان الأمر ركلاً أكثر منه تعثّراً، رأيت رزمة ليست ضخمة ولكنها نظيفة وملفوفة بعناية وبخيط محكم. بدت وكأنها شيء ما، فكّرت بركلها لمجرد المرح فقط، وفعلاً ركلتها لكنها لم تتحرك وكانت صامدة. ألقيت نظرة حولي، كان الشاطئ مهجوراً وهناك بعض الأطفال يلعبون بعيداً و لم يلحظ أحد ما قمت به، وكان هناك صيّاد يسحب شبكته من البحر، انحنيت والتقطت الطّرد، وذهبت في طريقي. ذهبت ولكن لم يخل الأمر من بعض التردد فقد تكون هذه الحادثة هي خدعة قام بها بعض الأولاد، خطرت ببالي فكرة وهي أن آخذ هذه الرزمة التي وجدتها وأعيدها إلى الشاطئ. ولكن تحسستُ الرزمة بيدي ورفضتُ الفكرة تماماً. وبعد لحظات غيّرتُ مساري واتجهتُ إلى المنزل.

« سألقي نظرة» قلت هذا لنفسي حالما دخلتُ مكتبي، ترددت للحظة لأني كنت خجلاً على ما أعتقد. راودتني الشكوك مجدداً بأنها خدعة من أحد ما، من المؤكد أن أحداً ما لم يرني عندما أخذت الطرد عند الشاطئ ولكن لديّ شرير صغير في داخلي كان سيهمس وسيغمز وسينخر في عقلي وسيسخر ويحدث جلبة ويركلني بين الحين والآخر وسيقوم بأعمال شيطانية إذا رآني أفتح الطرد حتى لو كان بداخله دزّينة. مناديل قديمة رثّة أو دزينتين من القرع المتعفّن. لقد فات الأوان لهذا الكلام وأصبح فضولي شديداً مثلك أيها القارئ، فتحت الحزمة ووجدت وعدّيت وأعدتُ العدّ من جديد و لم أجد سوى خمسة كونتوسات، لا شيء غيرها، ربما عشرة ميليريسات إضافية، خمسة كونتوسات ورقيّة بحالة جيّدة، والبعض منها معدنيّ، جميعها نظيف ومرتّب جيداً، وهذا شيء نادر الحصول. أغلقت الطرد من جديد. وعلى العشاء بدا لي أن أحد الصبيّة الزنوج كان يتحدّث مع صديقه الآخر ويتبادلون النظرات فيما بينهم، هل كانوا يتجسسون علي؟ سألتهم بشكل مباشر واستخلصت أنهم لا يفعلون ذلك.

بعد العشاء عُدت إلى مكتبي مجدداً، فحصت المال وسخرتُ من نفسي ومن مخاوفي الطفولية فيما يتعلّق بالخمسة كونتوسات. خرجت حتى لا أفكّر في الموضوع أكثر من هذا. ذهبت إلى لوبو نيفيز تلك الليلة بعد أن أصّر عليّ بأن لا أفوّت ضيافة زوجته لي، صادفت هناك قائد الشرطة وقد تعرفت عليه وهو بدوره تذكّر مباشرة تلك الرسالة ونصف الدبلون الذي أرسلته له منذ بضعة أيام وتحدث عن الأمر علانية أمام فيرجيليا ولوبو.

بدت فرجيليا وكأنها تستمتع بما سمعته من قائد الشرطة عمّا قمتُ به. وسرد كل شخص من الموجودين حكاية مماثلة، وقد استمعتُ إليهم بصبر نافذ مثل امرأة مجنونة. حاولت في الليلة التالية وطوال ذلك الأسبوع قدر المستطاع ألا أفكر كثيراً بتلك الكونتوسات الخمس، ويجب أن أعترف لكم بأني أودعتها بأمان في درج مكتبي.

أحببتُ التحدث في كل شيء ما عدا المال، خاصة المال الذي وجدته، ليست جريمة أن تجد مبلغاً من المال، على العكس إنه شيء مفرح، ودليل حظ جيّد وربما قد يكون إشارة إلهية. لا يمكن أن يكون شيئاً غير هذا، فلا يمكن أن تضيع خمسة كونتوسات كما يضيع كيس تبغ. فمن يحمل خمس كونتوسات سيحرسهم بكل جوارحه وأحاسيسه ويبقى يراقبهم، ولا يزيح نظره أو يديه أو تفكيره عنهم، وأن يفقدهم بهذه الحماقة على الشاطئ فلا بدّ أنّ.....

على كل حال إيجادهم ليس جريمة. ليس جريمة وليس قلة شرف، وليس بشيء يشوّه سمعة الإنسان، كانت هذه النقود شيئاً مكتشفاً مثل ضربة حظ، مثل الجائزة الكبرى، مثل رهان فائز

على الخيول، مثل المراهنة في لعبة قمار نزيهة، ويمكن أن أقول أني أستحق هذا لأني لم أقلل يوماً من قيمة المكافآت الإلهية. قلت لنفسي بعد ثلاثة أسابيع أن هذه الكونتوسات الخمس يجب أن تصرف في عمل خيري مثل أن تقدّم لفتاة فقيرة كمهر لها، أو شيء كهذا، سوف أرى! «...

وفي نفس اليوم أخذت النقود إلى مصرف البرازيل، تم استقبالي هناك بلطافة بسبب موضوع نصف الدوبلون الذي كنت قد قدّمته وانتشر خبر الدوبلون بين جميع معارفي، لقد تصرّفت بانزعاج لأن الأمر لا يستحق كل هذه الجلبة، ثم أشادوا بتواضعي، وعندما كنت غاضباً قالوا لي إن هذا الاحتفاء لم يكن سوى شيء رائع.

لم تتذكر فيرجيليا كثيراً نصف الدوبلون، لأن تركيزها كان منكباً عليّ، على عينيّ وعلى حياتي وأفكاري، هذا ما أفصحت به وكان ذلك صحيحاً بالفعل.

هناك بعض النباتات التي تولد وتكبر بسرعة، والبعض الآخر يتأخّر في النمو ويبقى قزماً، وهكذا كان حبنا، كالنبات في الحالة الأولى، لقد انفجر صعوداً بدفع قويّ وتغذية كبيرة من النسغ وذلك في فترة قصيرة فكانت النبتة الأكثر امتداداً والأكثر اخضراراً والمخلوق الأكثر خصوبة في الغابة. لا يمكنني إخباركم على وجه التحديد عدد الأيام التي استغرقها هذا النمو، لكن أذكر في تلك الليلة بالتحديد الوردة أو القبلة إذا أردتم تسميتها هكذا، القبلة التي بدأت بالتبرعم، قبّلتني فيرجيليا وجعلتني أرتجف– بشكل بائس– ارتجفتُ خائفاً، لأنها كانت قبلة عند بوّابة الفناء. لقد جمعتنا تلك القبلة الأولى، كانت خاطفة كلحظة سريعة، وكان حبّنا متقدماً جداً. كانت هذه القبلة تمهيداً لحياة تملؤها الأفراح، المخاوف، الندم، الملذّات التي انتهت على نحو مؤلم، المحن التي قادتنا لنكون معاً في السرّاء– إلّا أن النفاق الذي تواتر لمدة طويلة كان الشيء الوحيد الذي كبح جماح عاطفتنا– حياة من الإثارة والغضب، اليأس والغيرة، حيث كانت ساعة واحدة من هذه المشاعر كافية وأكثر من كافية لنعيشها، لكن هناك ساعة أخرى قادمة لتبتلع كل شيء مع بعضه البعض، تاركة على السطح هيجاناً يطفو مع كل البقايا، وبقايا البقايا من مشاعر البغض والتخمة. وهذا هو التمهيد الذي تحدثت عنه.

****

ساعة جدّي

غادرتُ وطعم القبلة في فمي، لم أتمكن من النوم، استلقيت على سريري، لكن، بالطبع هذا لا يعني شيئاً. أصغيتُ لدقّات ساعات الليل، كانت دقّات ساعة جدي تسبب لي الاضطراب كثيراً في الأوقات التي يجافيني النوم فيها. بدا الصوت الحزين لدقّات الساعة بطيئاً وذابلاً، كأنه يريد القول إنه مع كل نغمة أخسر لحظة من الحياة. ثم تخيّلتُ عفريتاً عجوزاً يقبع بين كيسين، أحدهما للحياة والآخر للموت، يُخرج العملات النقدية من جعبة الحياة ويودعها في جعبة الموت، ويعدّهم بهذه الطريقة:

« واحدة بعد...»

« واحدة بعد...»

« وأيضاً واحدة....»

« وأيضاً واحدة.....»

لكن أغرب ما في الأمر أنه في حال توقفت الساعة كنت أعيد تشغيلها حتى لا تتوقف دقّاتها، وحتى أتمكن من عدّ كل لحظة أفقدها من حياتي. هناك اختراعات تحوّلت أو بلغت نهايتها، كما أن مؤسسات بأكملها تموت. إلّا أن الساعة آلة دقيقة ومستمرة. وحالما يودّع آخر رجل البرد والشمس التي دفأته، سيكون ثمة ساعة في جيبه ليعلم متى تحين منيّته.

في تلك الليلة لم أعانِ من ذلك الشعور بالضجر الكئيب لكن تملكني شعور آخر، شعور بالسرور. تدافعت الأخيلة في رأسي، واحداً تلو الآخر، كالنساء الورعات اللاتي يتدافعن للأمام بغية إلقاء نظرة على الملاك المغنّي في المواكب. لم أسمع صوت اللحظات الراحلة بل كنت أسمع صوت الدقائق الآتية. ومنذ ذلك الوقت وصاعداً لم أعد أسمع أي شيء على الإطلاق، لأن تفكيري الماكر واللعوب، قفز خارج النافذة ورفرف بجناحيه باتجاه منزل فيرجيليا. وهناك التقى مع أفكار فيرجيليا على إفريز النافذة. لقد تبادلا التحية، وبقيا يتبادلان الحديث، كنا نتقلّب في السرير، ربما كنا باردين، وبحاجة للراحة....، وكشخصين كسولين يكرران الحوار الأزلي لآدم وحواء.

****

الحوار الأزلي لآدم وحواء

براس كوباس

.....؟

فيرجيليا

.....؟

براس كوباس

.....؟

فيرجيليا

.....؟

براس كوباس

.....؟

فيرجيليا

.....؟

براس كوباس

.....؟

****

ولكن ارم كل شيء بعيداً عزيزي القارئ! من يمكنه أن يشرح لي سبب هذا التغيير؟ بقينا أصدقاء في الوقت نفسه، ناقشنا أمر الزواج، انفصلنا بهدوء دون ألم لأنه لم يكن هناك عواطف أو حب بيننا، لقد اشتعل الحقد بصدري قليلاً فقط ولا شيء غير هذا. مضت السنون ورأيتها مجدداً، رقصنا الفالس لثلاث أو أربع مرّات، وها نحن نعشق بعضنا حدّ الجنون. صحيح أن جمال فيرجيليا بلغ درجة عالية من الكمال ولكن كلانا لم يتغيّر من الداخل وأنا من ناحيتي لم أصبح أكثر وسامة أو أكثر حيوية. من يستطيع أن يشرح لي سبب هذا التغيير؟

لا يمكن أن يكون السبب أي شيء سوى أنها اللحظة المناسبة التي حانت، لأنه لو لم نكن منذ المرة الأولى للقائنا ساذجين في الحب، لكنا تعاملنا مع الحب بشكل مختلف كلياً.

لن يكون هناك إمكانية لوجود الحب دون وجود مادة مناسبة لاستيعابه. أنا بنفسي توصلت لذلك الشّرح والتفسير بعد عامين من تلك القبلة في أحد الأيام عندما كانت فيرجيليا تشتكي لي من ملاحقة رجل أنيق جداً لها، رجل استمر بمغازلتها رغماً عنها، يا له من شخص مزعج! كم هو مضجر! قالت فيرجيليا وهي غاضبة. ارتعدتُ وحدّقت بها ورأيت أن ذلك الغضب كان صادقاً، وأنا بدوري غضبت حيث جعلني كلامها أعبسُ للحظة وبنفس طريقتها، ثم تداركت هذا الغضب وهذا التحوّل في شخصيتي وتحوّلت من شخص لجوج إلى شخص يتصرّف بشكل مناسب.

****

مكتبة
t.me/soramnqraa

القدر

نعم يا سيّدي كنّا عشاقاً. بعدما أصبحت كل تلك القوانين الاجتماعية تحرّم عشقنا، أصبحنا عشّاقاً بحق. وجدنا أنفسنا مشدودين جداً، مثل روحين صادفهما الشاعر في قصيدة رحلة تطهير الروح، كما في البيت التالي:

الأقران كالثيران الذين يذهبون إلى النير

وأنا لست على صواب بمقارنة أنفسنا بالثيران، لأننا كنا نوع آخر من الحيوانات أقل بلادة وأكثر احتيالاً وشهوانية. كنا نمضي دون أن نعلم إلى أين نحن ذاهبون وعلى أي طريق غامض نعبر، وكان هذا الأمر بمثابة مشكلة أخافتني لعدة أسابيع ولكنني سلّمت أمري للقدر. أيّها القدر البائس، أين ستمضي بنا؟ أيها المشرف على العلاقات البشرية. ربما ينمو لك جلد جديد ووجه مختلف، أساليب مختلفة واسم جديد، وحتى من الممكن أن.... نسيت أين كنت....آه نعم... عند الطرق الغامضة. لقد قلت لنفسي الآن قد قُضيت مشيئة الله، وأن الحب هو قدرنا، وإذا لم يكن كذلك فكيف يمكننا شرح قصة الفالس وكل ما مضى! كانت فيرجيليا تعتقد نفس الشيء. وفي أحد الأيام بعدما اعترفت لي بأنها تشعر أحياناً بالندم وأخبرتها حينها بأنها في حال شعرت بالندم فهذا يعني أنها لم تكن تحبني حقاً. فعانقتني بيديها الرائعتين هامسة: » أنا أحبك، إنها مشيئة السماء».

« لقد أحببتك، إنها مشيئة السماء». و لم تكن تلك كلمات عبثية فلقد كانت فيرجيليا نوعاً ما متدينة لكنها لم تكن تذهب إلى القداس في أيام الآحاد وهذا صحيح وأعتقد أيضاً أنها لم تكن تذهب إلى الكنيسة إلا في أيام العيد أو عندما يكون منبر الواعظ شاغراً في مكان ما لكنها كانت تصلي بخشوع كل ليلة وعلى الأقل قبل النوم، كانت تخاف من الرعد وعندما تسمعه تقوم بتغطية أذنيها وتغمغم صلواتها شفهياً. كان هناك في غرفتها طاولة للزينة مصنوعة من خشب الجاكارندة بارتفاع ثلاثة أقدام ويوجد فيها عدّة صور. لم تذكر فيرجيليا هذه التفاصيل لأحد من أصدقائها أبداً بل على العكس كانت تتحدث باختصار مثل هؤلاء الأشخاص المتدينين المتعصبين. كنت أشكّ أحياناً أن هناك ما يزعجها من ناحية الدين، حيث كان يبدو معتقدها الديني كالملابس الداخلية الخفية والمريحة لكن من الواضح أنني كنت مخطئاً.

****

الثقة

جعلني لوبو نيفيز أشعر بالخوف في البداية، فهو لم يتوقف عن إخباري كم أحبّ زوجته. كان يعتقد أن فيرجيليا هي الكمال بعينه وكأنها مزيج من الصفات الرقيقة والصلبة، امرأة محبة، أنيقة، بسيطة ومثالية، و لم تتوقف هذه الثقة عند هذا الحد.

تحوّل شكّهُ الذي كان فيما مضى شقاً صغيراً، إلى باب مفتوح على مصراعيه. حيث اعترف لي في أحد الأيام أن دودة حزينة تنخر عظامه. كان يحتاج لبعض الدعم وأنا قمت بدعم معنوياته حيث أخبرته العديد من الأشياء الجميلة التي استمع إليها بحماس مؤمن لرغبة لا يريدها أن تنتهي بالموت. أدركت أن طموحه كان مثل طائر منهك لم يعد قادراً على نفض جناحيه والطيران. بعد عدة أيام أخبرني عن كل ما يقلقه ويزعجه، عن المرارات التي تجرعها، أحقاده، مكائده، خيانته، اهتماماته، غروره. من الواضح أنه كان هناك أزمة كآبة وحاولت أن أحاربها.

« أعرف ما أتحدث عنه» جاوبني بحزن، ثم تابع:» لا يمكنك أن تتخيّل ما الذي عانيته. لقد اتجهت نحو السياسة لأنها كانت مرغوبة من قبل الجميع: العائلة، الطموح، والقليل من الغرور، يمكنك القول أنني أمتلك جميع الصفات والحوافز التي توصل المرء للحياة العامة. كل ما كان ينقصني هو الاهتمام بطريقة مختلفة. كنت قد رأيت المسرح من جهة الجمهور وأقسم أنه كان جميلاً. مجموعات رائعة، حياة، حركة متقنة وعظمة في الأداء. لقد وقّعت العقد وأعطوني دوراً بأن.....ولكن لماذا أضجرك بكل هذه التفاصيل؟ دعني أحتفظ بمصائبي لنفسي. صدقني لقد قضيت ساعات، أياماً...ليس هناك مشاعر ثابتة وليس هناك امتنان، ليس هناك أي شيء، أي شيء...».

لقد صمتَ تماماً، كان غارقا بالتفكير، عيناه شاردتان، ولا يبدو أنه يسمع شيئاً سوى صدى أفكاره، وبعد عدّة لحظات وقف ومدّ يده لي قائلاً:» لا بدّ أنك تضحك عليّ ولكن سامحني لأنني سرحت بالحديث، تشغلني بعض القضايا وكأنها تأكل من روحي». وضحك ضحكة حزينة، كئيبة، ثم طلب مني ألّا أخبر أحداً بما جرى بيننا من حديث.

أجبته بأنه لم يجرِ بيننا شيء أبداً. جاء إلينا نائبان وزعيم منطقة ما، وألقى لوبو نيفيز التحية عليهما بحرارة وبرحابة صدر. كانت التحية مصطنعة نوعاً ما في البداية ولكنها أصبحت طبيعية فيما بعد. ولا يمكن أن يخطر لأحد أن يقول بعد مضي نصف ساعة أن لوبو ليس الأكثر سعادة بينهم، فلقد ضحك ومزح وتسامر وكان الجميع يضحكون.

****

يجب أن تكون السياسة نبيذاً منعشاً، قلت ذلك لنفسي حالما غادرت منزل لوبو نيفز، وتابعت سيري حتى بلغت شارع روا دوز باربونوز، شاهدت أحد الوزراء يستقل عربة هناك، كان زميلاً قديماً منذ أيام الدراسة، لوّحنا لبعضنا بمودّة، ومضت العربة في طريقها وأنا تابعت سيري.

« لماذا لم أصبح وزيراً؟».

لمعت تلك الفكرة وتضخمت- كثوب فضفاض- كما قال الأب برنارنديز، بدأت تلك الفكرة تدور في دوّامة فكري واستسلمت لها، وقفت أنظر إليها فوجدتها مسلية. لم أعد أفكر في الحزن الذي يملأ لوبو نيفيز، لقد شعرت بشيء ما يجذبني نحو الهاوية، وتذكرت زميل الدراسة، كم لعبنا على التلال، تذكرت لهونا وشقاوتنا، تذكرت كيف كان ولداً وكيف أصبح رجلاً وسألت نفسي لماذا لم أصبح مثله؟ كنت في تلك اللحظة أنعطف باتجاه متنزّه باسيو بابليكو وبدا كل شيء وكأنه يردد السؤال ذاته: لماذا لم تصبح وزيراً يا كوباس؟ لماذا لم تصبح حاكم ولاية يا كوباس؟ أنعشت كياني بإحساس لذيذ هذه الكلمات التي تداعت إلى سمعي، دخلت المتنزه. جلست على مقعد، أمحصّ تلك الفكرة جيداً، أقلبها في عقلي. وكم كانت ستستمتع فيرجينيا بها لو أنها سمعتها! وبعد عدة لحظات، رأيت وجهاً يبدو مألوفاً لي، اقترب مني، كنت أعرفه من قبل.

تخيل رجلاً يتراوح عمره بين الثمانية والثلاثين والأربعين، طويل، رشيق، وشاحب. كانت ملابسه، باستثناء نمطهم، تبدو وكأنها هاربة من الأسر النابليوني. كانت قبعته وكأنها من عصر جيسلر، تخيل معطفاً فضفاضاً على الجسد، أو بالمعنى الحرفي، على عظام ذلك الشخص. لقد اختفت موضة الشراشيب عند أطراف الملابس منذ وقت ليس ببعيد، ومن أصل ثمانية أزرار، بقي خمسة، وكان ثمة رقعتان كبيرتان على الركبتين للسروال البني المثقوب، في حين أن أطراف السروال قد تجعدّت بفعل كعبيّ الحذاء، الذي مزّقه دون شفقة أو رحمة. وكان هناك ربطة عنق حول رقبته بلونين باهتين ونهاية مفتوحة، ولا بدّ أنها تحيط بعنقه منذ أسبوع. وأعتقد أنه كان يرتدي صدرية حريرية داكنة، ممزقة في أماكن عديدة وبدون أزرار.

« أتحدّاك أن تتذكرني أيها الطبيب كوباس، يا صديقي الطيّب» قال لي.

« لم أذكرك من أنت...».

« أنا بوربا، كوينكاس بوربا».

تراجعت خطوة إلى الوراء والدهشة تملأ وجهي، لو أني أملك موهبة خطابية مثل بوسيت أو فييرا لأصف هذا الأسى. لقد كان كوينكاس بوربا، الولد الظريف، زميل الدراسة منذ أيام الطفولة، الذكي جداً والثري أيضاً. كوينكاس بوربا، لا مستحيل. لا يعقل أن يكون هو. لم أصدق أن هذه الهيئة القذرة، وهذه اللحية التي كساها الأبيض، هذا العجوز بملابسه الرثّة، هذا الشخص المفلس والمدمّر هو كوينكاس بوربا. لكنه كان هو. بقي في عينيه شيء من أثر تلك الأيام، و لم تفقد ابتسامته طابعها الساخر التي لطالما ميّزته. في هذه الأثناء كان يقاوم دهشتي، أبعدتُ نظري عنه بعد برهة. لكن إذا كانت هذه الهيئة قد سببت لي النفور، فإن المقارنة بين حاله في الماضي والآن قد أحزنتني.

« ليس بوسعي قول شيء لك، يمكنك أن تخمّن كل شيء، حياة بأكملها من البؤس، والمحن، والشقاء. هل تذكر مسرحياتنا عندما لعبت أنا دور الملك، يا له من فشل ذريع، انتهى بي إلى متسوّل! ».

رفع يده اليمنى وأكتافه بطريقة تنمّ عن اللامبالاة وبدا وكأنه مستسلم لصفعات الحظ العاثر، ولا أعلم ربما يكون سعيداً بذلك.

سعيد بذلك، من المؤكّد أنه بلا إحساس. لم تظهر عليه أيّ من سمات التسليم لا بالدين المسيحي ولا بالفكر الفلسفي. يبدو أن البؤس قد قسى على روحه حتى أفقد هذا الجسد جميع مشاعره. كان يمشي ويجرّ أسماله البالية خلفه كما كان يفعل سابقاً عندما كان يجرّ ملابسه الأرجوانية الملكية بتثاقل جميل.

قلت له: » انظر إليّ..، قد أكون قادراً على عمل شيء من أجلك».

تخللت شفاهه ابتسامة عريضة وقال لي: » لست أول شخص يعدني بعمل شيء من أجلي ولا أعلم إن كنت الأخير الذي لن يقدّم أي شيء لي، إذن ما الفائدة؟ أنا لا أريد شيئاً ما عدا النقود، نعم أريد مالاً من أجل الطعام لأنه لا المطاعم ولا محل الخضروات تقرضني طعاماً بالدين. لا شيء، فقط قطعتا نقود من فئة الفينتنز ثمن كعكة مينيهوت، حتى بائع الخضروات اللعين لن يثق بك... إنه الجحيم، كنت أقول يا صديقي إنّه جحيم، جحيم شيطاني، شيطاني بالمطلق! هل تصدق أني لم أتناول أي طعام اليوم؟».

« أوه، لا ».

« لقد غادرت منزلي باكراً، هل تعلم أين أسكن؟ على مدخل الطابق الثالث لدرج بناء ساو فرانشيسكو، حيث إلى اليسار هناك مجال ليصعد أي شخص للطابق الأعلى. لا تحتاج أن تطرق الباب، إنه منزل منعش لأني أقيم في العراء، منعش للغاية، حسناً، لقد غادرت باكراً و لم أتناول أي طعام».

أخرجت محفظتي، اخترتُ ورقة نقدية واحدة من الفئة الميليريس، كانت الأقل نظافة من بين جميع أوراقي النقدية، وأعطيتها له. أخذها مني بعينين تلمعان جشعاً. رفع الورقة النقدية في الهواء وتباهى بها بحماس.

قهقه قائلاً:» كم يقهرني مظهر هذه الورقة». ثم قبّلها مظهراً عاطفة كبيرة، جعلني هذا التصرف المزعج أشعر بمشاعر مختلطة بين الاشمئزاز والشفقة. لقد كان حاذقاً وأدرك الأمر، لذلك تحول إلى شخص أكثر جدية والتمس العذر مني على فرحه المفرط، قائلاً إنه فرح رجل فقير، رجل لم يكن قد رأى هذه الورقة النقدية منذ سنوات عديدة.

« حسناً، إنها في قبضة يدك الآن لتراها قدر ما تشاء».

« نعم» قال ذلك بسرعة مندفعاً نحوي.

« عليك أن تعمل» أنهيت كلامي بهذه الجملة.

بدا عليه الاستياء من كلامي وغرق في صمت للحظات ثم قال لي بكل ثقة إنه لا يريد أن يعمل. لقد شعرتُ بالاشمئزاز من هذه الدناءة التي كانت مضحكة جداً ومُحزنة جداً. تهيأت للمغادرة بعد ذلك.

فقال لي:» لا تغادر حتى أعلمك فلسفتي في البؤس»، وتقدمني بخطوات.

****

العناق

لقد افترضت بأن هذا الشرير المسكين كان رجلاً مجنوناً وكنت على وشك المغادرة عندما سحبني بقوة من معصمي وحدّق قليلاً في خاتم الألماس الذي كان في إصبعي، شعرت برعشة الجشع في يده، إنها شهوة التملّك.

« إنه رائع» قال لي.

ثم بدأ بالدوران حولي، كان يتفحصّني عن قرب.

« إنك تهتم بنفسك جيداً» قال لي، « مجوهرات، أناقة، ملابس جميلة، قارن فقط بين حذاءك والحذاء الذي في قدميّ، ما الفرق بينهما! لا يمكن أن تقارن بينهما، لهذا قلتُ لك إنّك تعتني بنفسك كثيراً، ماذا عن عشيقاتك؟ كيف هو الحال معهن؟ هل تزوجت؟»

« لا»

« ولا أنا»

« أنا أعيش في.....»

« لا أريد أن أعرف أين تعيش» قال كوينكاس بوربا، « وفي حال التقينا مجدداً أريد أن تعطيني ورقة نقدية أخرى لكن لا تسمح لي برؤيتك في المنزل، إنه نوع من الكبرياء، وداعاً الآن، يبدو أنه قد نفد صبرك».

« إلى اللقاء».

« وشكرا لك، لكن دعني أشكرك بحرارة أكثر».

قال ذلك وعانقني بحركة خاطفة لم أتمكن من تفاديها.

وأخيراً، ذهب كل منّا في حال سبيله، أسرعتُ في خطاي، شعرتُ بالانزعاج والضيق وقد تجعّد قميصي بفعل عناقه. لم أتمكن من إظهار الجانب اللطيف من شخصيتي أكثر من ذلك، فقد طغى الجانب الآخر، كنت أفضّل لو أنه حفظ ماء وجهه رغم بؤسه. ثم إنني لم أتمكن من مقارنة هذا الرجل في وضعه الحالي بالشخص الذي كنت أعرفه في طفولتي، ازداد حزني عندما واجهت الفجوة التي تفصل بين أحلامي في وقت ما وبين الواقع في وقت آخر...

« لذلك، إلى اللقاء، هيا لنتناول العشاء» قلت لنفسي. وضعتُ يدي في صدريتي و لم أجد ساعتي، إنها الخيبة الأخيرة، لقد سرقها بوربا أثناء العناق.

****

مشروع

تناولت عشائي في حزن، لم يكن فقدان الساعة هو ما أزعجني، بل تخيّلت الطريقة التي خطط بها للسرقة وتذكرت أيام الطفولة، وعادت المقارنة إلى ذهني مجدداً وكانت النهاية بـ... بدءاً من ذلك المأزق في فصل « تيجوكا» بدأت تتفتّح في داخلي تلك الوردة الصفراء الكئيبة ثم تناولت العشاء بسرعة للبدء بفصل فيرجيليا. كانت فيرجيليا الحاضر الذي أردتُ اللجوء إليه لأستطيع الهرب من أعباء الماضي، لأن اللقاء بكوينكاس بوربا أعادني إلى الماضي وبالفعل كنت قد دخلته، لكنه كان ماضياً محطّماً، بائساً، حقيراً وسارقاً.

غادرت المنزل لكن الوقت كان مبكراً، وفي حال توجهت إليهم الآن فسأجدهم ما يزالون حول المائدة. فكرت في كوينكاس بوربا مجدداً وشعرت برغبة في الذهاب مجدداً إلى منتزه باسيو بابليكو لأرى إن كنت سأجده. عادت إليّ فكرة إصلاح أمره وكأنها حاجة مُلحّة. وبالفعل، ذهبت لكن لم أتمكّن من إيجاده، سألت الحارس الذي أخبرني بدوره أن ذلك الرجل يأتي بين الحين والآخر.

« في أي وقت يأتي؟»

« ليس لديه وقت محدد».

لم يكن مستحيلاً بالنسبة لي أن أصادفه في وقت آخر. قطعت عهداً على نفسي بأن أعود مجدداً، كانت تملأ قلبي فكرة إصلاح حاله وإعادته إلى العمل واستعادة احترامه لنفسه. بدأت أشعر بشعور مريح، شيء من رفع المعنويات، والإعجاب بنفسي، وهنا بدأ يخيّم الليل فذهبت للقاء فيرجيليا.

****

الوسادة

ذهبتُ للقاء فيرجيليا، لقد نسيتُ بسرعة كوينكاس بوربا. كانت فيرجيليا بمثابة وسادة لروحي. وسادة ناعمة، دافئة، معطرة ومطرزة بقماش الكامبري وبشريطة. كانت معتادة أن تستريح هناك بعيداً عن كل المشاعر المتعبة، تلك التي كانت مزعجة حقاً أو تلك التي كانت مؤلمة، وعندما عادت الأمور إلى نصابها الصحيح بات الوقت مناسباً لظهور فيرجيليا في حياتي. لا يمكن أن يكون السبب أيّ شيء آخر، كانت خمس دقائق كافية لنسيان كوينكاس بوربا تماماً، خمس دقائق من التأمل المتبادل، والأيدي المشبوكة معاً، خمس دقائق وقبلة، تلاشت ذكرى كوينكاس بوربا، وعادت جنيّة الحياة القادمة من الماضي. ماذا يهمني إذا كنت موجودًا أم لا، أو إذا كنت تزعج أعين الآخرين، بما أني أملكُ عشر بوصات مربعة من وسادة إلهية أغلق عليها عينيّ وأنام؟

****

دعينا نهرب بعيداً!

للأسف، الوسادة ليست دائماً للنوم. بعد مضي ثلاثة أيام، ذهبت إلى فيرجيليا، كانت الساعة الرابعة بعد الظهر، وجدتها حزينة وخائفة، لقد رفضت أن تخبرني بما حدث، لكن بما أني أصررتُ عليها كثيرًا قالت:

«أعتقد أن لوبو يشتبه في شيء ما. لقد لاحظت بعض الأشياء المضحكة التي يقوم بها مؤخرًا. لا أعرف.. لقد عاملني بشكل جيّد، لا شك في ذلك، لكن مظهره لا يوحي بهذا. لم أنم جيداً، لقد استيقظت الليلة الماضية مرعوبة، كنت أحلم أنه كان سيقتلني، ربما كان مجرد وهم، لكنني أعتقد أنه يشكّ في أمرنا...». قمت بتهدئتها قدر الإمكان وأخبرتها أنه ربما يعاني من بعض الهموم السياسية. وافقتني فيرجيليا أن الأمر قد يكون كذلك، لكنها كانت ما تزال شديدة التوتر والعصبية، كنا في غرفة المعيشة، وكما حدث في الفناء، تبادلنا قبلتنا الأولى، تسلل النسيم عبر النافذة المفتوحة، محرّكاً الستائر قليلاً، جلستُ أحدق في الستائر شارداً. بدأت أتخيّل أشياء كثيرة يمكنني القيام بها في الفسحة التي أمامي كإنشاء منزل خاص بنا، لا يوجد فيه أي لوبو نيفيز أو أي زواج أو أي أخلاق أو أي رابط آخر يقف في وجه رغبتنا. تملّكتني هذه الأفكار حدّ الثمالة، مع الرغبة في القضاء على العالم والأخلاق والزوج، كل ما كان علينا فعله هو الذهاب إلى ذلك المسكن الملائكي.

«فيرجيليا»، قلت لها، «لديّ اقتراح لك.»

«ما هو؟»

«هل تحبينني؟»

«يا! " تنهدت، ووضعت ذراعيها حول رقبتي.

لقد أحبّتني فيرجيليا بجنون. كانت الإجابة واضحة في رغبتها الكبيرة، حيث أبقت ذراعيها حول رقبتي، صامتة، تتنفس بعمق، وأنا أحدّق بعينيها الكبيرتين الجميلتين، اللتين أظهرتا تعبيراً متفرداً تجلّى في بريق دمعتها. بقيتُ أراقبهما، وأنظر بحبٍ إلى فمها، كان بارداً كلسعة برد وقت الفجر، ونهماً كالموت. تحلّت فيرجيليا بجمال عظيم الآنَ، جمال لم يكن موجودًا قبل زواجها. كانت تشبه الشخصيات المنحوتة من رخام البنتيليك، مصنوعة بنبل، متحررة ونقية، جمالها هادئ، لكنها لم تكن مثل التماثيل لا مبالية وباردة، على العكس من ذلك، فقد كان لديها نظرة طبيعية، ويمكن القول إنها في الواقع لخّصت كل الحب، لخصته بشكل خاص في ذلك الحين حيث كانت تعبّر بصمت عن كل ما يمكن أن تقوله العين البشرية.

لم يكن الوقت في صالحنا، لذلك أمسكت يديها من المعصمين، ونظرت إليها، وسألتها عما إذا كانت لديها الشجاعة.

« من أجل ماذا؟"

" من أجل الهرب، سنذهب إلى مكان أكثر راحة لنا، منزل صغير أو كبير، كما ترغبين، في الريف أو في المدينة، أو في أوروبا، أينما تريدين، حيث لا يمكن لأحد أن يزعجنا ولن يكون هناك أي خطر علينا، حيث يمكننا العيش من أجل بعضنا بعضاً. دعينا نهرب بعيداً، عاجلاً أم آجلاً، سوف يكتشف لوبو شيئاً ما وسوف أخسرك لأنني سأقتله، أقسم بذلك ".

توقفتُ عن الكلام، أصبحت فيرجيليا شاحبة جداً، أخفضت ذراعيها وجلست على الأريكة لعدّة دقائق دون أن تقول شيئاً.

لا أعرف ما إذا كانت مترددة في اختيارها أو مرعوبة من فكرة اكتشاف أمرنا والموت. كررتُ ذلك لها مُصراً على الاقتراح، كاشفاً أمامها كل مزايا الحياة بمفردنا سوية، وبدون غيرة أو رعب أو ألم، استمعت لي بصمت، ثم قالت:

"قد لا نتمكن من الهرب، سوف يلحق بي ويقتلني في الحالتين".

أكدّت لها أن الأمر لن يكون كذلك. كان العالم شاسعاً بالنسبة لي وكان لدي وسائل للعيش أينما وجدتُ هواء نقياً وأشعة شمس كافية. لن يصل إلى هناك أبداً. وحدها المشاعر العظيمة قادرة على دفعنا للقيام بأعمال عظيمة، وهو لم يكن يحبّها كفاية ليكون قادراً على العثور عليها في حال هربنا إلى مكان بعيد. قامت فيرجيليا بإيماءة تنمّ عن رعبها وربما يكون سخطاً وتمتمت قائلة إن زوجها قد أحبّها كثيراً.

" ربما، ربما أحبك حقاً..." أجبتها.

اتّجهتُ إلى النافذة وبدأتُ في نقر أصابعي عليها، نادتني فيرجيليا وبقيت في مكاني تأكلني الغيرة، وتعتريني رغبة في خنق زوجها إذا ما تمكنت من ذلك. في تلك اللحظة تماماً ظهر لوبو نيفيز في الفناء. لا تجفلي هكذا عزيزتي القارئة الشاحبة، استرخي فلن أستهلّ هذه الصفحة بنقطة دم.

ظهر لوبو في الفناء وعلى الحال لوّحتُ له بطريقة وديّة مع كلمة ترحيب لطيفة. غادرت فيرجيليا الغرفة على عجل، ودخل لوبو بعد ثلاث دقائق.

"هل مضى على وجودك هنا فترة طويلة؟» سألني.

«لا.»

دخل بطريقة رصينة وبشكل بدا عليه القلق، وعيناه مفتوحتان على مصراعيهما بذهول، فقد كانت من عاداته، لكنه عدّل من نظرته على الفور إلى تعبير حقيقي من البهجة عندما شاهد ابنه، السيد الصغير، والمحامي المستقبلي الذي تحدّثت عنه سابقاً. أخذه بين ذراعيه ورفعه في الهواء وقبّله عدّة مرات.

ابتعدتُ عنهما لأني كنت أكره الطفل، وعادت فيرجيليا إلى الغرفة.

" آه!" وقال لوبو نيفيز بنفس عميق وهو يجلس على الأريكة.

" هل أنتَ متعب؟" سألته.

"كثيراً، لقد قمت بخطوات مفاجئة؛ واحدة في مجلس النوّاب، وأخرى في الشارع. وما زال أمامي خطوة قادمة" أضاف وهو ينظر إلى زوجته.

"ما هي؟" سألت فيرجيليا.

" ممم.... خمّني"

جلستْ فيرجيليا بجانبه وأمسكتْ إحدى يديه وشدّتْ ربطة عنقه، وسألته مرة أخرى ما الخطب.

" حجزت مقصورة في الأوبرا، لا شيء آخر " قال لوبو.

لـ" كانديايني؟" سألت فيرجيليا

نعم لـ " كانديايني"

وصفقت فيرجيليا بيديها، نهضت وأعطت ابنها قبلة في الهواء بفرحة صبيانية، ومن ثم سألته إن كانت المقصورة على الجانب أو في المنتصف، ثم سألت زوجها بصوت منخفض بخصوص ما سترتديه، وعن نوعية الأغاني في الأوبرا وسألته عن أشياء أخرى لا أعلم ما هي.

قال لي لوبو نيفيز " ستبقى لتناول العشاء معنا يا دكتور".

"ولهذا السبب بالتحديد جاء إلينا" أكّدت زوجته، " وقال إن لديك أفضل نبيذ في ريو دي جانيرو"

" هو لا يشرب كثيراً حتى لو كان لديّ أفضل نبيذ" قال لوبو.

أثناء العشاء ناقضتُ كلامه وشربت أكثر من المعتاد. ولكن حتى شربت أقلّ من ذلك كان كافياً بالنسبة لي لأفقد تركيزي. كنت منزعجًا بالفعل وأصبحت أكثر انزعاجاً، كانت المرة الأولى التي أشعر بها بغضب كبير تجاه فيرجيليا. لم أنظر إليها لو لمرة واحدة طوال العشاء. تحدثت عن السياسة، الصحافة، وعلم الآثار، وأعتقد أنه كان من الممكن أن أتحدث عن اللاهوت لو أنني أعرف أي شيء عنه أو تذكرت أي شيء. تابع لوبو نيفيز حديثي بهدوء كبير ووقار وكأنه يقوم بفعل عظيم مما زاد في إزعاجي وجعل العشاء يطول ويصبح أكثر مرارة. هممت بالمغادرة حالما نهضنا عن مائدة العشاء.

" سوف نراك لاحقاً، أليس كذلك؟" سأل لوبو.

"ربما" قلت ذلك وغادرت.

****

الصفقة

تجوّلتُ في الشوارع وعدتُ في الساعة التاسعة إلى المنزل، لم أتمكن من النوم، جلستُ أقرأ وأكتب.

كانت الساعة الحادية عشرة وندمتُ لماذا لم أذهب إلى المسرح، تفقدت الساعة بغية ارتداء ملابسي والخروج لكني أدرك أنني سأصل إلى هناك متأخراً جداً، بالإضافة إلى أن هذا سيثبت ضعف موقفي. أظنّ أنه كان واضحاً أن فيرجيليا بدأت تنزعج مني، وهذه الفكرة جعلتني بائساً وجمّدتني في مكاني وبالتالي كنت على استعداد لنسيانها وقتلها في داخلي. بوسعي أن أراها هناك، متكئة في مقصورتها بذراعيها العاريتين الرائعتين – هاتين الذراعين اللتين كانتا ملكي، ملكي وحدي– ساحرة عيون الجميع بالفستان الرائع الذي من المفترض أن ترتديه، ثدييها الأبيضين الناعمين، وشعرها المجعد بعفوية كما كانت تسرّحه في ذلك الوقت، ومجوهراتها التي كانت أقل إشراقاً من عينيها.. رأيتها على هذا النحو وآلمني أن يكون الآخرون رأوها مثلي. ثم بدأت بتخيّل نفسي أخلع عنها ملابسها، واضعاً المجوهرات والحرير جانباً، فاكاً شعرها بيديّ الشرهتين والشهوانيتين، جاعلاً إيّاها– لا أعلم إن هناك شيء أكثر جمالاً أو أكثر عفوية– من جعلها ملكي، ملكي وحدي. لم أطق صبراً في اليوم التالي فذهبت باكراً إلى فيرجيليا، وجدت عينيها حمراوين من شدّة البكاء. مكتبة سُر مَن قرأ

" ماذا هناك؟" سألتها.

"أنت لا تحبني" أجابتني، "لم تُظهر لي أبداً أدنى إشارة حب، عاملتني بالأمس وكأنك تكرهني! و لم أفهم ماذا حدث حتى تتصرف بهذه الطريقة؟"

" لم يحدث شيء"

" لم يحدث شيء! لقد عاملتني مثل كلب.. "

بهذه الكلمة أخذت يديها وقبلتها وظهرت دمعتان في عينيها.

" لقد انتهى الأمر، كل شيء على ما يرام " قلت لها.

لم أقوَ حينها على الجدال، بالإضافة إلى أنه لا يوجد شيء حقيقي أعاتبها به، فمن أجل ماذا سأجادلها؟ لم يكن خطأها إذا أحبها زوجها.

أخبرتها بأنها لم تفعل شيئًا لي، لقد كانت غيرتي من الرجل الآخر، غيرة لم يكن بإمكاني تحملها وإخفاؤها بوجه مبتسم لطيف.

وأضفت أنه ربما يكون زوجها قد أفرط في التظاهر أمامي والحل الوحيد لإنهاء هذه المعارك والخلافات بيننا هو أن توافق على فكرتي التي طرحتها بالأمس.

"فكرت في ذلك"، أجاب فيرجيليا

" منزل صغير خاص بنا، منعزل في وسط حديقة في أحد الشوارع الخلفية، أليس كذلك؟ لقد أحببت الفكرة، لكن لماذا علينا أن نهرب؟".

قالت ذلك بنبرة ساذجة وعادية كشخص لا يشعر بوجود أيّ مخاطر، كما أن الابتسامة التي جعلت زوايا فمها تبدو مرتخية كانت تحمل نفس التعبير البريء.

ثم قالت بحسم:" أنت لم تحبّني أبداً".

"أنا؟"

"أجل، أنت أناني! أنت تفضل رؤيتي أعاني كل يوم... أنت أنانيّ بشكل لا يوصف!".

بدأت فيرجيليا في البكاء واضعة منديلها في فمها كي لا يلاحظ أحد بكاءها، كاتمة تنهدتها بقوّة عنيفة أربكتني. لأنه في حال سمعها أحد فسينتهي كل شيء.

اقتربت منها وأمسكتها من معصميها هامساً لها بأجمل الكلمات العاطفية والحميمية. أخبرتها بالخطر الذي يحدّق بنا، فجمّدها الخوف.

"لا أستطيع"، قالت بعد لحظات قليلة، "لا يمكنني ترك ابني وفي حال أخذته معي، فأنا متأكدة أنّ لوبو سيتبعني إلى آخر مكان في الكرة الأرضية، لا أستطيع، اقتلني إذا أردت، أو اسمح لي بالموت يا الله".

«اهدئي فقد يسمعنا أحد ما".

"دعهم يسمعون، لا يعنيني".

كانت ما تزال غاضبة، طلبت منها أن تنسى كل شيء وأن تسامحني، لقد كنت مجنوناً لكن جنوني هذا كان بسببها وسينتهي معها، مسحت فيرجيليا عينيها بيديها، ابتسمنا سوية، وبعد بضع دقائق عدنا إلى مسألة المنزل الصغير الانفرادي في أحد الشوارع الخلفية...

****

قاطعنا صوت عربة القادم من الفناء، وجاء أحد العبيد ليعلمنا بوصول البارونة « إكس». تفحصتني فيرجيليا بعينيها.

«إذا كان لديك صداع شديد سيدتي،» قلت لها « فأعتقد أنه سيكون من الأفضل عدم استقبالها».

« هل ترجّلت من العربة؟» سألت فيرجيليا العبد.

«لقد ترجّلت للتو، وتقول إنها بحاجة إلى التحدث إليك سيدتي

دعها تتفضّل!"

دخلت البارونة مباشرة، لا أدري إن كانت قد توقعت رؤيتي في صالة الاستقبال، لكنها لم تظهر أيّ ارتباك.

"كم جميل أن أراك؟" قالت بصوت جهور، أين كنت مختفياً يا سيدي، إنّك لا تظهر أبداً في أي مكان؟ لماذا؟ توقعتُ رؤيتك بالأمس في المسرح لكن لم أرك، كانت " كانديانى" ممتعة جداً. يا لها من امرأة! هل تحب" كانديانى"؟

وبطبيعة الحال جميع الرجال يحبونها. أخبرني البارون الليلة الماضية ونحن في المقصورة أن امرأة إيطالية واحدة تساوي خمس نساء برازيليات. يا لهذه الصفاقة! والأسوأ أن هذا الكلام بدر من رجل عجوز. لكن لماذا لم تذهب إلى المسرح الليلة الماضية؟؟

" كنت أعاني من صداع نصفيّ".

" هاهه! هل أنت في علاقة غرامية، ألا تعتقدين ذلك يا فيرجيليا؟ حسنًا، يا صديقي، من الأفضل أن تستعجل لأنك ستصبح في الأربعين... أو أنك على أبواب الأربعين.. ألست في الأربعين من عمرك؟".

أجبتها: " لا يمكنني إجابتك على وجه التحديد، ولكن إذا كنت تسمحين لي فسأذهب للتحقق من شهادة المعمودية الخاصة بي".

" هل أرافقك؟ " وتأبطت ذراعي " متى سنراك المرة القادمة؟ سنكون موجودين في المنزل يوم السبت كما أن زوجي البارون مشتاق لك.. ".

وفي الشارع ندمت على مغادرتي، لأن البارونة كانت واحدة من أكثر الأشخاص شكاً بنا، كانت في الخامسة والخمسين من عمرها وتبدو وكأنها في الأربعين، ملساء الشعر، مبتسمة وما تزال آثار جمالها باقية، أنيقة التصرّف، مهذبة الخلق. لم تكن تتحدث كثيراً أو طوال الوقت. كانت تمتلك مهارات عظيمة في الاستماع إلى الآخرين، والتجسس عليهم. في هذه الأوقات، كانت تسندُ ظهرها في كرسيها، وباسترخاء تتمعّن فيما تراه بحدّة وذكاء مطولاً. أما الآخرين الذين لم يكونوا يعلمون ماذا يجري، كانوا يتبادلون الأحاديث والنظرات والإيحاءات، وهي ببساطة تكتفي بالنظر، تحدق في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى تحرّك عينيها جيداً وتضمر حيلتها في داخلها عندما تسدل جفنيها. لكن بما أن الرموش عبارة عن شعيرات، لذلك تتابع نظراتها الخاطفة عملها، منقبة في أرواح وحيوات الآخرين.

الشخص الثاني كان من أقرباء فيرجيليا، وهو فيغاس، رجل عجوز عديم الجدوى، يبلغ من العمر سبعاً وسبعين شتاء، تشرّبه اليباس والاصفرار، وكان يعاني من روماتيزم مزمن، و لم تكن معاناته من الربو أحسن حالاً، بالإضافة إلى مشكلة في القلب. كان يعمل حارساً في أحد المستشفيات، ومع ذلك، كانت عيناه تلمع مفعمة بالحيوية والنشاط. لم تكن فيرجيليا خلال الأسابيع الأولى خائفة منه على الإطلاق. أخبرتني أنه عندما لاحظت أن فيغاس يراقبها، لكن كل ما كان يعنيه النقود ببساطة، وفي الحقيقة كان شديد البخل.

وكان هناك أيضاً ابن عم فيرجيليا، لويس دوترا، الذي ضمنتُ سكوته الآن بسبب استغلالي الحديث معه عن نثره وشعره وعرضه على معارفي وأصدقائي الذين أبدوا سعادتهم بتقديمي له عندما قرنت النصوص الشعرية باسمه وكان لويس دوترا يرقص فرحاً من شدّة سعادته، ولقد استفدت من هذه السعادة على أمل أن يبعدنا عن مرمى شكوكه. وأخيراً، كانت هناك امرأتان أو ثلاث، والعديد من رجال الطبقة المخملية وبعض الخدم، الذين من الطبيعي أن ينتقموا من وضعهم السّيء بهذه الطريقة، وشكلوا جميعهم غابة حقيقية من العيون والآذان حولنا وكان علينا أن ننزلق من بينها بتكتيك وبراعة الثعابين.

****

القدمان

الآن، كلّما فكّرتُ في أولئك الناس، تحملني قدماي إلى آخر الشارع ودون أن أشعر أجد نفسي عند باب فندق فاروكس، كنت عادة أتناول طعامي هناك. لكن لم أكن أقصده بالفعل ولهذا لم يكن الفضل لي في الوصول إلى هناك، بل الفضل لقدميّ اللتين قامتا بالأمر. أيتها القدمان المباركتان، هناك من يعاملكما باحتقار أو بلا مبالاة. حتى أنا، حتى ذلك الحين، لم أكن أقدركما جيداً، وكنت أنزعج عندما تكونان متعبتين، وعندما لا تستطيعان تجاوز مسألة ما وتتركاني أرغب في رفرفة أجنحتي مثل دجاجة مربوطة القدمين.

في ذلك الوقت، لم يكن الظلام قد خيّم بعد. نعم، قدماي، يا صديقتيّ، لقد تركتما مهمة التفكير في فيرجيليا لرأسي وقلتما لبعضكما: "يجب أن يأكل، إنه وقت العشاء، فلنأخذه إلى الفاروكس. فلنشتت عقله، جزء يبقى مشغولاً بالسيدة، وسنشغل نحن أمر الجزء الآخر حتى يمضي للأمام مباشرة، ولا يصطدم بالناس أو بالعربات، أو يرفع قبعته لتحية أصدقائه ويصل أخيراً إلى الفندق بأمان وسلام" لقد تابعتما خطتكما كما في الرسالة. قدماي اللطيفتان، لقد أصبحت مجبراً علي تخليدكما في هذه الصفحة.

****

المنزل الصغير

تناولت العشاء وذهبت إلى المنزل. وجدت أن لوبو نيفيز قد أرسل لي علبة سيجار ملفوفة بورق مناديل ومربوطة بشريط ورديّ. فهمت على الفور وفتحت العلبة، ووجدت هذه الرسالة:

عزيزي:

إنهم يشتبهون بنا، لقد ضاع كل شيء، انسَ أمري للأبد. لا يمكننا رؤية بعضنا مرة أخرى، الوداع، لا تجعل الحزن يسيطر عليك.

ف... أ

كانت الرسالة بمثابة صفعة. ومع ذلك، هرعت على الفور بعد حلول الظلام إلى فيرجيليا. وصلت في الوقت المحدد، وقد أعربتْ عن أسفها لذلك. لقد أخبرتني بما حدث مع البارونة من

خلال نافذة مفتوحة، حيث أخبرتها البارونة بصراحة تامة أنه كان هناك الكثير من الأقاويل في المسرح الليلة الماضية بشأن عدم حضوري حفلة الأوبرا في مقصورة لوبو نيفيز. ووصل بهم الأمر حدّ الحديث عن زياراتي المتكررة إلى المنزل. وباختصار، كنا موضع شك لدى الجميع، انتهت بالقول إنّها لا تعرف ماذا تفعل».

« أفضل شيء هو الهرب»، لمّحت لها.

هزّت رأسها قائلة: «لا أبداً».

شعرتُ أنه من المستحيل الفصل بين شيئين مرتبطين بشكل كامل بروحها وهما: حبنا ومكانتها الاجتماعية. كانت فيرجيليا قادرة على تقديم تضحيات متساوية وعظيمة لتحافظ على كلا الأمرين، في حين أنه لو هربت ستحافظ على شيء واحد فقط. ربما كان قد تملكني شعور مماثل بالبغض لكن الثرثرة التي أثيرت مؤخراً حولنا كانت كبيرة لذلك انتهى البغض بسرعة في داخلي، كل شيء مرتّب، هيّا لنرتب أمور منزلنا الصغير.

في الحقيقة، وجدتُ طلبي الذي كنت أبحث عنه بعد بضعة أيام في منطقة غامبوا. منزل رائع بطلاء حديث وأربعة نوافذ في الجهة الأمامية واثنتان على الجوانب، ستائر قرميدية اللون وعرائش في الزوايا. بالإضافة لحديقة أمامية. منزل كالجوهرة، مشبع بالغموض والعزلة.

لقد رتّبنا الأمر مع امرأة من معارف فيرجيليا للذهاب والعيش في ذلك المنزل، كانت هذه المرأة تعمل فيما سبق خيّاطة وخادمة في منزل فيرجيليا، وكان لفيرجيليا تأثير حقيقي عليها. فهي لم تكن لتخبرها بكل شيء، ووافقت فوراً على طلبها. بالنسبة لي كان هذا وضعاً جديداً في علاقتنا وهو امتلاك تام وهيمنة مطلقة على مكان خاص بنا وكان هذا كفيلاً بتهدئتي والحفاظ على لباقتي.

كنت قد سئمت بالفعل من الستائر والكراسي والسجاد والأريكة في منزل الرجل الآخر، وكل الأشياء التي كانت كفيلة بإظهار ازدواجيتي أمام نفسي. يمكنني الآن أن أتجنب العشاءات المتكررة، والشاي كل ليلة، وأخيراً وجود ابنهما الذي كان شريكي وعدوي. لقد أنقذني هذا المنزل بالكامل، فعند بابه تنتهي كل صلتي بالعالم الخارجي، فمن هناك، بدأ عالمنا اللامتناهي، الأبديّ، الاستثنائي والأفضل، إنه عالمنا فقط، عالم بدون قوانين، بدون مؤسسات، بدون وجود أي بارونة، بلا عيون، بلا آذان، عالم واحد، زوج واحد، حياة واحدة، إرادة واحدة، عاطفة واحدة – عالم شكّل الوحدة الأخلاقية لكل تلك الأشياء التي استبعدت منها كل ما هو مخالف لذوقي.

السوط

استحوذت عليّ هذه الأفكار وأنا أمشي على طول طريق فالونجو مباشرة بعد رؤية وترتيب أمور المنزل، قاطع أفكاري رؤيتي لحشد من الناس، كانوا قد تجمعوا بسبب رجل أسود يجلد آخر في الساحة، و لم يحاول الرجل الآخر الهرب، كان يشتكي فقط بهذه الكلمات: « أرجوك، أنا آسف يا سيدي، أنا آسف!» لكن الشخص الأول لم يكترث لشكواه وتم الرد على كل صيحة بجلدة جديدة.

«خذ هذا، أيها الشيطان» كان يقول الآخر له « إنك مثير للشفقة أيّها الثمل». « يا سيدي» كان يقول هذه الكلمة بأنين. أجابه بالسوط « أغلق فمك أيها الحيوان».

توقفت عن النظر إليهم، يا إلهي! ومن قد يكون هذا الرجل الذي يمسك بالسوط؟ لم يكن سوى خادمي بروديسيو الذي كان يعمل في منزلنا، والذي أطلق والدي سراحه قبل عدة سنوات. توجّه إليّ عندما رآني بعد أن توقف فوراً عن الضرب بالسوط وطلب مباركتي، وتساءلت إذا كان ذلك الرجل الأسود هو عبدهُ: « نعم، إنه كذلك يا سيدي الصغير»

«ماذا تفعل؟»

«إنه عاطل عن العمل وسكير كبير، تركته اليوم في المتجر إلى حين ذهابي إلى وسط المدينة لكنه ذهب إلى حانة للشرب".

" حسناً، سامحه هذه المرة" قلت له.

"بالطبع، سأسامحه من أجلك يا سيدي الصغير لأنه لا يمكنني أن أخالف أمرك، سأرافقه إلى المنزل، إنه ثمِل»

غادرت حشد الناس الذين كانوا ينظرون إليّ بإعجاب وتخمينات هامسة، ذهبتُ في طريقي، بعد أن تفجرت في رأسي أفكار كنت أظن أني نسيتها للأبد. كان يمكن أن تكون هذه الأفكار مادة لفصل جيد وربما لفصل سعيد تعجبني الفصول السعيدة، إنها نقطة ضعفي. لكن مشهد فالونجو كان مروّعاً إذا ما نظرنا له من الخارج، فقط من الخارج، وجدتُ أني كلّما غرزت فيه مدية العقلانية عميقاً، وجدتُ في طيّاته جوهراً مرضياً، حساساً وعميقاً حتى. كانت هذه هي الطريقة الوحيدة التي جعلت بروديسيو يتخلّص من الضرب الذي تلقاه مني، بنقله إلى شخص آخر. فعندما كنت طفلاً اعتدت الركوب على ظهره، واضعاً حبلاً في فمه، وكنت أضربه بلا رحمة، كان يئنّ ويتألم. ومع ذلك، وبعد أن أصبح حراً الآن وأصبح يتمتع بحرية استخدام ذراعيه

وساقيه، ويمكنه العمل، والراحة، والنوم دون قيود كما كان في وضعه السابق، الآن يمكنه أن يعوّض نفسه عن كل شيء، لذلك اشترى عبداً وقام بتحميله جميع أثقاله التي تلقاها مني. انظروا كم هو وغد!

****

ذرّة حماقة

جعلتني هذه القضيّة أتذكّر معتوهاً أعرفه، كان اسمه روموالدو وقال لي إنهم يدعونه تيمورلنك. كان هذا الاسم هوسه الكبير والوحيد، وكان لديه طريقة غريبة لشرحه.

كان يقول «أنا تيمورلنك الشهير». «في السابق كنت روموالدو، لكنني مرضت وتجرعتُ الكثير من الترسبات، الكثير من الترسبات لدرجة أنني أصبحت من التتار، وحتى ملك التتار هو وحده من يستطيع أن ينجب تتارين".

روموالدو البائس! لقد سخر الناس من كلامه، ولكن من المحتمل ألا يضحك القارئ على روموالدو وهو محق في ذلك، فأنا لا أجد كلامه مضحكاً على الإطلاق. يبدو الكلام مضحكاً في بادئ الأمر عندما تسمعه للمرة الأولى لكنه ليس كذلك عندما يكون مكتوباً على الورق، مع الإشارة إلى الجلد الذي تم تلقيه ونقله للغير، يجب أن أعترف أنه من الأفضل أن أعود إلى المنزل الصغير في غامبوا، وأضع جانباً رومالدو وبرودونيسيو.

دونا بلاسيدا

دعونا نعود إلى المنزل الصغير لكنك لن تتمكن من دخوله اليوم أيها القارئ الفضولي. لقد أصبح قديماً، مظلماً، متعفناً، وقام المالك بهدمه لاستبداله ببيت أكبر منه بثلاث مرات، لكني أقسم لك أنه أصبح أصغر من المرة الأولى. كما أن كان العالم صغير جداً بالنسبة للإسكندر المقدوني إلّا أن مزاريب العليّة لا تبتلع دون توقف.

ألقِ نظرة الآن على حيادية هذا العالم الذي ينقلنا عبر الفضاء مثل زورق حياة يبحث عن شاطئ: ينام اليوم زوجان فاضلان على نفس البقعة من الأرض التي كانت تحتضن زوجين مذنبين. وقد ينام غداً كاهن ما هناك، ثم ينام قاتل، ثم حداد ثم شاعر وسيباركون جميعاً تلك الزاوية من الأرض التي أعطتهم بعض الأحلام.

حوّلت فيرجيليا المنزل إلى جوهرة، وضّبت الأغراض المنزلية التي كانت أصلا مرتبة لكنها أضفت عليهم لمسة جمالية لامرأة أنيقة. أحضرتُ بعض الكتب، كان كل شيء تحت إشراف الدونا بلاسيدا، والتي من المفروض أنها سيدة المنزل وفي بعض النواحي كانت حقاً سيدة المنزل الحقيقية.

كان من الصعب عليها أن تتأقلم في هذا المنزل، لقد فهمت هدفنا من جلبها إلى هنا وآلمها الأمر لكنها استسلمت في النهاية. أعتقد أنها بكت في البداية وتقززت من نفسها. لكن على الأقل ما كنت متأكداً منه أنها لم ترفع عينيها وتنظر نحوي في أول شهرين، كانت دائماً تخفض نظرها عندما تتحدث معي جادة، عبوسة، حزينة بعض الأحيان. أردت أن أكسب ودّها و لم أقم بأي تصرف يزعجها بل عاملتها بكل حنان واحترام. بذلت جهداً كبيراً لكسب حسن نيتها وثقتها. وعندما حصلت على ثقتها، اختلقت لها قصة مثيرة للشفقة عن حبي لفيرجيليا. وأن الأمر حصل قبل زواجها، وأن والدها عارض زواجنا، بالإضافة لقسوة زوجها، ولا أعرف كم من السردات الروائية التي اختلقتها.

و لم تعترض الدونا بلاسيدا على أي تفصيل من صفحات قصتي المختلقة. لقد تقبّلت الأمر لتريح ضميرها. وبعد مضي ستة أشهر، كان أي شخص يرانا نحن الثلاثة يظن أن الدونا بلاسيدا هي والدتي.

لم أكن شخصاً ناكراً للجميل، فقد قدمت لها هدية خاصة مكونة من خمسة كونتوس عثر عليها في بوتافوجواس – وكانت بمثابة مدخرات لشيخوختها. شكرتني دونا بلاسيدا والدموع

تملأ عينيها ومنذ ذلك الحين لم تتوقف أبداً عن الصلاة من أجلي كل ليلة قبل أن تصلي لصورة العذراء التي كانت في غرفتها. وبهذه الطريقة توقف اشمئزازها لنفسها.

الخلل في هذا الكتاب

لقد بدأت أشعر بالندم على هذا الكتاب، ليس هذا ما يضايقني وليس لأنه لا يمكنني فعل شيء آخر، إلّا أنّه في حقيقة الأمر، تجميع بعض الفصول الهزيلة من أجل العالم الآخر هي مهمة لطالما أبعدتني عن الخلود. لكن هذا الكتاب مُمل، تفوح منه رائحة القبر، رائحة جثة متآكلة لشخص ما، رائحة خلل جسيم وليس مهماً الآن التوقف عن كتابته لأن العيب الرئيسي في هذا الكتاب هو أنت أيها القارئ لأنك تريد أن تسريع عجلة الأحداث والكتاب يسير ببطء. تحب السرد المباشر والمستمر، وتحب الأسلوب المنتظم والرشيق، لكني أنا وكتابي نشبه شخصين ثملين، يتأرجحان إلى اليسار واليمين، يمشيان ويتوقفان، يتمتمان، يصيحان، يهزّان قبضة أيديهما في السماء، يتعثّران ومن ثم يسقطان...

سقطت أوراق كتابي، يا أوراق شجرتي التعيسة سوف تسقطون مثل غيركم، وأنتم بكامل الجمال واليناعة، ولو كان لديّ عيون لكنت ذرفت لأجلكم دموع الحنين. فهذه هي الفائدة الكبرى للموت، لا يترك لنا فماً للضحك، أو عيوناً لنبكي بها... لذلك يجب أن تسقط.

مهووس الكتب

ربما سأترك الفصل السابق. ومن أحد الأسباب أنه ثمّة عبارة في الأسطر الأخيرة أقرب ما تكون للهراء وأنا لا أريد أن أكون لقمة سائغة لنقاد المستقبل. لنفترض أنه بعد سبعين عاماً من الآن، هناك شاب نحيل، شاحب وشعره أبيض، لا يحب شيئاً سوى الكتب، جاثم فوق الصفحة السابقة ليعرف ما إذا كان قادراً على اكتشاف هذا الهراء. يقرأ، يعيد القراءة، يقرأ مرة أخرى، يفكّك الكلمات، يخرج مقطعاً صوتياً، ثم مقطعاً آخر، وآخر، ويفحص الأجزاء الباقية من الداخل والخارج ومن جميع الجوانب، تحت الضوء، يزيل الغبار عنهم، ويفركهم بركبته، يغسلهم ولا يستطيع فعل شيء، لا يستطيع أن يجد أن تكمن السخافة في كل هذا.

إنه شخص مهووس بالكتب، لا يعرف من هو المؤلف. فاسم " براس كوباس" لا يندرج ضمن قواميسه. لقد وجد الكتاب بالصدفة في متجر قديم يبيع كتباً مستعملة، اشتراه بمائتي ريس. لقد سأل، استفسر، بحث لكنه اكتشف أني نسخة وحيدة فقط.. نسخة وحيدة فقط! أنتم الذين لا تحبون الكتب فحسب بل تعانون من هوس الكتب، أنتم فقط مَن تعرفون جيداً قيمة هذه الكلمات ولذلك يمكنكم أن تتخيلوا فرحتي بهذا المهووس. كان سيرفض تاج جزر الهند، منصب البابوية، وجميع متاحف إيطاليا وهولندا في حال طلبوا منه بيعهم تلك النسخة الوحيدة، ليس لأنها مذكراتي فهو كان سيفعل الشيء ذاته مع تقويم لايمرت في حال لم يكن يوجد سوى نسخة واحدة منه.

أسوأ ما في الأمر هو السخافة. حيث يبقى الرجل هناك، منحنياً فوق تلك الصفحة، واضعاً عدسة مكبّرة تحت عينه اليمنى، مكرّساً وظيفة ارتدائها النبيلة بشكل كامل من أجل فكّ شيفرة هذه السخافة. لقد وعد نفسه بالفعل بكتابة تقرير موجز يسلّط الضوء من خلاله على العلاقة بين إيجاده للكتاب واكتشافه لمفهوم السمو إذا ما كان ينطوي في تلك العبارة الغامضة. لم يكتشف شيئاً في نهاية الأمر ورضيَ بملكية النسخة فقط. أغلق الكتاب، نظر إليه، ثم نظر إليه مرة أخرى، ذهب إلى النافذة ورفع إلى الشمس هذه النسخة الواحدة فقط. في تلك اللحظة، لو عبر من تحت النافذة القيصر أو كروميل وهم في طريقهم لاعتلاء السلطة لكان سيدير ظهره لهم ويغلق النافذة، يستلقي في أرجوحته، وببطء يقلّب بإبهامه صفحات الكتاب، بمحبة، وبمتعة كبيرة.. بتلك النسخة الوحيدة فقط!

جعلتني السخافة أخسر فصلاً آخر، كم كان سيكون من الأفضل لو تحدثت عن هذه الأمور بسلاسة، دون كل هذه الصدمات. وبالفعل شبّهتُ طريقتي في الكتابة بمشية سكير. إذا كانت هذه الفكرة تبدو غير لائقة بالنسبة لكم فاسمحوا لي أن أقول إنّ هذه الفكرة تشبه موائدنا أنا وفيرجيليا في المنزل الصغير في غامبوا حيث كنّا نقيم ولائمنا الباذخة، ووجبات الغداء، النبيذ والفواكه وحلوى الكومبوت. صحيح أننا كنا نأكل، لكنه كان طعاماً على وقع بعض كلمات الحب، واللمسات الرقيقة، والتصرفات الطفوليّة ومحادثات غرامية حقيقية ومتواصلة. في بعض الأحيان تقع مشاجرة لتعدّل من الحلاوة المفرطة للموقف، كانت تتركني وتلوذ إلى طرف الأريكة أو تدخل إلى الغرفة للاستماع إلى مواعظ الدونا بلاسيدا. بعد خمس أو عشر دقائق، كنا نعود لنتجاذب أطراف الحديث مثلما أمسك خيط السرد مجدداً في هذه الرواية لأجعله مستساغاً مرة أخرى. فليكن معلوماً أنه بعيداً عن كونها فكرة مريعة فقد كانت عادتنا أن نوجه دعوة للدونا بلاسيدا للجلوس معنا على المائدة لكنها كانت ترفض دائماً.

وفي إحدى المرات قالت فيرجيليا للدونا بلاسيدا " يبدو أنك لم تعودي تحبينني أبداً ".

" رحمتك أيتها السموات! "صاحت السيدة الطيبة، رافعة ذراعيها نحو السقف. وقالت:" ليس الأمر كذلك يا صغيرتي، من سأحب في هذا العالم إذا لم أحبك؟"

وأمسكت يديّ فيرجيليا وكانت تنظر في عينيها، تنظر وتنظر حتى سالت دموعها من شدّة التحديق، ربّتت عليها فيرجيليا وأنا بدوري تركتُ لها عملة فضية صغيرة في جيب ثوبها.

****

قصة الدونا بلاسيدا

لستُ نادماً على كرمي الذي منحني ثقة الدونا بلاسيدا من خلال العملة الفضية الصغيرة، وأفضى بي لكتابة هذا الفصل. وبعد أيام عندما كنت وحدي في المنزل، تحدثت مع الدونا بلاسيدا وأخبرتني قصّتها بشكل موجز. كانت طفلة غير الشرعية لسكستون يعمل في الكاتدرائية ولامرأة تبيع الحلويات في الشارع. فقدت والدها عندما كانت في العاشرة من عمرها، في ذلك الوقت كانت تعمل في تقطيع جوز الهند وتقوم بصناعة كل أنواع الحلويات التي تناسب عمرها. تزوجت في سن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من خياط لكنه توفي متأثراً بالسل في وقت لاحق، تاركاً لها طفلة في عامها الثاني بالإضافة لوجود والدتها، تلك التي أمضت حياتها في الشقاء. وبهذا كان عليها إطعام ثلاثة أفواه. لقد صنعت الحلويات، وكانت بالفعل تبيعها، لكنها أيضاً عملت في الخياطة، ليلاً ونهاراً، وبشكل دؤوب مع ثلاثة متاجر أو أربعة كما علّمت بعض فتيات الحي مقابل عشرة توستوس كلّ شهر. ومرّت السنوات على هذا النحو، ولكن جمالها لم يذوِ لأنها لم تكن جميلة أصلاً، قاومت بعض المغامرات وبعض العروض والإغراءات التي اعترضت طريقها. وقالت لي: "لو كنت قد وجدت زوجاً آخر، لتزوجت، لكن لا أحد يريد الزواج مني».

اعتقد أحد الخاطبين أنه سيحظى بقبولها، إلّا أنه لم يكن يتمتع بأي صفات تجعله أكثر تميزاً من غيره. فرفضته الدونا بلاسيدا بشدة وبعد أن رحل بكتْ كثيراً. وقالت إنها استمرت في أعمال الخياطة للآخرين، وبقيت الأمور تسير على أحسن ما يرام. كانت والدتها سيّئة المزاج بسبب تقدّمها في العمر وبسبب فقرها. وقد وبّخت ابنتها لأنها لم توافق على أحد من الأزواج الناضجين الذين تقربوا منها من وقت لآخر. وقالت لها وهي غاضبة:"

" هل تعتقدين أنك أفضل مني؟ لا أعلم من أين جاءتك فكرة الزواج من رجل غنيّ؟ يا صديقتي العزيزة، لا تستقيم الحياة بمحض الصدفة فقط. لا يمكنك أن تتخطي قدرك. ماذا عن الأصدقاء الشبّان الوسيمين كالقديس بوليكاربو، والشاب المسكين ذاك... هل تنتظرين أن يتقدّم لخطبتك رجل نبيل؟".

أقسمت الدونا بلاسيدا أنها لم تكن تنتظر أي شخص نبيل، لقد أرادت أن تتزوّج، هكذا كانت شخصيتها، كانت تعرف جيداً أن والدتها لم تتزوج مسبقاً، وتعرف بعض النساء اللواتي لديهن عشاق فقط. ولكن شخصيتها كانت مختلفة وأرادت أن تكون زوجة. ولم تكن تريد أن تكون ابنتها غير ذلك أيضاً. لذلك عملت بجد وحرقت أصابعها على الموقد وعيناها تخيطان

على ضوء حامل الشمعة من أجل الحصول على الطعام وعدم فقدان كل شيء. أصبحت نحيلة، مرضت، وفقدت والدتها، دفنتها من خلال المساعدات الخيرية، واستمرت في العمل. كانت ابنتها في الرابعة عشرة من عمرها، لكنها كانت سهلة الانقياد للغاية، حتى أنها لم تفعل شيئاً سوى اللهو مع المحتالين الذين كانوا يتسكّعون حول النافذة. شعرت الدونا بلاسيدا بالقلق الشديد، فكانت تصحبها معها عندما تضطر للذهاب خارج المنزل لتسليم أعمال الخياطة. وكان أصحاب المتاجر يحدقون ويتغامزون فيما بينهم، واثقون بأنها قد أحضرتها معها من أجل أن تصطاد لها زوجاً أو شيئاً آخر. وبعضهم كان يطلق بعض النكات السيئة، يقللون من احترامهم لها وبدأت الأم بتلقي عروض المال.

لقد توقفت لدقيقة ثم تابعت كلامها: "هربت ابنتي، ذهبت مع صديق لها، حتى إنني لا أريد أن أعرف شيئاً عن الأمر. لقد تركتني وحيدة، حزينة، حزينة جداً لدرجة أني أتمنى الموت، لم أكن أعرف أحداً في هذا العالم وكنت أتقدم في السن وصحتي تتدهور. وفي ذلك الوقت تقريباً تعرفت على عائلة " إيايا"[1] ، إنهم عائلة طيّبة، طلبوا مني القيام ببعض المهام وأعطوني منزلاً، بقيت هناك لعدة أشهر، سنة، وأكثر من سنة، كنت في المنزل خيّاطة وخادمة. غادرت عندما تزوجت إيايا. ثم قضيتُ أيامي كما كتب الله لي، انظر إلى هذه الأصابع وإلى هذه اليدين...» وأرتني يديها السميكتين والمجعدتين، وأطراف أصابعها الموخوزتين بالإبر... " هذه الأمور لا تحصل بالصدفة يا سيدي، وحده الله يعلم كيف تسير الأمور، لحسن الحظ أن إيايا اعتنت بي، وأنت أيضاً يا دكتور... لقد كنت خائفة أن ينتهي بي الأمر بالتسول في الشارع...".

ارتجفت الدونا بلاسيدا عندما نطقت العبارة الأخيرة، ثم، كما لو كانت استعادت توازنها. بدت قلقة لأنها اعترفت لي، شعرت أنه اعتراف غير لائق لحبيب امرأة متزوجة وبدأت تضحك وتتراجع وتقول عن نفسها سخيفة " حمقاء " كما كانت والدتها تصفها، وأخيراً، تعبتْ من صمتي فغادرت الغرفة، وبقيت أنا ماكثاً أحدّق في مقدمة حذائي.

١ إيايا: هو الإسم الذي كانت تطلقه الدونا بلاسيدا على فيرجيليا.

حديثي مع نفسي

من المحتمل أن يكون أحد القرّاء قد تخطى الفصل السابق، يجب أن أنوّه أنّه من الضروري قراءته لفهم ما قلته لنفسي مباشرة بعد مغادرة الدونا بلاسيدا الغرفة. ما قلته كان هذا:

«حسناً، في أحد الأيام حضر سكستون الكاتدرائية القدّاس، وشاهد السيدة، التي ستكون شريكته في إنجاب الدونا بلاسيدا، تدخل. ثم رآها في الأيام التالية، ولأسابيع متتالية، لقد أحبها، وداعبها، وفي أيام العيد داس على قدمها وهو يصعد إلى المذبح. لقد أحبّته وأصبحا مقربين من بعضهما ومارسا الحب، ومن الانغماس في هذه العلاقة الشهوانيّة أزهرتْ الدونا بلاسيدا. من المؤكد أن الدونا بلاسيدا لم تكن قادرة على الكلام عندما ولدت، لكن لو أمكنها ذلك لكانت قالت للمؤلفين في عصرها: " أنا هنا. لماذا قمتم باستدعائي؟ وبشكل طبيعي سيجيبها الكشماس [1] « لقد قمنا باستدعائك لنحرق أصابعك على القدور ولنتعب عيناك في الخياطة، ولنطعمك طعاماً سيئاً أو لا نطعمك شيئاً على الإطلاق، وأن ننقلك من مكان إلى آخر لتكوني دائماً في حالة شقاء، تمرضين وتتعافين فقط من أجل أن تمرضي مرة أخرى وتتعافي، تحزنين الآن، ثم ينال منك اليأس وتستسلمين غداً، ولكن ستكون يديك دائماً على القدر وعينيك في الخياطة حتى يأتي يوم ما وينتهي بك المطاف في مستنقع أو في مستشفى. ولهذا قمنا باستدعائك في لحظة شفقة».

****

سماد

شعرت بوخز ضميري فجأة، كان يتهمني بأني جعلت الدونا بلاسيدا تتخلى عن أخلاقها الفاضلة بتوريطها بدورٍ مخزٍ بعد حياة طويلة من العمل والحرمان.

لم يكن دورها كوسيط في المنزل أفضل حالاً من أن تكون محظية، وأنا حططت من قدرها بهذا الدور جرّاء الهدايا والمال الذي أغرقتها به. كان هذا هو ما أملاه ضميري عليّ، بقيت بضعة دقائق غير قادر على رد اتهاماته لي، وأضاف بأني انتهزت فرصة تعلّق فيرجيليا بخيّاطتها القديمة، بسبب فضل الأخيرة عليها وحاجتها الأساسية لها.

لاحظ ضميري أيضاً مقاومة الدونا بلاسيدا، ودموعها خلال الأيام الأولى، وتعابير وجهها المتجهمة، صمتها، وعيناها المنخفضتان باتجاه الأرض دوماً، وقدرتي في تحمل كل ذلك حتى

[1] الكشماس: الحارس لغرفة المقدسات.

تغلّبت على الأمر. وعاد ضميري لنخزي بطريقة مزعجة وانفعالية. لقد توصلت إلى قناعة مفادها أن ما حدث هو ما كان يجب أن يحدث. تجادلتُ معه أن شيخوخة الدونا بلاسيدا ليست محمية من التسوّل. لذلك ما قدمته لها كان تعويضاً، كان من أجل حبنا لكن لو لم أفعل فستنتهي الدونا بلاسيدا بذات الطريقة التي تنتهي بها الكثير من المخلوقات البشرية الأخرى، وهكذا نتوصل إلى أن الرذيلة تكون في كثير من الأحيان سماداً للفضيلة. وهذا لا يمنع الفضيلة من أن تكون زهرة عطِرة ومعافاة، وقد وافقني ضميري على هذا الرأي وذهبتُ لأفتح الباب لفيرجيليا.

****

موعد

دخلت فيرجيليا، مبتسمة ومرتاحة. كان الوقت كفيلاً بإبعاد الخوف والمضايقات بعيداً عنها، كم كان جميلاً رؤيتها تصل في الأيام الأولى خجلة ومرتعشة بعد أن تكون قد قطعت مسافة كبيرة في العربة، ووجهها ملثم ومغطى بنوع من أوشحة الرأس الذي يخفي معالم شكلها. في المرة الأولى التي ألقت نفسها على الأريكة، كانت تتنفّس بعمق ولونها قرمزي، وعيناها على الأرض، أقسم لكم، لم أجدها جميلة جداً من قبل أكثر من الآن، ربما لأنني لم أشعر بالرضا بهذا الشكل في أي وقت مضى.

وعلى أية حال، كما كنت أقول أننا تخلصنا من المخاوف والمضايقات. كانت لقاءاتنا قد دخلت الدائرة الزمنية. كان الحب كبيراً بيننا ولم تضعف قوّته، لكن ما تغيّر هو أن الشعلة فقدت بريقها المجنون في الأيام الأولى وأصبحت مجرد حزمة من الأشعة، أشعّة آمنة ومطمئنة كما هو الحال مع جميع الزيجات.

قالت وهي تجلس: "أنا غاضبة جداً،"

" لماذا؟»

«لأنك لم تأت بالأمس كما أخبرتني، لقد سأل نيفيز عدة مرات إذا كنت سوف تأتي لتناول الشاي على الأقل. لماذا لم تحضر؟"

في الواقع، كنت قد خرقت الوعد الذي قطعته على نفسي وكان السبب فيرجيليا. إنها الغيرة. كانت تعلم هذه المرأة الرائعة أني كنت أغار عليها وكانت تحب سماع ذلك مني سواء كان علانية أو همساً. فقبل يومين وفي منزل البارونة، رقصتْ الفالس مرتين مع أحد الرجال الأنيقين، بعد أن

أمطرها بسيل من المجاملات قرب النافذة. لقد كانت سعيدة جداً، ومتحررة من جميع القيود، متوازنة جداً، وحين لاحظتْ تغضُّنات الاستفهام والاستياء بين حاجبيّ، لم تبد أي تفاجئ و لم تبتدع أي مظهر رصين يصلح الأمر، لكنها ألقت بالرجل وبمجاملاته في البحر، وتقدمت نحوي وأخذتني من ذراعي، وقادتني إلى الغرفة الأخرى، والتي لم تكن مكتظة كثيراً، حيث اشتكت من التعب وقالت الكثير من الأشياء الأخرى بهراء طفوليّ كانت قد اعتادت على استخدامه للتغطية على أوضاع معينة، وقد استمعت إليها دون أن أردّ بكلمة واحدة.

والآن، مرة أخرى، كان من الصعب عليّ أن أردّ، لكني أخبرتها عن سبب غيابي في نهاية الأمر.

بعينين لامعتين لم أر مثلهما أبداً ولا حتى النجوم المتلألئة، وبفم نصف مفتوح، وحاجبين متقوسين، وبذهول واضح وملموس لم تتمكن من إنكاره، هكذا جاء ردّ فيرجيليا على سبب غيابي بعد أن أخبرتها. هزّت رأسها بابتسامة شفقة وحنان أربكتني تماماً.

«أوه....»

وذهبت لتخلع قبعتها برشاقة ومرح كفتاة عادت للتو من المدرسة. ثم اقتربت مني حيث كنت جالساً، ونقرت على رأسي بإصبع واحد، وقالت: «هذا الرأس، هذا»، و لم أتمكن من مشاركتها في الضحك أيضاً، وانتهى كل شيء بسلام، وكان من الواضح أنني كنت مخطئاً.

وبعد مضي بضعة أشهر، وفي أحد الأيام وصل لوبو نيفيز إلى منزله قائلاً إنه قد يتم تعيينه رئيساً للمقاطعة. نظرتُ إلى فيرجيليا التي بدتْ شاحبة، وسألها لوبو بعد أن لاحظ شحوب وجهها: »

«ماذا، ألم يعجبك ذلك يا فيرجيليا؟»

هزت فيرجيليا رأسها قائلة: "لست سعيدة جداً بهذا".

انتهى الحديث هنا، ولكن في الليل قام لوبو نيفيز بالتحدث عن الأمر مرة أخرى بشكل أكثر حزماً من المرة الأولى، وبعد يومين أعلن لزوجته أن الرئاسة أصبحت قاب قوسين أو أدنى. و لم تتمكن فيرجيليا من إخفاء النفور الذي سببه لها زوجها الذي كان يردّ على كل شيء بقوله إنها الضرورة السياسية.

«لا يمكنني أن أرفض ما يطلبونه مني، كما أن الأمر مناسب لنا، ولمستقبلنا، إنها حصانة سياسية يا حبيبتي لأنني وعدتك بأنك ستكونين ماركيزة وأنتِ حتى الآن لم تصبحي بارونة، ألستُ شخصاً طموحاً؟ أنا بالفعل كذلك. لكن يجب ألا تثقلي على أجنحة طموحي". كانت فيرجيليا مشوشة. التقيتها في اليوم التالي في منزل غامبوا ووجدتها حزينة وتنتظرني. كانت قد أخبرت الدونا بلاسيدا التي حاولت مواساتها قدر الإمكان، و لم أكن أنا أقل اكتئاباً.

"يجب أن تأتي معنا"، قالت لي فيرجيليا.

«هل أنت مجنونة؟ سيكون جنوناً.»

«إذن ما العمل؟"

" علينا تغيير الخطّة"

"هذا مستحيل»

«هل حقاً قبِل بالتعيين؟"

«يبدو الأمر كذلك.»

نهضتُ وألقيت قبعتي على الكرسي، وبدأت السير جيئة وذهاباً، دون أن أعرف ماذا أفعل؟ فكرت لفترة طويلة و لم أتمكن من التوصل إلى أي شيء. أخيراً، ذهبت إلى فيرجيليا، التي كانت جالسة، وأمسكتُ يدها، وتركتنا الدونا بلاسيدا وذهبت باتجاه النافذة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

قلت لها: " لا معنى لوجودي بعيداً عن هذه اليد الصغيرة، القرار لكِ، يمكنك القيام بكل ما ترينه مناسباً". أبدت فيرجيليا حزناً واضحاً، وقصدتُ أنا نضد الطاولة الذي كان أمامها لأتكئ عليه، بقينا صامتين للحظات، حتى بلغ إلى أسماعنا صوت نباح الكلاب وربما صوت ارتطام الأمواج على الشاطئ.

لاحظتُ أنّ فيرجيليا لا تقول شيئاً فنظرت إليها، كانت تنظر إلى الأرض، جامدة ومتلبّدة، يداها على ركبتيها وأصابعها تتقاطع كإشارة على بؤس شديد.

لو أن الأمر كان غير هذا وكان السبب مختلفاً كنت بالتأكيد سألقى نفسي عند قدميها وسألوذ إليها شارحاً لها أسبابي بحنان. لكن الآن، من الضروري دفعها لتتولى زمام الأمور وتضحي من أجل حياتنا معاً، وبالنتيجة، لن ألجأ إليها وسأتركها وأمضي بعيداً. وكان هذا ما فعلته.

« سأقول لك مرة أخرى، إنّ سعادتي بين يديك" قلت لها، حاولت فيرجيليا منعي من الرحيل، لكنني كنت قد أصبحت فعلاً خارج البيت. تمكنت من سماعها تنفجر باكية، وأستطيع أن أقول لكم، لقد كنت على وشك العودة لأوقفهم بقبلة، لكنني تمكنت من السيطرة على نفسي والمغادرة.

****

تسوية

لن أنتهي من الحديث أبداً في حال أعدتُ سرد كل تفاصيل معاناتي خلال الساعات القليلة الأولى. كنت متردداً بين الرغبة وعدم الرغبة، وبين التعاطف التي كانت تدفعني نحو منزل فيرجيليا، وشعور مختلف بالأنانية، دعنا نفترض أنه كان يقول لي: «ابق هنا. اتركها وشأنها مع المشكلة، اتركها وحدها لأنها سوف تحلها لصالح الحب». أعتقد أن هاتين القوتين كانتا متساويتين في الضراوة... قوّتان مهاجمتان ومقاومتان في الوقت نفسه، بحماس وبعناد، و لم تستسلم أيّ منهما. كنت أشعر أحياناً بقرصة ندم صغيرة. وبدا لي أني أظلم امرأة ضعيفة واقعة في الحب، دون أي تضحية أو مخاطرة مني. وعندما كنت على وشك الاستسلام، كان الحب يعود مجدداً ويكرر لي تلك النصيحة الأنانية، وبقيت متردداً وحائراً، وراغباً في رؤيتها مع التيقظ أن رؤيتها ستقودني لأن أتشارك الحل معها.

وفي النهاية توصلّت إلى تسوية بين الأنانية والتعاطف: سأذهب لأراها في منزلها، وفقط في منزلها، بحضور زوجها حتى لا أقول لها أي شيء، في انتظار أن أرى مدى تأثيري عليها. سأكون قادراً بهذه الطريقة على استرضاء القوّتين. وفي الوقت الذي أخطّ به هذه السطور، تراودني فكرة أن هذه التسوية كانت مجرّد خدعة، وأن هذا التعاطف هو وجه آخر للأنانية، وقراري في مواساة فيرجيليا لم يكن سوى أحد أوجه معاناتي.

****

تعييني كنائب

ذهبت في مساء اليوم التالي إلى منزل لوبو نيفيز. كانا كلاهما في البيت، فرجيليا حزينة جداً، وهو سعيد جداً. ويمكنني أن أقسم أنها شعرت براحة كبيرة عندما التقت أعيننا ببعضهما، تفيضان بالفضول والحنان. أخبرني لوبو عن الخطط الرئاسية القادمة، عن الصعوبات المحليّة، عن الآمال والحلول المقترحة. كان سعيداً، مليئاً بالأمل. وكانت فيرجيليا تجلس على الجانب الآخر من الطاولة، تتظاهر بأنها تقرأ كتاباً لكنها كانت تسترق النظر إليّ بين الحين والآخر من فوق الكتاب بفضول وقلق.

« لكن أسوء ما في الأمر أني لم أعثر على حتى الآن على نائب» قال لي لوبو.

« حقاً؟».

« أجل، لكن لديّ فكرة».

« أه، ما هي؟»

« الفكرة.. ما رأيك أن تسافر إلى الشمال؟».

لم أعرف بماذا أردّ عليه.

« أنت شخص ثريّ» وتابع قائلاً:» ولست بحاجة لراتب سخيف، لكن إذا أردت أن تسدي لي معروفاً فستقبل أن تكون نائباً لي».

تراجعت خطوة إلى الوراء، كما لو أني رأيت أفعى أمامي. نظرت إلى لوبو، حدّقت به لأرى فيما إذا كان يخفي شيئاً في داخله، فلم ألحظ شيئاً. كانت نظرته مباشرة وواضحة، كان هدوء وجهه طبيعياً، لم تكن تعابيره مفتعلة، هدوء ينبض بالفرح. أخذتُ نفساً عميقاً و لم أجرؤ على النظر في وجه فيرجيليا، استطعت أن أشعر بنظرتها من فوق الكتاب، وطلبت مني الطلب نفسه، وقلت نعم، سأذهب.

لكن الحقيقة كانت تصبّ في مكان آخر وهو أن الرئاسة، أقصد أن تكون رئيساً، بل زوجة رئيس، بل نائب رئيس هو وسيلة لحل الأمور بطريقة وزارية.

بالرغم من كل هذا، اعترتني بعض الشكوك حالما غادرتهم. لقد فكّرت ملياً فيما إذا كانت مجازفة خطرة بسمعة فيرجيليا، في حال لم يكن هناك طريقة منطقية أخرى للجمع بين الحكومة وبين غامبوا. لم أجد حلاً آخر. وعندما نهضت من السرير في اليوم التالي، كان صوت في عقلي يقول لي بأن أقبل هذا العرض. وفي وقت الظهيرة جاء خادمي ليخبرني بأن هناك سيدة تضع وشاحاً على رأسها تنتظر في صالة الاستقبال، أسرعت إليها، لقد كانت سابينا أختي.

« لا يمكن أن تبقى هكذا» قالت لي، « دعنا نفعل شيئاً من أجل كل ما مضى ومن أجل القادم، إن عائلتنا تتداعى وعلينا ألّا نستمر في التعامل مع بعضنا كعدوّين».

« لكني لم أطلب شيئاً آخر يا أختي» صرخت بها ثم أمسكتها بكلتا يديّ وأجلستها بجانبي، سألتها عن حال زوجها وطفلتها وعملها وعن كل شيء. أخبرتني أن كل شيء على ما يرام، وأن ابنتهما جميلة كلوحة مرسومة، وأن زوجها يرغب في اصطحابها إليّ لأراها إن سمحت له بالقدوم.

« فليأت الآن أو أنا من سيذهب لرؤيتها بنفسي».

« حقاً؟»

« نعم، هذا وعد»

« إن هذا أفضل بكثير» قالت ذلك بحسرة وأضافت» لقد حان الوقت لنضع حداً لكل الخلافات».

لقد رأيتها بدينة أكثر من قبل وربما بدت أصغر عمراً. لقد بدت وكأنها في العشرين مع أنها كانت قد تجاوزت الثلاثين. جذّابة، دمثة، ليست مرتبكة ولا متحفظة. نظرنا إلى بعضنا بعضاً ونحن ممسكان بأيدي بعضنا، نتحدث عن كل شيء وعن لا شيء كعاشقين. لقد شعرت بطفولتي تطفو على وجهي بنقائها ومرحها ولمعانها. تهاوت تلك السنين مثل أوراق اللعب المصفوفة على بعضها والتي كنت مولعاً بها في طفولتي، أعادني هذا المشهد إلى الماضي فرأيت عائلتي ومنزلي وحفلاتي. صمدتُ في وجه هذه الذاكرة إلى أن باغتني حلاق الحي وهو يدندن على كمانه الكلاسيكي بذلك الصوت، لأنه حتى ذلك الحين كانت الذاكرة صامتة، ذلك الصوت الآتي من الماضي، صوت ثاقب، أيقظ الحنين، هو ما جرفني إلى هذه الدرجة...

كانت عيناها ذابلتان، لم ترِث سابينا كآبة عائلتنا، فما الذي حدث؟ لقد كانت أختي، وتحمل

دمي وقطعة من والدتي، وقد أخبرتها بذلك بكل حنان وحسن نيّة... وفجأة، سمعت طرقاً على الباب الخارجي، ذهبت لأفتحه، لقد كان الطارق ملاك صغير في عامه الخامس.

« تعالي يا سارة» قالت سابينا.

لقد كانت ابنة أختي، التقطتها بين يديّ وقبّلتها كثيراً، لكن الفتاة الصغيرة انتابها الخوف ودفعتني بيديها الصغيرتين ومن كتفيّ، كانت تتلوّى لأنزلها على الأرض. في تلك اللحظة لاحت قبعة تخفي خلفها رأس رجل، لقد كان كوتريم، ليس أكثر. تأثرت كثيراً لدرجة أني وضعت الفتاة على الأرض وألقيت نفسي بين يديّ والدها، قد يكون هذا الانكباب أقلقه قليلاً لأنه بدا لي مرتبكاً بعض الشيء. لقد كان مجرّد تمهيد بسيط لأننا باختصار تبادلنا الأحاديث كصديقين قديمين، بكل ودّ، دون أن نذكر أي شيء من الماضي، وضعنا خططاً مستقبلية، ووعدنا بعضنا بتبادل الزيارات وتناول العشاء مع بعضنا. ولم يفوتني أن أخبرهم بأن تبادل جلسات العشاء في منازل بعضنا قد يتوقف لفترة بسيطة لأني أفكّر في السفر إلى الشمال. تبادل كل من سابينا وكوتريم النظرات. وأكّد كلاهما أن فكرة السفر ليست صائبة. بحق الشيطان، ما المشكلة في الذهاب إلى الشمال؟ لماذا؟ لأن الشمال ليس العاصمة؟ هل مكاني هنا في العاصمة؟ من أجل أن أبقى متألقاً، وأن أظهر بشكل مشرق أمام أصدقائي القدامى في فترة الشباب؟ لأنه حقاً لم يكن هناك أيّ منهم يمكن مقارنته بي. كان كوتريم يراقبني من بعيد وعلى الرغم من خلافاتنا السخيفة، كان دائماً مهتماً، فخوراً ومزهواً بإنجازاتي. لقد وصل إلى سمعه ما كان يقال عني في الشوارع والصالونات، لقد كانت حفلة مدح وإعجاب. إن ترك كل هذا وقضاء بضعة أشهر في المحافظات دون سبب واضح لهذه الرحلة، دون سبب جدّي، إلّا إذا كان هناك سبب سياسي يستدعي.

« بالضبط، سبب سياسي؟» قلت له.

« لا، ذهابك ليس لهذا السبب» قال ذلك بعد برهة، وأضاف بعد صمت: » على أية حال، أنا أدعوك لتناول العشاء معنا هذه الليلة».

« سآتي لكن غداً أو بعد غد، عليكم أن تأتوا لتناول العشاء معي في بيتي».

« لا أعلم، لا أعلم» احتجت سابينا، « هل سنتناول العشاء في منزل رجل أعزب، عليك أن تتزوج يا أخي، أنا أيضاً أريد أن أصبح عمّة، هل تسمعني؟».

أوقفها كوتريم عن الكلام بإيماءة لم أفهم مغزاها جيداً، لكن لا يهم فالمصالحة العائلية لا يعكّر صفوها إيماءة غامضة.

دع مرضى الوهم يقولون ماذا يريدون من الحياة: الحياة جميلة، هذا ما كنت أفكّر به وأنا أشاهد سابينا وزوجها وابنتها ينزلون الدرج وهم يغدقون عليّ الكثير من الكلمات الحميمة وأنا بدوري بادلتهم الأمر ذاته من مكاني حيث كنت أقف على السفرة في الأعلى. كنت أفكّر أني رجل محظوظ حقاً، لديّ امرأة تحبني وزوجها يثق بي وسأصبح نائباً لكليهما كما أني توصلت لتسوية مع عائلتي، ماذا يمكن أن أطلب أكثر أن يحدث في أربع وعشرين ساعة؟

في ذلك اليوم كنت أتهيّأ لأواجه أفكار الناس، لذلك بدأت أذيع بينهم بأني على وشك السفر إلى الشمال كنائب عن المقاطعة بغية إنجاز بعض مشاريعي السياسية. قلت ذلك في روا دو اوفيدور وكررته في اليوم التالي في فندق الفاروكس وفي المسرح.

بعضهم ابتسم بسخرية ممن ربطوا الأمر بتعييني لدى لوبو نيفيز كما أشيع في الأوساط، وبعضهم ربّت على ظهري. وفي المسرح قالت لي سيّدة أنّ الأمر ينطوي على غرام بعيد المنال لمنحوتة، وتقصد بالمنحوتة جمال فيرجيليا.

لكن أكثر تلميح واضح تلقّيته كان في منزل أختي سابينا بعد ثلاثة أيام. كان ذلك من غارسيز معروف وهو جراح عجوز، تافه وثرثار، كان قادراً على بلوغ عمر السبعين، الثمانين أو التسعين من عمره دون أن يكتسب هيئة وقار تشير إلى هيبة عمره. ربما تكون هذه الشيخوخة السخيفة هي النهاية المفاجئة والأكثر حزناً لرجل مثله.

« أعلم أنك تقرأ شيشرون في هذه الأيام « قال لي ذلك عندما سمع بأمر السفر.

« شيشرون» صاحت سابينا.

شيشرون: هو ماركوس توليوس سيسررو، من أعظم كتّاب روما السياسيين.

« وأيضاً.. أخاك لاتيني عظيم ويمكنه أن يترجم قصائد فيرجيل بلمح البصر، لاحظي ذلك فرجيل وليست فيرجيليا، لا تخلطي بينهما».

وضحك بعد ذلك ضحكة خشنة، فاحشة وتافهة. نظرت إليّ سابينا بخوف خشية أن أردّ على كلامه، لكنها ابتسمت حين رأتني أبتسم وأشاحت بوجهها كي تخفي ذلك. ونظر إليّ

الآخرون بشيء من الفضول والتعاطف والتسامح، وكان من الواضح تماماً أن ما سمعوه لم يكن جديداً عليهم. كانت أخبار علاقتي الغرامية منتشرة بين العامة أكثر مما أتخيّل. ومع ذلك ابتسمت ابتسامة سريعة، هائمة وخرجت أهذر كغراب سينترا [1]. كانت فيرجيليا خطأ جميلاً وكم هو سهل أن تعترف بخطأ جميل. في البداية كنت أتجهّم عندما أسمع بعض التلميحات عن علاقتنا الغرامية، لكن أقسم أني كنت أشعر بالسعادة في داخلي. حدث في أحد المرات أن ابتسمت عند سماعي أحد التلميحات وبقيت على هذا المنوال، أبتسم في كل مرة أتعرض لهذا الموقف. لا أعلم إن كان هناك شخص ما يمكنه أن يشرح لي هذه الظاهرة. على كل حال سأشرحها أنا على هذا النحو: في البداية كانت هذه القناعة في داخلهم لذلك كانت تظهر في الابتسامة ذاتها كل مرة، لكنها بقيت برعماً، وكما يقال، أزهرت الوردة مع مرور الوقت وظهرت للعلن. إنها مسألة بسيطة في علم النبات.

****

الرقم ١٣

انتزعني كوتريم من غمرة هذه السعادة وقادني إلى النافذة، وسألني: » هل ثمة مانع إذا أبديت رأيي في أمر ما، لا تقم بتلك الرحلة إلى الشمال، إنها مغامرة طائشة وخطيرة».

« لماذا؟»

« أنت تعلم جيّداً السبب، قيامك بهذه الرحلة أمر خطير، خطير للغاية. إن مسألة كهذه ستتضيع في زحام العاصمة هنا وفي كثرة المشاغل لكن في مقاطعة صغيرة كمقاطعة الشمال ستأخذ طابعاً مختلفاً، وبما أنها مسألة تخص رجال السياسة، إنه حقاً تصرّف غير حكيم. وبمجرد أن تلحظ الصحف المعارضة هذه المسألة سيسارعون لنشر الخبر بالأحرف العريضة وفوق كل هذا ستتحول إلى محط سخرية، وستكثر النكات، التعليقات والألقاب....»

« لكني لا أفهم....»

« أنت تفهم، تفهم كل شيء. ستخسرنا حقاً– نحن أصدقاؤك– إذا بقيت تنكر ما يعرفه الجميع. فأنا أعلم بعلاقتك الغرامية منذ أشهر. وها أنا أكرر لك كلامي، لا تقم بهذه الرحلة ولا تغامر بأمر كهذا. تحمّل غيابها الذي سيكون أفضل من فضيحة كبيرة واستياء أكبر...».

---

١ سينترا: قصر في البرتغال.

قال هذا ودخل، بقيت أنا أنظر إلى ضوء الشارع عند الزاوية، إنه مصباح قديم يعمل على الزيت، حزين، خافت ومعتم كعلامة استفهام. ماذا كان يتوجب عليّ أن أفعل؟ لقد كانت حيرتي تشبه قضية هاملت، أمامي خيارين: إما أن أعاني وأتأرجح بين حبال الحظ وسهامه وإما أن أمضي ضدّ رغبتهم وأضعهم أمام الأمر الواقع. بعبارة أخرى، أن أبحر أو لا أبحر. ذلك هو السؤال. لم يتمكن ضوء المصباح من إنارة بصيرتي. كانت كلمات كوتريم تصدح في مسمع ذاكرتي بطريقة مختلفة تماماً عن صدى كلمات غارسيز.

ربما كان كوتريم محقاً، لكن هل يمكنني أن أنفصل عن فيرجيليا؟

تقدمت سابينا مني وسألتني بماذا أفكّر؟ أجبتها أني لا أفكّر بشيء وأني أشعر بالنعس وعليّ الذهاب إلى البيت. صمتت سابينا لبرهة ثم قالت: » أنا أعلم ما تحتاج إليه، إنك بحاجة لصديقة، دعني أجد لك صديقة مناسبة «. غادرتهم مرهقاً، مشوّشاً وكل كياني متأهب للإبحار– قلباً وروحاً– وظهر حارس القواعد الاجتماعية ليسألني من أعاطني الإذن في تجاوز هذه القواعد، قلت له فلتذهب إلى الجحيم أنت والقواعد الاجتماعية ومعكم الدستور والهيئة التشريعية والوزارة وكل شيء.

فتحت في اليوم التالي إحدى الجرائد السياسية وقرأت ذلك في القرار المؤرخ بتاريخ الثالث عشر بأنه تمت تسميتنا أنا ولوبو نيفيز كرئيساً ونائباً لمقاطعة، وعلى الفور كتبت رسالة إلى فيرجيليو وذهبت بعد ساعتين إلى غامبوا، مسكينة الدونا بلاسيدا، كانت تغرق أكثر وأكثر في حزنها. لقد سألتني إذا ما كنا سننسى هذه السيدة العجوز، وما إذا كان غيابنا سيستمر لفترة طويلة وإذا كانت المقاطعة التي سنسافر إليها بعيدة. لقد واسيتها لكني كنت بحاجة لمواساة نفسي، لقد أزعجتني اعتراضات كوتريم، وصلت فيرجيليا بعد ذلك بوقت قصير، وكانت مفعمة بالحيوية كسنونوة، لكن عندما رأتني كئيباً خمدت وتحدّثت بجديّة:

« ما خطبك؟»

« لا أعلم، لست متأكداً إن كان عليّ أن أوافق؟» قلت لها.

سقطت فيرجيليا على الأريكة ضاحكة وسألتني: » لما لا».

« لأن الأمر ليس مناسباً، ومن الواضح أن....».

« لكننا لم نعد نريد الذهاب بعد الآن».

« ماذا تقصدين؟».

أخبرتني أن زوجها رفض الترشيح ولأسباب لم يخبر بها أحداً سواها وحمّلها مسؤولية كتمان هذا السر، لأنه لم يتمكن من البوح بهذا الأمر لأي شخص آخر لأنه اعتبره « سبب سخيف ومثيرة للسخرية لكنه في النهاية سبب قويّ بالنسبة له». لقد أخبرني أن مرسوم الترشيح مؤرخ بتاريخ الثالث عشر وأن هذا التاريخ هو ذكرى مؤلمة بالنسبة له، فوالده توفي في الثالث عشر بعد ثلاثة عشر يوماً من العشاء الذي حضره ثلاثة عشر شخصاً. كما أن المنزل الذي توفيت والدته فيه يحمل الرقم ١٣، وحوادث أخرى مشابهة. إنه رقم مشؤوم، ولا يمكنه أن يعترف بهذا للوزير. لقد أخبرهم أن رفضه للترشيح يعود لأسباب شخصية تخصّه. لقد أصابني ما أصاب القارئ من دهشة لأنه ضحّى من أجل رقم، لكن بما أنه كان رجلاً طموحاً لذلك فمن المؤكّد أن تضحيته خالصة.

****

الصراع

أيّها الرقم المشؤوم، كم مرة باركتك؟ ولا بدّ أنها الطريقة ذاتها أيضاً التي باركت بها العذارى الصهباوات في مدينة طيبة الفرس ذي العُرف الخمري التي حلّت محلهن في تضحيات بيلوبيداس، فرس ساحرة ماتت هناك مغطّاة بالورود دون أن يرثيها أحد بأي كلمة. حسناً، أنا أمنحك فرساً بائساً ليس لأنك عانيت من الموت فقط، بل لأنه ليس مستحيلاً أن تكون جدّة الكوباسيين واحدة من العذارى اللاتي تم إنقاذهن....أيها الرقم المشؤوم، لقد كنت خلاصنا.

لم يعترف زوجها لي سبب رفضه للترشيح، أخبرني أيضاً أنه سبب شخصيّ، كما أنه قدّم صنيعاً للنفاق البشري بهذا الوجه المقنع والجاد عندما كنت أستمع إليه. كان الوحيد الذي لم يتمكن من إخفاء الحزن الذي يأكله، كان قليل الكلام، منعزلاً، ملازماً منزله للقراءة. وفي أحايين أخرى، كان يستقبل الضيوف، يتبادل الأحاديث، ويضحك كثيراً بجلبة وبعاطفة. كان هناك شيئان يسببان له الضيق، الطموح الذي تمت قصقصت جناحيه بالوساوس التي رافقها الشك مباشرة وربما الندم، لكنه ندم سيعود في حال تكررت الأمر، لأن بذور الخرافة حاضرة في داخله. وكذلك لديه شكوك حول الخرافة دون أن يتوصّل إلى يقين لرفضها. إن استمرار هكذا شعور مزعج لشخص ما هو ظاهرة تستحق بعض الاهتمام. لكني آثرت أن تبقى تراه ضفدعاً منقلباً على ظهره.

« وماذا في ذلك؟» سألتها

« إنّه أمر سيء» كانت إجابتها

بالنسبة لها، هذا الجواب وحده يساوي سبعة كتب مع أختامها. إنه شر، لقد أخبروها ذلك عندما كانت طفلة دون أن يشرحوا لها أي شيء، وكانت مقتنعة أنه يحمل أذى. حدث الشيء نفسه عندما كان هناك حديث عن الإشارة إلى نجم ما، حيث أنها تعلم حق المعرفة أن ذلك يمكن أن يسبب ثؤلولاً.

ثؤلول أو أي شيء آخر، ماذا كان يعني هذا لشخص ما خسر الرئاسة أو المقاطعة؟ يمكن التغاضي عن خرافة سخيفة ولا أصل لها. لكن ما لا يمكن التغاضي عنه هو الخرافة التي تحمل جزءاً من حياتك. تلك كانت مشكلة لوبو نيفيز مع خرافته بالإضافة للشكّ والرعب كونها خرافة سخيفة. كما أن هناك حقيقة أخرى وهي أن الوزير لم يصدق أن لوبو لديه أسباب شخصية لرفض الترشيح، واعتبرها مناورة سياسية من لوبو، خداع مبطّن ويحمل جوانب معيّنة. لقد تعامل معه بسوء ناقلاً عدم ثقته إلى زملائه، ثم تصاعدت الأحداث بعد ذلك، ولجأ الرئيس المستقيل إلى المعارضة.

****

القمّة

إنّ الشخص الذي ينجو من خطر ما، تعود الحياة لداخله من جديد وبقوّة. بدأت أحّب فيرجيليا أكثر من قبل وبشدّة بعدما كنت على وشك خسارتها وحدث ذات الشيء معها. وبهذه الطريقة منحتنا الرئاسة حياة جديدة لعاطفتنا العميقة. لقد كان الدواء الذي جعل حبّنا أكثر بهجة وأكثر تقديراً أيضاً. خلال الأيام الأولى التي تلت تلك الحادثة تسلّينا نحن الاثنان بتخيّل ألم الانفصال لو حدث بالفعل، كم كنا سنكون حزينين، وإلى أي مدى سيمتد البحر بيننا كقطعة قماش مطّاطة. وكما يلتمس الأطفال الدفء من صدور أمهاتهن هرباً من أي تجهّم بسيط، هربنا من خطر محدق بعناق بعضنا بعضاً بشدّة.

« حبيبتي فيرجيليا الرائعة».

« حبي».

« أنتِ ملكي، أليس كذلك؟».

« ملككَ.. ملكك..»

ومن ثمّ استعدنا خيط مغامراتنا كما فعلت السلطانة شهرزاد عندما حافظت على خيط سرد قصصها. وهذا ما كان بالنسبة لي ذروة حبّنا، إنه قمّة الجبل حيث يمكننا من هناك ولوقت معين أن نجوب الوديان حولنا من الشرق ومن الغرب، والسماء الزرقاء الهادئة فوقنا. قمنا باستراحة في ذلك الوقت، ثم بدأنا بالهبوط من ذلك المنحدر، ممسكين بأيدي بعضنا أو منفصلين، لكننا نهبط نزولاً.. نزولاً..

****

اللغز

وحالما شعرتُ أن هناك أمراً ما ونحن ننزل، لا أعلم إن كان حزناً أو شيئاً آخر، سألتها ما الخطب. كانت صامتة، يعلو وجهها تعبير ينم عن الانزعاج، الاضطراب والارهاق. ألححت عليها وأخبرتني بالأمر... شعرتُ بشيء رقيق يسري في كل جسدي، إحساس قوي، وامض ورائع، لا يمكن أبداً تدوينه على الورق. أمسكتُ يديها وسحبتها بلطف إليّ، قبّلتُ جبينها بسخاء إبراهيم. ارتجفت وأخذت رأسي بين يديها، حدّقت في عينيّ، فاجأتني بهذه الحركة الأمومية، ثمّة لغز في الأمر، فلنعطِ القارئ الوقت لفك شيفرة اللغز.

****

جيولوجيا

وقعت الكارثة في ذلك الوقت تقريباً، وفاة فيغاس، فيغاس الذي تعرّفنا عليه بالصدفة وقد أخمد الربو سنوات عمره السبعين وفككها الروماتيزم، وقلب دمّرته القسوة. كان أحد المراقبين اللطيفين لمغامرتنا. لقد بَنَت فيرجيليا آمالاً كبيرة على قريبها العجوز، البغيض، أنه سيحمي مستقبل ابنها ببعض ميراثه. ولو كان لزوجها أفكار مماثلة لكان سيتحفظ عليها أو يخفها. يجب قول كل شيء عن لوبو نيفيز: كان يتمتع بوقار أصيل وثابت، إنه طبقة صخر تحمّل وطأة العلاقات مع الناس، أمّا طبقاته الأخرى، أي الطبقات الخارجية من أرض رخوة ورمل، فقد قدمتها له الحياة بتدفق دائم. وإذا كان القارئ يذكر الفصل الرابع والعشرون فسيلاحظ أنها المرة الثانية التي أقارن فيها الحياة بالتدفق، لكن يجب أن يلاحظ أيضاً أني أضفتُ هذه المرة صفة « دائم». والله يعلم صلابة هذا الصفة وخاصة في البلدات المناطق الصغيرة والحارّة.

إن الجديد في هذا الفصل هي الجيولوجيا الأخلاقية للوبو نيفيز. فربما يكون هذا الشخص النبيل يقرأني الآن. نعم، إن طبقات شخصيته هذه قد غيّرتها وحافظت عليها أو أذابتها الحياة تبعاً لدرجة مقاومتهم، تستحق هذه الطبقات فصلاً كاملاً، لكن لن أقدِم على كتابة شيء كهذا ولن أجعل السرد يطول كثيراً. سأقول فقط إن أكثر الأشخاص نزاهة ممن قابلتهم في حياتي كان بالتأكيد كان جاكو ميديريوس أو جاكو فالاديرس، لا يمكنني أن أتذكر الاسم جيداً أيضاً. وقد يكون جاكو رودريغز، على أية حال إنّه جاكو. كان مثالاً للاستقامة. كان يمكن أن يصبح شخص ثرياً بالانصياع لأصغر وسواس راوده لكنه رفض. لم يسمح لنفسه بأن يتمتع بأكثر من أربعمائة كونتوس لا أكثر. تمتع باستقامة مثالية لدرجة أنه كان مضجراً من شدّة دقّته. وفي أحد الأيام، وبينما كنا نتسامر بمفردنا في منزله جاؤوا ليخبروه أن الطبيب ب، وهو صديق ممل، يبحث عنه. قال جاكو لهم: أخبروه أني لست موجوداً.

وصدح صوت من الرواق: » لن يفيدك هذا الكلام لأني جئت».

وبالفعل كان الدكتور ب هو من ظهر عند باب الصالون، نهض جاكو لاستقباله، قائلاً إنه كان يظن أن الزائر شخصٌ آخر، وليس الدكتور ب، مضيفاً أنه سعيد جداً بزيارته والتي استمرت لساعة ونصف الساعة من الملل القاتل لأن أكثر لأن جاكو أخرج ساعته، فسألته الدكتور ب إن كان يريد الخروج.

« نعم، سأخرج مع زوجتي» أجابه جاكو.

غادر الدكتور ب وأبدينا شعوراً بالراحة، لكن حالما التقطنا أنفاسنا أخبرت جاكو أنه كذب أربع مرّات في أقل من ساعتين. كانت أول مرة عندما ناقض نفسه، والثانية عندما أظهر سعادته بالزيارة المفاجئة للدكتور، والثالثة بقوله إنه يوّد الخروج، والرابعة بقوله إنه سيخرج مع زوجته.

فكّر جاكو للحظة، ثم اعترف بدقّة ملاحظتي، لكنه دافع عن نفسه بالقول إن الصدق المطلق يتضارب مع الوضع الاجتماعي الراقي حيث إن استقرار الوضع الاجتماعي في المدن لا يتحقق إلّا على حساب الخداع المتبادل... أووه تذكرت الآن، كان اسمه جاكو تافاريز.

****

الرجل المريض

لا داعي للقول بأني دحضتُ مثل هذه المعتقدات الوخيمة التي تترافق مع أكثر الحجج البدائية، لكن ما جعله يقول هذا هو انزعاجه الكبير من ملاحظتي محاولاً تبرير ذلك حتى النهاية، مظهراً احتداماً مزيّفاً بعض الشيء ليخدع نفسه.

كان تفكير فيرجيليا بالأمر أكثر جدية بعض الشيء، حيث كانت تردداً من زوجها، لقد تحدثت بشكل صريح عن أملها بشأن الميراث، مُغدقة على قريبها كل أنواع المجاملات والاهتمام والإغراءات التي من شأنها أن تثمر بتعديل الوصية على أقل تقدير. وليكون الكلام دقيقاً، لقد جاملته، لكن ملاحظتي كانت أن المجاملة عند النساء ليست ذاته عند الرجال. يميل الرجال نحو الخنوع، في حين أن المجاملة عند النساء ممزوجة بالعاطفة. إن الانحناءة الأنثوية الجميلة، الكلمة المعسولة، والضعف الجسدي، جميعها أشياء تصبغ المجاملة النسائية مسحة مقبولة ومظهراً مشروع. ولا يهم عمر الشخص الذي تغدق عليه المجاملات.

سيكون للمرأة دائما لمسة أنثوية خاصة بالأم أو بالأخت– أو حتى شيئاً من لمسة الممرضة، إنها مكانة أنثوية مختلفة حيث يفتقر أكثر الرجال مهارة لشيء من هذه المرونة والسلاسة.

هذا ما كنت أفكر فيه عندما تقدمت فيرجيليا بتحية دافئة لقريبها العجوز. ذهبت لمقابلته عند الباب، تتحدّث وتضحك، أخذت قبعته وعصاه، أعطته ذراعها وقادته إلى كرسيه « كرسي فيغاس»، وهو قطعة فنية خاصة، مريحة، مصنوعة من أجل المرضى أو كبار السن. كانت تهرع لتغلق أقرب نافذة إذا هناك أي نسيم أو تفتحها إذا كان الجو حاراً، لكن بالتمعّن جيّداً في هذا الأمر، نجد أنه سواء فتحت النافذة أو أغلقتها فإنه لا يستنشق.

« تبدو اليوم بحال أفضل، أليس كذلك؟»

« لقد كانت ليلة مرهقة، لم أتمكن من التخلص من هذا الربو الشيطاني».

كان الرجل يلهث، واستعاد قوّته تدريجياً من تعب صعود الدرج، وليس من المشي لأنه كان دائماً يأتي في عربة. كانت فيرجيليا تجلس بجانبه، إلى الأمام قليلاً على المقعد، يداها على ركبتيّ الرجل المريض. في غضون ذلك، كان السيّد الصغير يدخل الغرفة دون أن يقوم بقفزه المعتاد، كان أكثر تحفظاً، وديعاً، جاداً، وكان فيغاس مولعاً جداً به.

« تعال هنا أيها السيّد الصغير» كان يقول له هذا، وبجهد كبير يضع يده في جيبه الواسعة ليخرج منها علبة الدواء، يضع حبّة في فمه ويعطي الصغير الحبة الأخرى، إنهم حبوب لداء السّل، وقد تلذذ الطفل بالطعم.

وكان هذا يتكرر لكن بطرق مختلفة، منذ أن أحبّ فيغاس أن يلعب الداما، كانت فيرجيليا تلبي رغبته، تحمّلته لفترة طويلة وهو يحرّك الأحجار بيده التي كانت تتحرّك حركة ضعيفة وبطيئة.

وفي أوقات أخرى، كانوا يخرجون للتجوّل في الفناء، وكانت تعرض عليه بأن تسنده بيدها، لكنه لم يكن يقبل دائماً، قائلاً إنه قويّ وقادر أن يمشي فرسخاً لوحده. كانا يمشيان ثم يجلسان، ثم يمشيان مرة أخرى ويتحدثان في مواضيع مختلفة. كانا يتحدثان أحياناً في بعض المسائل العائلية، وأحياناً في الثرثرة التي كانت تحدث في المرسَم، وأخيراً عن المنزل الذي كان يفكر في بنائه ليقيم فيه بقية حياته، كمنزل من الطراز الحديث لأن منزله الحالي قديم جداً يعود إلى عهد الملك خوان السادس، كمنازل عديدة يمكن رؤيتها حتى الآن (على ما أظن) في منطقة ساو كريستوفاو، منازل قديمة تتصدرها قناطر عريضة، لقد فكّر باستبدال منزله الكبير الذي يقطن فيه، وكان قد طلب بالفعل مخططاً للمنزل الجديد من معماري مشهور ليصمم له المنزل. بالفعل، لاحظت فيرجيليا أنه كان عجوزاً بذائقة راقية.

لقد تحدّث كما كان يتخيّل، ببطء وصعوبة، مع توقّف مؤقّت بين الحين والآخر بسبب اللهاث، الذي لم يكن مريحاً بالنسبة له كما لم يكن مريحاً للآخرين. وكان يتعرّض لهجمة سعال من وقت لآخر، ينحني من شدّة السعال، يئن ويرفع منديله إلى فمه ليرى إن كان ثمة آثار دماء.

وعندما تنتهي نوبة السعّال كان يعود لخططه عن المنزل، والتي تتضمن هذه الغرفة وتلك الغرفة الأخرى، وشرفة وملحقاً للسائق، إنه تحفة جميلة.

على حافة الموت

« أنا ذاهبة غداً لقضاء يومي في منزل فيغاس، يا له من أمر مؤسف، ليس لديه معارف أو أصدقاء يزورونه» قالت فيرجيليا لي في إحدى المرّات.

تم وضع فيغاس في الفراش مرّة واحدة وللأبد، لقد تعرّضت ابنته المتزوجة لنوبة مرض شديدة في ذلك الوقت، و لم تتمكن من البقاء برفقة والدها، لكن فيرجيليا كانت تزوره من وقت لآخر. وأنا بدوري انتهزت الفرصة لقضاء يوم كامل مع فيرجيليا بحجة الذهاب لرؤية فيغاس. كانت الساعة الثانية بعد الظهر عندما وصلت إلى هناك، كان فيغاس يسعل بشدة مما جعلني أشعر أن صدري يحترق، وبين نوبة سعال وأخرى كان يساوم على سعر منزل مع صديق نحيل. عرض الصديق ثلاثين كونتوس على فيغاس كسعر للمنزل لكن فيغاس طلب أربعين، وبقي المشتري مصرّاً كشخص خائف من أن يفوته القطار لكن فيغاس لم يرضخ للضغط. في البداية رفض عرض الثلاثين كونتوس، ثم رفض مرة ثانية، ثم رفض مرة ثالثة، وأخيراً وقع بين براثن هجمة سعال أوقفته عن الكلام لخمس عشرة دقيقة. كان المُشتري أكثر قلقاً منه، حيث أعاد ترتيب وسائده، عارضاً عليه ستّاً وثلاثين كونتوساً.

تذمّر الرجل المريض قائلاً:» لن أقبل مطلقاً»، وطلب حزمة من الأوراق التي كانت على مكتبه، لم يكن لديه القوّة لنزع الشريط المطاطي عن حزمة الأوراق، لذلك طلب مني أن أفعل ذلك، وأنا استجبت لطلبه. كانت الأوراق عبارة عن بيانات عقارية تخص بناء المنزل الجديد: فواتير من المعماريّ والنجّار والرسّام. فواتير لورق جدران صالة الاستقبال ولغرفة الطعام وغرف النوم، والمكاتب. فواتير الأجهزة وأسعار كثير من الأشياء، كان يفتحهم فاتورة تلو الأخرى بيد مرتجفة وطلب مني أن أقرأها كل ورقة على حدة.

« انظر، ورقة بقيمة ألف ومائتان، إنها تكلفة كل غرفة، بالإضافة لمفاصل فرنسية، إنهم هدايا» ختم كلامه بعدما انتهيت من قراءة آخر فاتورة.....»

« حسناً، هذا جيد، لكن...».

« لن أقبل سوى بأربعين كونتوساً، ثم إنّ الفائدة...أضف الفائدة...».

تدفقت هذه الكلمات من فمه على شكل سعال، مقطع تلو الآخر، نفثهم كما لو أنهم فتات لرئتين متفتتين، وفي التجاويف العميقة كانتا عيناه تدوران وتلمعان، ذكرتني عيناه بضوء الليل.

وتحت الغطاء كانت ترتسم حركات عظام جسده، وتوقفت في نقطتين هما ركبتاه وقدماه. جلده المصفر، الرخو، المتجعّد بالكاد يغطي رأساً لوجه منزوع التعابير. قبعة من القطن الأبيض غطّت رأساً عرّاه الزمن.

« ماذا إذن؟» قال الرجل النحيل.

أشرت للرجل بأن يتوقف عن الكلام، وصمت لبضع لحظات.

حدّق الرجل المريض في السقف، صامتاً، يلهث بشدّة. أصبحت فيرجيليا شاحبة، وقفت وتوجهت إلى النافذة، شعرت أن الموت اقترب وأصيبت بالذعر. حاولت التحدّث عن أشياء أخرى، كذلك الرجل النحيل، سرد حكايا لكنه عاد لموضوع المنزل رافعاً المناقصة.

« ثمان وثلاثون كونتوس» قال.

« هاااا؟ « نخر الرجل المريض.

اقترب الرجل النحيل من السرير، أمسك يد فيغاس وكانت باردة. واقتربت أنا من الرجل المريض وسألته إن كان يشعر بشيء ما أو إن كان يريد كأس نبيذ.

« لا.. ليس أربعين...لا.....»

تعرّض لنوبة سعال عنيفة وكانت الأخيرة. استمرت فترة قصيرة، لكنها تحولت لنوبة فزع كبيرة بالنسبة للشخص النحيل، الذي اعترف لي أنه كان على استعداد لدفع أربعين كونتوساً لكن بعد فوات الأوان.

الحوار الأزليّ بين آدم وقابيل

انتهى كل شيء، فالذاكرة لا تعمل بإرادتنا، ولا حتى حبوب الربو ولذلك عندما انتهى كل شيء لم يبدُ عليه أنه جاحد للجميل أو متناسٍ، فالموت سحق كل التعابير. تجرّعت فيرجيليا هذا الفشل الصغير بغضب وأخبرتني بحذر شديد، ليس لأن الأمر مزعج بحد ذاته بل لأنه يتعلّق بابنها– على حد قولها– الذي تعلم أني لا أكن له أية مشاعر. اقترحت عليها أن تتوقف عن التفكير وألّا تشغل بالها بأمر كهذا، كان من الأفضل نسيان الميّت الأبلة، البغيض، البخيل والتفكير بالأشياء الجميلة فقط. بطفلنا، على سبيل المثال...

حيث كنت قد كشفتُ شيفرة السّر، ذلك السّر الجميل في الأسابيع القليلة الماضية عندما بدت فيرجيليا مختلفة مما تبدو عليه عادة. إنه طفل قادم، طفل من صلبي. ذلك فقط ما كنت أفكّر به في تلك اللحظة فقط، النظرات التي تراقبنا، شكوك زوجها، موت فيغاس، كل هذا لم يكن يعنيني في تلك اللحظة، ولا الصراعات السياسية ولا الثورات، ولا الزلازل ولا الكوارث الكونية ولا أي شيء على الإطلاق. كنت أفكر فقط بذلك الجنين مجهول النسب، لكن صوتاً خفيّاً همس لي:» إنه طفلك». طفلي، وبقيت أردّد هاتين الكلمتين بإحساس شهواني غامض ومؤكّد، ولا أعلم كم من مشاعر الفخر اعترتني، لقد شعرتُ أني رجل.

وأفضل شيء سأفعله هو أن نتبادل الأحاديث سوية، أنا والجنين، نتحدّث عن الأشياء الراهنة والأمور المستقبلية. لقد أحبّني هذا الوغد، كان شقيّ صغير ومرِح، لطمني قليلاً على وجهي بيديه الصغيرتين الممتلئتين، ومن ثم رسمَ رداء المحاماة لأنه كان سيصبح محامياً وسيقدّم خطاباً في مجلس النوّاب، وسيستمع له والده من مقصورته وستلمع عيناه بالدموع. ومن ممارسة المحاماة سيعود مجدداً إلى المدرسة، يحمل لوحه الصغير وكتبه تحت ذراعه، أو سيسقط بعدها في مهده وسيقف مجدداً كرجل.

حاولتُ جاهداً أن أجعله ثابتاً في عمر معين، وفي مظهر واحد لكن محاولاتي باءت بالفشل. سيكون لهذا الجنين نفس عينيّ وهيأتي وحركاتي. لقد رضع، كَتبَ، رقصَ الفالس، تجاوز كل الحدود في ربع ساعة، من طفل لنائب، من تلميذ لشاب أنيق.

أحياناً كنت أنسى كل شيء حتى فيرجيليا التي أجلس بجانبها، كانت تهزّني، وتؤنبني على سكوتي، وتتهمني بأني لم أعد أحبها أبداً، والحقيقة هي أني كنت فقط مشغولاً في الحديث مع الجنين، مع طفلي القادم، إنه الحوار الأزلي بين آدم وقابيل، محادثة دون كلمات، بين حياة وحياة أخرى، بين سرّ وسرّ آخر.

رسالة غريبة

في ذلك الوقت استلمت رسالة غريبة مرفقة بشيء لا يقل غرابة عنها، وهنا نص الرسالة:

عزيزي براس كوباس، استعرتُ منك ساعتك في وقت سابق عندما كنّا في منتزه باسيو بابليكو وإنه لمن دواعي سروري أن أعيدها لك مع هذه الرسالة، الفرق أنها ليست ساعتك نفسها بل ساعة أخرى، لن أقول إنها أفضل من ساعتك لكنها مساوية لها. ماذا تريد يا مولاي» كما قال فيجارو « إنه البؤس». حدثت أشياء كثيرة منذ أن تقابلنا، سوف أشرع بتعدادها بالتفصيل إذا لم تغلق الباب في وجهي. ثم هل تعلم، أني لم أعد أرتدي أحذية الصولجان تلك، ولا حتى ذلك المعطف الطويل الذي حتى حواشيه المرقّعة لم تعد في مكانها، لقد اختفت بفعل الزمن. استسلمت لخطواتي التي أخذتني إلى درج ساو فرانشيسكو وتناولت غدائي.

أقول هذا لك وأطلب إذنك بأن تسمح لي مرّة أن أضع أمامك عيّنة من عملي، إنها ثمرة دراسة طويلة، ونظام فلسفي جديد لا يكتفي فقط بشرح ووصف أصل الأشياء وتحقيقها، بل يقطع شوطاً أبعد مما توصل إليه زينو وسينيكا اللذين كان مذهبهما الرواقي مجرد لعبة للأطفال مقارنة بوصفتي الأخلاقية. هذا الأسلوب الخاص بي مذهل جداً حيث إنه يقوّم الروح الإنسانية، يكبح الألم، يضمن السعادة، وهذا ما سيملأ وطننا بمجد عظيم. أسمّي مذهبي هذا الإنسانية، المشتق من الإنساني. إنّه المبدأ التوجيهي للأشياء، لقد أفضت عجرفتي الأولى لافتراض عظيم وهو أن أسمي مذهبي البوربسية نسبة لإسمي بوربا، لكنه عنوان مغرور بالإضافة إلى كونه فجّاً ومزعجاً بعض الشيء، ومن المؤكد أنه اسم لا يحمل تعبيراً لائقاً. سوف ترى يا عزيزي براس كوباس، سترى أنّه حقاً نصب تذكاري عظيم، وإذا كان هناك أيّ شيء يجعلني أنسى مرارة الحياة فهي متعة بلوغي السعادة والحقيقة أخيراً، وها هما في يدي الآن، هذان الأمران الزلقان، بعد عدّة قرون من النضال والبحث والاكتشاف والطرائق والإخفاقات ها هما الآن في متناول الإنسان. إلى الوداع الآن، يا صديقي براس كوباس. أطيب التحيات. صديقك القديم:

يواكيم بوربا دو سونتو

قرأت هذه الرسالة دون أن أفهم شيئاً، لقد أرفقها بكيس أنيق يحتوي على ساعة أنيقة، محفور عليها الحروف الأولى من اسمي: ذكرى من كوينكاس القديم.

عدتُ إلى الرسالة، قرأتها مجدداً، ببطء، وانتباه أكثر. إن عودة الساعة تبعد أي فكرة خداع. يبدو أن الوضوح، الصفاء والقناعة– مع لمسة غرور، وبالطبع يبعدان أية شكوك بجنون الإنسان.

وبطبيعة الحال، حصل كوينكاس بوربا على ميراث من أحد أقربائه في ميناس جيرايس وهذه الثروة أعادت له كرامته السابقة. لن أؤكد بشكل مطلق، لكن هناك أشياء لا يمكن تعويضها بشكل كامل، ومع ذلك، فإن تجدد الإنسان ليس بالأمر المستحيل. وضعت الرسالة والساعة جانباً وتهيّأتُ الفلسفة.

****

رجل غريب

دعني أضع حداً لهذه الأشياء الغريبة، كنت أوشك على وضع الرسالة والساعة جانباً عندما جاء لرؤيتي رجل متوسّط الطول ونحيف يحمل رسالة من كوتريم يدعوني فيها للعشاء. كان حامل الرسالة صهر كوتريم- زوج أخته- ولم يمر على قدومه من الشمال سوى أيام قليلة، كان اسمه داماسينو وكان قد شارك في ثورة ١٨٣١، أخبرني هذا الأمر بنفسه خلال الدقائق الخمس التي تحدثنا فيها. وقد غادر ريو دي جانيرو أثر معارضته الوصيّ على العرش الملكي الذي كان مغفلاً لكنه أقل حماقة من وزيره، ومن جهة أخرى، كانت الثورة تشتعل من جديد. في تلك المرحلة، على الرغم من أن أفكاره السياسية كانت مشوشة إلى حد ما، إلا أني كوّنت فكرة عن تنظيم وصياغة الحكومة حسب رؤيته، فقال لي: ليست حكومة استبدادية مع المسالمين كما يقولون في مكان آخر، بل مع خُوَذ برقوق الحرس الوطني، إلا أنه لا يمكنني معرفة ما إذا كان يريد استبداد واحد أو ثلاثة أو ثلاثين أو ثلاثمائة شخص. لقد كان لديه آراء عديدة حول الكثير من الأشياء المختلفة، من بينها تطورات تجارة الرقيق الأفريقية وطرد العمالة الإنجليزية. كان يحب المسرح كثيراً، فبمجرد وصوله، ذهب إلى مسرح ساو بيدرو حيث حضر مسرحية رائعة بعنوان ماريا جوانا، وحضر كوميديا ممتعة جداً بعنوان كيتلي، أو العودة إلى سويسرا. لقد استمتع أيضاً بأوبرا ديبريني في عروض سابوه أو آنا بوليين فهو لا يذكر أيهما حضر. إلّا أن «كانديانى» كانت تغني للطبقة المخملية. والآن يريد أن يستمع لأوبرا إيرناني التي غنّتها ابنته في المنزل مع البيانو، إيرناني.. إيرناني.. إينفولامي.. قال ذلك وهو يقف منتصباً ويدندن؛ وقد بلغ صدى هذه الأعمال الغنائية بصوته إلى الشمال. كانت ابنته مغرمة بالاستماع إلى الأعمال الأوبرالية، ولديها صوت رائع، وذوّاقة جيّدة.

لقد كان توّاقاً جداً للعودة إلى ريو دي جانيرو، جال المدينة بطولها وعرضها يملؤه الحنين، أقسم أنه كاد يبكي في بعض الأماكن، لكنه لن يبحر أبداً مرة أخرى، لأنه أصيب بعدة أمراض

وهو على متن السفينة كجميع المسافرين الآخرين، ما عدا المسافر الإنكليزي، فليذهب المسافر الإنكليزي إلى الجحيم. لن تصبح الأمور بخير حتى يغادروا وطننا، ماذا قدّم لنا الإنكليز؟ لو أنه وجد بعض الرجال الشجعان لتمكن من طرد هؤلاء البحّارة الإنكليز في ليلة واحدة. نشكر الله أنّه كان رجلاً وطنياً، وبأنه قطع عهداً على نفسه وهو أمر لم يكن مفاجئاً لأنه كان شيئاً متعارفاً عليه في عائلته فهو ينحدر من سلالة عريقة ووطنية. نعم، لم يكن شخصاً عادياً. وعندما يحين الوقت سيعرف الجميع معدنه الأصيل.... قلت لحامل الرسالة إن الوقت تأخر لكن لن أضيّع فرصة العشاء معه، وبالنسبة له سيكون لنا حديث مطوّل، أوصلته إلى الباب الخارجي للمنزل، وقف قائلاً لي إنه شعر بنفسه شخصاً مقرباً جداً مني. عندما تزوج من أخت كوتريم كنت أنا حينها في أوروبا، وقال إنه كان يعرف والدي وأنه رجل مستقيم، شاركهم حينها حفلة رقص شهيرة في برايا غراند. سنتحدث في أشياء كثيرة فقد تأخر الوقت الآن، كان عليه أن يحمل جواباً إلى كوتريم لكنه غادر وأغلقت الباب خلفه.

****

العشاء

كان ذلك العشاء عبارة عن تمثيلية! ولحسن الحظ أجلستني سابينا بجانب ابنة داماسينو، دونا يولاليا، أو كما يدعونها بالاسم الأكثر تحبباً وهو « نوها لولا»، فتاة جذّابة، كانت خجولة قليلاً في البداية، فقط في البداية. تفتقد للباقة، لكن ما غفر لها هو عيناها الفاتنتان اللتان كانتا مثبتتين عليّ طوال وقت العشاء و لم تخفضهما إلا عندما نظرت في صحنها. لكنها لم تأكل سوى الشيء القليل حيث قلّما ما نظرت في طبقها. وخلال السهرة أثناء العشاء قامت بالغناء، كان صوتها كما قال والدها « جميل جداً»، ومع ذلك، خرجتُ خلسة. رافقتني سابينا حتى الباب وسألتني عن رأيي بابنة داماسينو.

« إنها جميلة»

« بل هي جميلة جداً، أليس كذلك؟» وأردفت « تنقصها اللباقة وتحتاج بعض الاهتمام في تصرّفاتها، لكنها طيّبة القلب، إنها كاللؤلؤة، إنها العروس المناسبة لك».

« لكني لا أحب اللاآلئ».

« يا لك من أحمق، متى ستصبح حياتك مستقرة، متى ستتخلى عن غرورك، متى ستصبح ناضجاً، أعلم ذلك، حسناً عزيزي، سواء كنت تريد أم لا تريد، ستتزوج من نوها لولا». قالت ذلك ونقرت على وجهي بأصابعها، بخفة كحمامة، وبنفس الوقت بحزم وإصرار. يا إلهي، هل كان هذا سبب مبادرتها بالصلح؟ لقد أزعجتني هذه الفكرة بعض الشيء، لكن صوتاً خفياً كان يدعوني للذهاب إلى منزل لوبو نيفيز، لذلك ودّعتُ سابينا ومسرحها وغادرت.

****

السبب الخفيّ

« كيف حال عزيزتي الأم الصغيرة؟» عبستْ فيرجيليا عند سماعها هذه الكلمات كعادتها. كانت جالسة بالقرب من إحدى النوافذ بمفردها تنظر إلى القمر وقد ردّت التحيّة بفرح ولكنها عبست عندما أتيت على ذكر طفلنا. لم يروقها تلميحي لهذا الأمر، وأزعجها اهتمامي الأبويّ السابق لأوانه، فتركتها لوحدها. وأنا الذي كانت فيرجيليا بالنسبة لي شخصاً مقدساً، أمبولة مقدّسة [1].

لقد تداعى إلى مخيّلتي في بداية الأمر أن هذا الجنين، هذا المخلوق الغريب الذي سينضم لمغامرتنا، أعاد لها الشعور بالخطيئة، لكني كنت مخطئا. لم تبدو فيرجيليا أبداً أنها أكثر انفتاحاً ولا أقل تحفظاً، أقل اهتماماً حيال الأشخاص الآخرين وحيال زوجها. لم تكن نادمة. وتخيّلتُ أيضاً أن فكرة الجنين ليست سوى مجرّد اختلاق، أو طريقة لتربطني بها، مجرّد ملاذ لن يدوم طويلاً وربما بدأ هذا الأمر يزعجها. و لم تكن هذه الفرضية مناقضة للواقع، لأن حبيبتي فيرجيليا كانت تكذب أحياناً، وبطريقة مقنعة جداً.

اكتشفت السبب الحقيقي في تلك الليلة، كان السبب الإزعاج الذي يسببه الحمل والشعور بالخوف من عملية الولادة. فقد عانت الأمرّين عند ولادة طفلها الأوّل، حيث شعرت بحبل المشنقة في تلك الساعة واختبرت الحياة والموت في آن معاً. أما بالنسبة لإزعاج الحمل فقد كان الأمر أكثر تعقيداً ومرتبطاً بالحرمان القسري لبعض عادات حياتها المترفة. من المؤكّد أنّ هذا هو السبب، بكل تأكيد. لقد دفعتها لتفهم ذلك، وبّختها قليلاً بحجة حقوقي الأبوية، حدّقتْ فيرجيليا بي ثم أزاحت نظرها على الفور، وابتسمت وكأنها لم تصدّقني.

---

١ الأمبولة: زجاج مقدّس يصنع منه القوارير الزجاجية في روما القديمة ويعتقد أن له أصولا إلهية.

أزهار العام الفائت

أين هم، أزهار العام الفائت؟ في ظهيرة أحد الأيام وبعد عدّة أسابيع من الحمل، تلاشى مخطط أحلامي الأبوية بالكامل، اختفى الجنين في موضع لا تكون قادراً فيه أن تميّز بين لابلاس وسلحفاة ما. وصلتني الأخبار مباشرة من فم لوبو نيفيز الذي تركني في الردهة ومضى برفقة الطبيب إلى غرفة نوم الأم المحبطة. اتكأت على النافذة، محدّقاً في الفناء الخارجي حيث كانت أشجار البرتقال خضراء بدون أزهار، أين ذهبت، الأزهار التي كانت العام الماضي؟

****

الرسالة المجهولة

شعرتُ بلمسة يد على كتفي، التفتُ وإذ به لوبو نيفيز، بقينا صامتتين لدقائق، لا شيء يواسي حزننا. سألته عن فيرجيليا ثم تجاذبنا أطراف الحديث مدة نصف ساعة. وبحلول النصف ساعة أحضروا له رسالة، قرأها وأصبح شاحباً، ثم طواها بيد مرتجفة. أظن أني لاحظت عزمه القيام بحركة معيّنة وكأنه يريد أن ينقضّ عليّ، لكني لا أذكر ذلك جيداً، ما يمكنني تذكره بوضوح هو أنه في الأيام التي تلت هذه الحادثة كان يسلّم عليّ ويتجنّب الحديث معي. وأخيراً، وبعد عدّة أيام. أخبرتني فيرجيليا بكل شيء، كنّا حينها في غامبوا. لقد كشف لها زوجها أمر الرسالة حالما تعافت. كانت الرسالة من شخص مجهول وكانت تتحدّث عن علاقتنا، ليس كل شيء تماماً لكن على سبيل المثال: لقاءاتنا الخارجية، واقتصرت على تحذيره من علاقتنا الحميمية وأضافت أن الشكوك كانت حديث الجميع. لقد قرأت فيرجيليا الرسالة وقالت بسخط أن هذا الكلام هو تشهير خسيس.

« تشهير؟» سألها لوبو نيفيز

« وخسيس!».

أخذ لوبو نفساً عميقاً وأعاد قراءة الرسالة أمامها ومع كل كلمة كان يرددها كان يلوّح بإصبعه بحركة سلبية وكان مع كل حرف يردده كان يصرخ في وجه زوجته الساخطة. هذا الرجل الذي كان مقداماً وصلباً، أصبح الآن أكثر المخلوقات هشاشة. ربما أوحت له تخيّلاته أن عيون العامة تسخر منه وتحدّق به عن بُعد بنذالة. ربما هناك صوت خفيّ يردد على مسمعه تلك التلميحات التي سمعها من قبل أو ذُكرت أمامه. لقد طلب من زوجته أن تعترف له بكل شيء وسوف يسامحها على كل شيء. شعرت فيرجيليا أن هذا خيار آمن فتظاهرتْ بأنها منزعجة من إلحاحه،

وأقسمت أنها لم تسمع مني سوى بعض كلمات المزاح والمجاملة. وأن الرسالة لا بدّ أن تكون من عاشق عاثر الحظ. وأخبرته عن أحدهم ممن غازلوها بشكل معلن مدّة ثلاثة أسابيع، وآخر كتب لها رسالة، وما يزال هناك أشخاص آخرون وآخرون. أعطته أسماءهم والظروف التي قابلتهم بها، قالت كل هذا وهي تحدّق في عينيّ زوجها وانتهت بالقول بأنها - ولكي لا تفسح المجال لهذا الخسيس- فقد عاملتني بطريقة فظة كي لا أفكّر بالعودة إلى هذا المنزل مرة أخرى.

لقد استمعتُ بدوري إلى كل هذا الكلام بشيء من القلق، ليس لأنها أضافت واختلقت شيئاً لم يحدث والذي سيكون من الضروري التقيّد به من الآن وصاعداً وهو أن أبتعد كلياً عن منزل لوبو نيفيز، وإنما بسبب هدوءها البارد، عدم غضبها، وعدم خوفها، وتنكّرها لذكرياتنا، وحتى عدم شعورها بتأنيب الضمير. لاحظت فيرجيليا قلقي، فرفعتُ رأسي لأني كنت محدقاً في الأرضية، ثم قالت لي بشيء من المرارة:

« إنك لا تستحق كل هذه التضحيات التي أقوم بها من أجلك».

لم أنطق بكلمة واحدة أردّ بها على فيرجيليا فقد كان من غير المجدي أن أعيد إلى ذهنها كيف أنّ قليلاً من الإحباط والخوف من شأنه أن يضفي إلى موقفنا هذا طعماً كاوياً، هو ذات الطعم الذي تجرّعناه فيما مضى. لكن لو أخبرتها بذلك، لو أمكنني فعل هذا، بهدوء وبتكلّف، لكانت ستشعر بذات الخوف والإحباط. لذلك التزمتُ الصمت وكانتْ تنقر الأرض بمقدمة حذائها بشكل ينم عن غضبها، اقتربتُ منها وقبّلتها على جبينها، فتراجعت فيرجيليا خطوة إلى الخلف وكأن قبلتي كانت من رجلٍ ميّت.

****

بين الفم والجبين

يمكنني أن أتحسس رجفة القارئ أو أنه من المفروض أن يرتجف، لأنه بطبيعة الحال، ستكون الكلمات الأخيرة قد أوحت له بثلاث أو أربع أفكار. انظر جيداً إلى المشهد عزيزي القارئ. في منزل صغير في غامبوا، هناك شخصان مغرمان ببعضهما منذ وقت طويل، يميل العاشق على محبوبته، يقبّلها على جبينها لكنها تتراجع إلى الخلف كما لو أنّ القبلة كانت من ثغر جثّة.

إنّك تقبع في المساحة الصغيرة بين الفم والجبين، قبل القبلة وبعدها، هناك، في تلك النقطة، لديك مساحة كافية للقيام بالكثير من الأشياء، مثلاً: تكشيرة مستاءة، تجعيدة مرتابة وأخيراً أنف شاحب ونعِس من التخمة.

الفصل المكبوت

افترقنا بمحبة وبمزاج جيّد، قبلتُ تناول العشاء ليكون بمثابة صلح بيننا. لقد أعادت هذه الرسالة المجهولة ملح الغموض وفلفل الخطر لمغامرتنا، وفي نهاية الأمر كان من الجيّد أن فيرجيليا لم تفقد سيطرتها على نفسها في هذه المحنة.

ذهبتُ في تلك الليلة إلى مسرح ساو بيدرو وكانوا يؤدون مسرحية رائعة وكانت استيلا وهي إحدى شخصيّات المسرحية تذرف الدموع. دخلتُ المسرح وجلتُ بعيني على المقصورات، كان داماسينو وعائلته يجلسون في إحداهن. كانت ابنته ترتدي فستاناً جديداً وأنيقاً جداً، كان من الصعب فهم سبب هذه الأناقة الفاحشة إلا أن داماسينو صرف ما يكفي من الأموال التي من شأنها أن تثقله بالديون، أظن أن هذه الأموال هي مصدر أناقة ابنته.

ذهبتُ لألقي عليهم التحيّة في فترة الاستراحة. رحّب بي داماسينو بحفاوة كبيرة وغمرتني زوجته بالابتسامات أما بالنسبة لابنته فلم تشِح نظرها عني. بدت لي أجمل من المرة الماضية عندما كنا على العشاء. وجدتُ فيها نعومة سماوية ممزوجة برقّة المخلوقات الأرضية وهو تعبير غامض ويحتاج لفصل كامل من الشرح ومع ذلك سيكون كل شيء مُبهم في هذا الفصل في حال فكّرت بشرحه. لا أعرف حقاً كيف أصف لكم هذا فلم يكن الجلوس بجانب الفتاة المرتدية فستاناً مزرّراً بأناقة أمراً سيئاً، أثارني هذا الفستان بطريقة طرطوفية، وعندما كنت أتأمل كيف أن هذا الفستان غطّى ركبتيها بالكامل وباحتشام، توصلت بفطنتي إلى اكتشاف ماكر وهو أن تنبؤ الطبيعة للكساء البشري، كان ظرفاً ضرورياً لتطوّر الأنواع البشرية. حيث إن التعرّي المعتاد وتعدد الأعمال واهتمامات الأفراد، من شأنه أن يضعف الحواس البشرية ويعيق النشاط الجنسي، فارتداء الملابس وخداع الطبيعة، يشحذ الرغبات ويجذبها، ويجعلها نشطة وحيّة وبالنتيجة هذا هو وقود الحضارة البشرية. إنها عادة مقدّسة وصلتنا شخصية عطيل والطرود عبر الأطلسي.

تملكني حاجة مُلحّة لأزيل هذا الفصل، لأنه منحدر زلِق، لكن بالرغم من كل هذا فأنا أكتب مذكّراتي وليست مذكراتكم أعزائي القرّاء المسالمون.

بدوتُ وكأني سُحرت بمشاعر مزدوجة وغامضة وأنا بجانب هذه العذراء الساحرة، لقد كانت تمثل وصفاً دقيقا لثنائية باسكال (الجميلة والوحش) مع فارق أن المذهب اللاهوتي لن يعترف بتوافق كلتا الطبيعتين، في حين أنهما منسجمين مع بعضهما. الجميلة التي كانت تقول بعض الأشياء السماوية، والوحش الذي....لا فعلى الأغلب سأقوم بكبح هذا الفصل.

في الأوركسترا

وفي مسرح الأوركسترا أيضاً وجدت لوبو نيفيز جالساً في أحد المقاعد يتبادل الأحاديث مع بعض أصدقائه. تحدّثنا بشكل سطحي وببرود فكلانا مكره على ذلك، لكن خلال الاستراحة التالية، عندما كانت الستائر على وشك أن ترفع، تقابلنا في أحد الممرّات و لم يكن ثمة أحد سوانا، تقدّم لوبو نحوي ضاحكاً وبدماثة، دفعني لنقف قرب أحد نوافذ شرفة المسرح، تحدثنا مطوّلاً، خاصة هو، مع أنه كان يبدو من أكثر الرجال صمتاً. سألته عن زوجته وأخبرني أنّها بخير، لكنه سارع إلى الحديث في الأمور العامة، تحدث براحة وبمرح كبير. وأياً كان، فإن أي شخص يمكنه إذا أراد أن يُخمّن سبب هذا التغيير الذي طرأ في موقفٍ لوبو. حاولت أن أبتعد عن مرمى نظر داماسينو الذي كان يراقبني عن كثب من باب مقصورته.

فاتني المشهد الثاني من المسرحية و لم أسمع أي شيء، لا كلمات الممثلين ولا تصفيق الجمهور. عُدتُ إلى مكاني في المقصورة، كنت أستعيد في عقلي محادثتي مع لوبو، أتمحّص أسلوبه الجديد، وخلُصتُ إلى أنّ الموقف الأخير بيننا كان أفضل بكثير من قبل.

كل ما كان يلزمنا هو العودة إلى غامبوا، لأن زيارة المنزل الآخر سوف تثير الشكوك، يمكننا الذهاب بكل تأكيد لكن بدون أن نتبادل الأحاديث اليومية، سيكون هذا أفضل أيضاً، لأنه سيعيد الشوق إلى حبّنا، الشوق الذي اعترانا في فترة انفصالنا. إلى جانب ذلك، كنت على أبواب الأربعين ومن عمري و لم أحقق شيئاً، و لم أشارك حتى بعملية انتخاب في المنطقة. كان من الضروري أن أقوم بعمل ما، حتى لو من أجل حبّ فيرجيليا التي ستكون فخورة برؤية اسمي يلمع، شعرت بعظمة الأمر وشدّة التصفيق في داخلي، لكنني لست متأكداً ولا يمكنني أن أقسم على ذلك، فقد كنتُ أفكّر بأمر آخر.

أيتها الجماهير، التي أطمع بحبّها لي حتى الموت، هكذا كنت أنتقم منكم في بعض الأحيان. تركت البشرية تهتاج حول جسدي دون أن أسمعهم كما فعل بروميثوس في أسطورة أسخيلوس مع جلّاديه. هكذا كنت أنتقم من البشر في بعض الأحيان. أوه، هل حاولتم أن تقيّدوني من قبل بصخرة عبثيّتكم، لا مبالاتكم، أو صخرة اضطرابكم؟ كم هي هشّة هذه السلاسل يا أصدقائي، سأحطمها كما فعل غوليفر. وإنّه لمن الطبيعي جداً أن تنطلق نحو البراري، وأن تنصرف للتأمل.

إن هذه الشهوة الاستثنائية التي تعتري الإنسان هي من أجل أن ينأى بنفسه في بحر من الإشارات والكلمات، بحر من الأحاسيس والعواطف، ويعلن أنّه منطوٍ على نفسه، وغائب. إن

أكثر ما يمكن أن يقولوا عنه عندما يعود لطبيعته مجدداً – هو أنه عندما يكون غير ذاته– يبدو لهم وكأنه هبط من عالم القمر، لكن عالم القمر، تلك العليّة المستنيرة والحكيمة في الدماغ. ماذا يمكن أن يكون هذا سوى أنه تأكيد لازدراء حريتنا الروحية؟ بحق السّماء، إنها طريقة جيدة لإنهاء هذا الفصل.

****

الأمر المرجّح

لو لم يكن هذا العالم فضاء للأرواح المهملة فلن يكون من الضروري تنبيه القارئ أني أصادق فقط على قوانين معيّنة عندما أمتلكها في الحقيقة. أمّا بالنسبة للآخرين فإن مهمتي تقتصر على الاعتراف بإمكانياتهم. وخير مثال يمكن تقديمه عن الحالة الثانية هو الأساس الذي يشكّل الفصل الراهن والذي أوصي جميع الأشخاص بقراءته ممن تروقهم دراسة الظواهر الاجتماعية. وكما يبدو لنا أنّه ليس بعيداً عن مرمى الاحتمالات أن يكون ثمة نشاط بين مجريات الحياة العامة ومجريات الحياة الخاصة وهو بالتأكيد نشاط متبادل، منتظم، وربما يكون دورياً، أو لتخيّل الأمر، سيكون شيئاً مشابهاً للمدّ والجزر في شاطئ فلامينغو مع أمواج أخرى مقابلة ترتفع بنفس الدرجة. وبالفعل عندما تنقضّ الموجة على الشاطئ فإنها تتوغّل في عمقه عدة أقدام. لكن هذا الماء نفسه الذي يغمر الشاطئ يعود إلى البحر حاملاً قوّة متغيّرة ويمضي ليشكّل جزءاً من الموجة القادمة والتي حكماً ستعود كما إلى حالة الموجة الأولى. هكذا تكون اكتملت الصورة. دعونا نلقي نظرة على كيفية تطبيقها.

لقد قلت في مكان آخر إنه تمت ترشيح للوبو نيفيز لرئاسة المقاطعة لكنه رفض الترشيح بسبب تاريخ القرار الذي كان في الثالث عشر. لكن الأمر الخطير الذي نتج عن هذا الرفض هو الشرخ بين الوزير وبين لوبو نيفيز. وكان هذا الحدث الخاص بين هذين الشخصين نذير شؤمٍ لظاهرة شقاق سياسية. يبقى أن نرى– بعد هذه الحادثة– كيف أن حدثاً سياسياً من شأنه أن يعطّل أمور الحياة الخاصة. وبما أنه من غير المناسب أن يقوم هذا الكتاب بوصف الظواهر الأخرى بشكل مباشر، لذلك سأكتفي بالقول أن لوبو نيفيز وبعد أربعة شهور من لقائنا في المسرح قد اتفق مع الوزير على أمر ما، ما يثبت حقيقة أن القارئ يجب ألّا يفقد بصيرته إذا كان يرغب في اختراق تفكيري والنفاذ لداخله.

الثورة الدلماسية

لقد كانت فيرجيليا من أخبرتني بآخر المستجدات السياسية التي تخص زوجها، عن ملامح أحد اللقاءات المؤكدة في أحد صباحات شهر أكتوبر بين الحادية عشرة صباحاً ووقت الظهيرة. لقد أخبرتني باللقاءات والمحادثات والخطابات...

قاطعتها قائلاً:» إذن، إنّك على وشك أن تصبحين بارونة هذه المرّة». زمّت فمها وهزّت رأسها شمالاً ويميناً. لكن حركة اللامبالاة هذه تقاطعت بعض الشيء مع تعبير غير واضح الملامح لكنه ينم عن الفرحة العارمة والتطلّع للمنصب. لا أعرف لماذا، ولكني تخيّلت أن رسالة التعيين الإمبراطورية كانت كفيلة بجرّها إلى الفضيلة وإلى العفّة الزوجية، لن أقول إن هذه العفّة نابعة من داخلها، لكنها جاءت بدافع الامتنان لزوجها. لأنها كانت مخلصة لمنصبه وليس لشخصه. إن أحد أكثر الأشياء المثيرة للاستياء والتي ظهرت في حياتنا كانت ذلك الرجل الأنيق في وفد البعثة، دعونا نطلق عليه اسم الوفد الدلماسي- كاونت بي- الذي لاحقها لثلاثة أشهر. ذلك الرجل، كان من طبقة النبلاء، أصيلاً أباً عن جد، وقد لفت انتباه فيرجيليا قليلاً لأن العمل الدبلوماسي كان من بين الأمور التي تروق لفيرجيليا. لا يمكنني تخيّل ما كان قد يحدث لي في حال لم تندلع الثورة في دالماسيا التي أطاحت بالحكومة وطهّرت سفاراتها.

كانت الثورة دموية، موجعة ومرعبة، وقد وصفت الصحف كمية الرعب والدماء المسفوكة وعدد الرؤوس المقطوعة مع كل سفينة كانت تأتي من أوروبا. كان الجميع يشعرون بالغضب والشفقة.. ليس أنا فقط. لكن كنت أحمد حدوث هذه المأساة في داخلي لأنها أزالت الحصاة من حذائي. ثم إنّ دالماسيا بلد بعيد.

****

في الوقت المناسب

لكن هذا الرجل هو نفسه الذي شعر بسعادة غامرة برحيل الرجل الآخر، قام فيما بعد..... لا لن أتحدث عن الأمر في هذه الصفحة.

د ع هذا الفصل ينتظر حتى يخف انزعاجي، لن أتي على ذكر هذا العمل الخسيس والفظّ، إنه أمر لا يمكن شرحه... وأنا أكرر، لن أسرد ما حصل في هذه الصفحة.

لا يا سيدي، لا تسري الأمور على هذا النحو، كانت الدونا بلاسيدا على حق. فليس هناك رجل نبيل يتأخر ساعة في الوصول إلى حبيبته التي تنتظره، وصلتُ ألهث وكانت فيرجيليا قد غادرت. أخبرتني الدونا بلاسيدا أنها انتظرت لوقت طويل، ثم غضبت، بَكَتْ، وأقسمت أنها تحتقرني، وأشياء أخرى قالتها مدبرة منزلنا مع تنهدات في صوتها، طالبة مني ألّا أتخلّى عن فيرجيليا لأنه سيكون من الظلم التخلي عن فتاة ضحّت بكل شيء من أجلي. شرحت لها بعد ذلك أنه حدث خطأ ما ولكن الأمر في الحقيقة لم يكن كذلك. أعتقد أنه كان مجرّد انشغال، كلمة، محادثة، حكاية، أي شيء، لكنه كان انشغالاً. مسكينة الدونا بلاسيدا فقد كانت مستاءة حقاً، تمشي ذهاباً وإياباً وهي تهزّ رأسها، تتنفّس بثقل، تختلس النظر من خلال الستارة.

مسكينة الدونا بلاسيدا! بأي براعة أخفت، داعبت ودللت حِيَل حبنا! يا لها من مخيّلة خصبة جعلت الساعات تنقضي بسرعة وبمتعة أكثر!

كل ما بذلته من أجلنا، الزهور والحلويات، الحلويات اللذيذة في الأوقات الأخرى، الكثير من المداعبات والضحك الذي زاد مع مرور الوقت، وكأنها أرادت الحفاظ على مغامرتنا أو إعادتها إلى تفتّحها الأول. لم تنس قريبتنا ومدبرة منزلنا أي شيء، حتى الأكاذيب، لأنها كانت تذكر تلميحات وأشواق لم تحصل، لم تترك أي فرصة لإذكاء الحب والغيرة بيننا، لم تنس شيئاً حتى الافتراء لأنها اتهمتني مرّة بوجود حب جديد في حياتي.

« أنت تعلمين أنه لا يمكنني أن أعشق امرأة أخرى»، كان هذا ردي لفيرجيليا من قبل عندما تحدثت معي في أمر مشابه. وبهذه الكلمات البسيطة التي قلتها للدونا بلاسيدا دون احتجاج أو تأنيب، تخلصت بها من اتهاماتها وتركتها في حزن.

« حسناً» قلت لها بعد ربع ساعة وتابعت» يجب على فيرجيليا أن تعترف أنه لا يمكنها لومي، هل تريدين أن توصلي لها رسالتي هذه الآن؟».

« لا بدّ أنها حزينة للغاية! إنه أمر محزن. انظر، لا أريد الهلاك لأي منكما لكن إذا ما توصلت إلى الزواج من فيرجيليا فسترى كم هي ملاك».

أذكر حينها أني أشحتُ بنظري ونظرت على الأرضية، أوصي الأشخاص القيام بهذه الحركة ممن ليس لديهم جواب جاهز أو المجبرون على النظر في أحداق عيون الآخرين. في مثل هذه

الحالات يفضل البعض ترتيل مقطع من اللوسيادا [1] بينما يختار الآخرون الاستعانة بصفير نورما. سألتزم أنا بهذه الحركة التي ذكرتها، لأنها أبسط ولا تتطلب جهداً كبيراً، وبعد ثلاثة أيام تم توضيح كل شيء. لقد تخيّلتُ أنّ فرجيليا كانت منذهلة قليلاً عندما طلبتُ منها أن تسامحني عن الدموع التي ذرفَتها في ذلك الحين. ولا أذكر إن كنت قد نسبتُ ضمناً بعض للدونا بلاسيدا، لأنه من الممكن جداً أن تكون الدونا بلاسيدا قد بكت عندما رأت فيرجيليا مستاءة، ومن خلال خيالي بدت الدموع في عينيها وكأنها تنهمر من عينيّ فيرجيليا. ومهما كان الذي حصل، فقد تم شرح كل شيء، لكنها لم تسامحني ناهيك أنها لم تنس. قالت لي فيرجيليا أشياء قاسية، وهددتني أنها ستنهي العلاقة بيننا، وانتهى بها الأمر بمدح زوجها.

نعم إنك رجل نبيل، وجدير بالاهتمام وجذّاب بالنسبة لي، إنك مثال للباقة وللحب. هذا ما قالته فيرجيليا لي وأنا أجلس واضعاً يديّ على ركبتيّ، ناظراً إلى الأرضية، حيث رأيت ذبابة تجرّ نملة كانت تعقص رجليها، يا للذبابة المسكينة! يا للنملة المسكينة!

« أليس لديك ما تقوله؟» قالت لي فيرجيليا وهي تقف بجانبي.

« ماذا يمكن أن أقول بعد؟ لقد شرحت كل شيء لك وأنت تصرين على غضبك. ماذا يمكن أن أقول بعد. هل تعلمين بماذا أفكّر؟ أظن أنك متعبة، وتشعرين بالضجر، وأنك تريدين إنهاء.....».

« بالضبط».

وضعت قبعتها بحنق، ويداها ترتجفان وقالت « وداعاً دونا بلاسيدا وهي تصرخ ثانية. مضت إلى الباب وكانت على وشك المغادرة، أمسكت بها من خصرها، وقلت لها « حسناً، كل شيء على ما يرام» لكنها كانت ما تزال تصر على الرحيل. أمسكتها مرة أخرى طالباً منها البقاء، ونسيان ما جرى، عادت من الباب وجلست على الأريكة. جلستُ بجانبها وحدثتها عن كثير من الأشياء الجميلة بيننا، بعضها ودودة وبعضها مضحك. و لم أكن متأكداً فيما إذا كانت شفاهنا أقرب من خيطيّ كتان، أو أقرب من ذلك.

إنها مسألة خلاف، أذكر أنه أثناء اضطرابنا أنا وفيرجيليا سقط أحد الأقراط من أذنيها على الأرض وبينما انحنيت لالتقاطه كانت تلك الذبابة الصغيرة تحاول تسلّق القرط وما تزال النملة بين قدميها. وأنا بهذه الرقة الفطرية لرجل يعيش في هذا القرن، أخذت في راحة كفي هاتين المخلوقتين الذليلتين. حسبت المسافة بين يدي وكوكب زحل، وسألت نفسي عن العامل المشترك

---

١ اللوسيادا: قصيدة ملحمية برتغالية كتبها لويس فاس دي كامويس.

الذي يمكن أن يكون في حادثة بائسة كهذه. وإذا استنتجتَ من ذلك أني كنت بريئاً فأنت مخطئ لأني طلبت من فيرجيليا دبوس شعر لأفصل بين الحشرتين. لكن الذبابة استشعرت نيّتي ففتحت جناحيها وطارت. ذبابة مسكينة ونملة مسكينة. ورأى الله أنه كان عملاً خيّراً كما يقول الكتاب المقدّس.

مكتبة
t.me/soramnqraa

****

لقد كان هو

أعدتُ إليها مشبك شعرها ووضعته هي بدورها في شعرها وهيأت نفسها للمغادرة. كان الوقت متأخراً حيث دقت الساعة الثالثة وكنا قد نسينا كل شيء وتصالحنا. كانت الدونا بلاسيدا تترقب اللحظة المناسبة للمغادرة وفجأة أغلقت النافذة وصرخت (يا مريم العذراء! إنّه هو زوج إيايا) كانت لحظة الهلع قصيرة ولكنها كانت مخيفة تماماً. انخطف لون فيرجيليا وأصبح لونها كلون فستانها الدانتيل، وركضت باتجاه باب غرفة النوم. وكانت الدونا بلاسيدا قد أغلقت الستائر وتحاول أن تغلق الباب الداخلي للمنزل. وأصبحت أنا جاهزاً بانتظار لوبو نيفيز وانقضت تلك اللحظة القصيرة. عادت فيرجيليا لوعيها ودفعتني باتجاه غرفة النوم وطلبت من الدونا بلاسيدا أن تغلق النافذة وقدّمت كاتمة أسرارنا كامل الطاعة. لقد كان هو، فتحت الدونا بلاسيدا الباب، تملأها الدهشة والمفاجئة: هذا أنت يا سيدي، شرّفت منزل زوجتك؟ تفضل بالدخول. « خمّني من أتى... لا داعي لأن تخمّني، لأن هذا هو سبب قدومك... اخرجي يا إيايا).

ركضت فيرجيليا التي كانت تقف في إحدى الزوايا إلى زوجها وأنا كنت أتجسس عليها من ثقب قفل الباب. دخل لوبو نيفيز ببطء شاحبا وهادئا دون صخب وقد جالت عيناه الغرفة كلها.

سألت فيرجيليا باستغراب:» ما هذا؟ ماذا تفعل هنا؟»

« كنت ماراً بالجوار ورأيت الدونا بلاسيدا عند النافذة فجئت لألقي عليها التحية»

أسرعت الدونا بلاسيدا بالقول:» شكراً جزيلاً لك».

« يقولون أنه لا قيمة للنساء العجائز لكن انظر فقط كيف تبدو إيايا مهتمة لأمري». قالت وهي تمسّد يديها:» هذا الملاك الوحيد الذي لم ينس بلاسيدا العجوز. يا له من أمر محزن! لقد ورثت وجه أمها تماماً، اجلس سيد.....»

« أنا لا أستطيع البقاء»

« هل أنت ذاهب إلى المنزل؟» سألت فيرجيليا، » يمكننا أن نذهب معاً»

« نعم أنا ذاهب»

« دعيني آخذ قبعتي يا بلاسيدا»

« ها هي قبعتك»

ذهبت بلاسيدا لتحضر مرآة ووضعتها أمام فيرجيليا. وضعت فيرجيليا قبعتها على رأسها وربطت الشريطة، وسوّت شعرها، وهي تتحدث إلى زوجها الذي لم يكن يجيبها، أميرتنا العجوز الطيبة كانت تثرثر كثيراً وهي طريقة تتبعها لتخفي ارتباكها وارتجاف جسدها. كانت فيرجيليا التي قد تخطّت اللحظة الأول – استعادت السيطرة على نفسها– كل شيء جاهز، وداعاً دونا بلاسيدا، لا تنسي أن تزورينا، هل سمعتني؟!»

أجابتها بأنها سوف تزورها وفتحت لهم الباب ليغادروا.

****

معادلة النوافذ

أغلقت الدونا بلاسيدا الباب واندفعت نحو الكرسي لتجلس. وخرجت أنا على الفور من غرفة النوم وخطوت خطوتين نحو الشارع لآخذ فيرجيليا بعيداً عن زوجها، هذا ما كنت أقوله، ومن الجيّد أني قلت ذلك لأن الدونا بلاسيدا أمسكتني بيدي. تخيّلت بعد برهة أني قد قلت ما قلت فقط لتمسك الدونا بلاسيدا بيدي وتمنعني. ولكنْ خيال بسيط كان كافياً ليوضح أنه بعد عشر دقائق في غرفة النوم كان هذا الخيال يمكن أن يكون أصدق تلميح عرفته. وسبب هذا كله هو القانون المشهور لمعادلة النوافذ التي تمنحني الرضا بأني اكتشفتها وشكلتها في الفصل الخمسين، فمن الضروري أن يخرج الإنسان عن وعيه أحياناً. كانت غرفة النوم تمثل نافذة مغلقة وأنا فتحت نافذة أخرى عندما لمّحت أني مغادر وتنهدتُ.

لعبة خطيرة

تنهدت وجلست. كانت الدونا بلاسيدا تتذمر وتصرخ وتنتحب وكنت أنا أستمع إليها دون أن أقول شيئاً وأفكّر في نفسي وأقول لربما كان من الأفضل لو أني أقفلت باب غرفة النوم على فيرجيليا وبقيتُ أنا في الردهة ولكنني أدركت مباشرة أن هذا الشيء يمكن أن يكون أسوأ بكثير، لأنه سيؤكد الشكوك وقد يصل الأمر حد الانفجار ويتسبب بمشكلة دموية كبيرة...

كان من الأفضل أن يبقى الأمر كما كان ولكن ماذا سيحدث بعدئذ، ماذا كان سيحصل لفيرجيليا؟ هل سيقتلها زوجها؟ يضربها؟ سوف يحبسها؟ أو سيرميها خارجاً؟ مرّت جميع هذه الأسئلة ببطء في عقلي بنفس الطريقة التي تسري بها البقع والفواصل السوداء في مجال الرؤية لعين مريضة أو متعبة. لقد جاؤوا وذهبوا وكانت نظراتهم جافة وحزينة ولم أتمكن من الإمساك بأحدهم والقول له إنه أنت، أنت ولا أحد آخر. وفجأة رأيت ظلاً أسود، وكانت الدونا بلاسيدا التي دخلت وارتدت عباءتها وكانت تعرض عليّ الذهاب معها إلى بيت لوبو نيفيز.

لقد حذرتها بأن هذه الزيارة خطيرة لأنه سوف يشك بهذه الزيارة السريعة.

« لا تقلق» قاطعتني قائلة: » أنا أعرف كيف سأفعل ذلك، إذا كان هو في المنزل فلن أدخل ».

غادرت هي وأنا بقيت هناك أفكّر فيما حصل وما هي العواقب المحتملة لهذه الزيارة، كان الأمر يبدو في النهاية كأنه لعبة خطيرة، سألت نفسي إذا ما حان الوقت للنهوض والتنزه قليلاً. شعرت بأن التوق لفكرة الزواج سلبت عقلي، شعرت برغبة في أن أبدأ حياتي ولما لا؟ فقلبي ما يزال لديه من الأشياء ليختبرها. لم أشعر يوماً أنني غير قادر على خوض حب عفيف، صادق ونقيّ. في الواقع إن المغامرات هي الجزء الجارف والطائش من الحياة وهي استثناء في الحياة. لقد كنت متعباً منهم وقد أكون شعرت أيضاً بوخزة ندم وحالما فكرت بذلك الأمر سمحت لنفسي باتباع مخيلتي. تخيّلتُ نفسي على الفور متزوجاً وإلى جانبي امرأة رائعة ونظرتُ إلى طفل نائم بين ذراعي المربيّة وجميعنا موجودون في بناء خلفي لحديقة خضراء تطل علينا فسحة سماوية زرقاء من خلف الأشجار...

نعم، إنها زرقاء تماماً.

رسالة قصيرة[1]

« لم يحدث شيء، لكن لوبو نيفيز شكّ بأمر ما، كان يبدو حاداً و لم يتكلم، فقط خرج وابتسم مرة واحدة لنهانهو بعد أن حدّق فيه لوقت طويل وهو عابس الوجه. لم يعاملني بشكل سيء ولا بشكل جيد، لا أعلم ماذا سيحدث؟ سينقضي كل هذا بإذن الله. كن حذراً جداً من الآن وصاعداً».

****

ربما كان مبهماً

هنا تكمن الدراما، ذروة التراجيديا الشكسبيرية، فقصاصة الورق تلك التي كتب على جزء منها خربشات، وتم تجعيدها باليد كانت وثيقة قابلة للتحليل وهذا شيء لن أقوم به في هذا الفصل ولا في الفصل التالي وربما لن أقوم به في كل هذا العمل.

هل أستطيع أن أحرم القارئ متعة أن يلاحظ بنفسه البرود، الفطنة، وروح هذه الكلمات القليلة المدونة على عجل، وما تخفيه من زوبعة تثور في عقل مغاير، ذلك الغضب المخفي، يأس يجبرك على الكتمان والتفكّر لأنه يجب حل هذه الأمور بالطين، أو بالدم أو بالدموع؟ بالنسبة لي، صدقوني إذا أخبرتكم أني قرأت تلك الرسالة ثلاث أو أربع مرّات في ذلك اليوم لأنها الحقيقة. وأكثر من ذلك إذا أخبرتكم أني في اليوم التالي أعدت قراءتها قبل الفطور وبعده، بإمكانهم أن تصدقوني لأنها الحقيقة المحضة. ولكن إذا أخبرتكم عن الغضب الذي شعرت به فمن المؤكّد ستشكون قليلاً ولن تصدقوني دون دليل. لا في ذلك الوقت ولا حتى الآن. سأتمكن من إثبات ما شعرتُ به، لقد كان و لم يكن نوعاً من الخوف، لقد كان و لم يكن نوعاً من الشفقة، لقد كان و لم يكن غروراً، في النهاية كان حباً دون حب، ودون هذيان، كل ذلك من أجل يكون مزيجاً معقّداً وغامضاً، شيء قد لا تتمكن أنت على الأغلب من فهمه كما أني أنا لم أفهمه أيضاً، دعنا فقط نفترض أني لم أخبرك شيئاً أيّها القارئ.

١ هذا الفصل عبارة عن رسالة قصيرة تلقّاها كوباس من فيرجيليا.

الفيلسوف

بما أنه أصبح معلوماً أنني أعدتُ قراءة الرسالة قبل الفطور وبعده فقد أصبح معلوماً بذلك أني تناولت طعام الفطور. وكل ما بقي هو أن أخبركم أن هذا الفطور كان أكثر فطور اقتصاديّ تناولته في حياتي. فقد كان يحتوي على بيضة، قطعة خبز، وكوب من الشاي. لم أنسَ تلك الواقعة الصغيرة، حيث إنه في خضم العديد من تلك الحوادث المهمة التي كانت قد مسحت، هرب ذلك الفطور من عملية المسح، وبقي عالقاً في ذاكرتي. قد يكون السبب الأساسي لذلك هو الكارثة التي وقعت فيها، ولكنه لم يكن كذلك في الحقيقة. السبب الرئيسي هي فكرة من أفكار كوينكاس بوربا الذي زارني في ذلك اليوم، لقد أخبرني أن التوفير ليس ضرورياً لفهم الانسانية بل إنه مهم قليلاً لممارستها. لقد فرضت هذه الفلسفة سهولة في التكيّف مع ملذّات الحياة بما فيها من: مائدة، مسرح، قصة حب وعلى العكس تماماً إن التوفير إنما هو دلالة لنزعة ما باتجاه الزهد الذي كان التعبير المثالي للحماقة البشرية. وتابع قائلاً: انظر إلى القديس جون الذي عاش يأكل الجنادب في البريّة بدلاً من أن يعيش في رفاهية المدينة ريثما يجعل الفرّيسين في الكنيست اليهودي يفقدون وزنهم».

وكّلني الله بسرد قصة كوينكاس بوربا التي استمعت لها بالكامل في تلك الحادثة الحزينة، حيث كانت قصة طويلة ومعقدة لكنها مثيرة للاهتمام. وبما أني لن أسرد القصة فسوف أستغني أيضاً عن وصف شخصه، ذلك لأنه مختلف تماماً عن ذلك الشخص الذي قابلته في متنزه في باسيو بابليكو.

يجب أن أكون هادئاً وسوف أقول فقط أنه إذا كانت السّمة الأساسية لهذا الرجل لا تكمن في ملامحه وإنما فقط في ملابسه فهذا لن يكون كوينكاس بوربا، لقد كان قاضياً أو حاكماً دون رداء، جنرال أو ضابط دون بدلة رسمية، رجل أعمال دون ميزانية مالية. لاحظت الكمال في مظهره، معطفه الطويل، بياض قميصه ولمعان حذائه. صوته المميّز الذي كان يسبقه، بدا وكأنه قد تم ترميمه وإعادته لنسخته الأصلية. أما بالنسبة لسلوكياته، بالإضافة لمرحه السابق، لم تعد سلوكيات مضطربة وباتت خاضعة لنهج معين ولكني لا أرغب بوصفه. فإذا كنت سأتكلم على سبيل المثال عن دبوس ياقته الذهبي وجودة الجلد الذي صُنع منه الحذاء فهذا سوف يستهل وصفاً كنت أحذفه تحت عنوان الاختصار. كن راضياً لمعرفة أن أحذيته مصنوعة من جلد ممتاز واعلم أيضاً أنه قد ورِث بضعة حزم نقدية من عم عجوز له في باربسينا. كانت معنويّاتي « اسمحوا لي بأن أقوم بمقارنة طفولية هنا» في تلك الفترة مثل ريش الطائر ارتطمت به قصة كوينكاس بوربا

فحلّق وعندما كان على وشك الهبوط أصابته مجدداً رسالة فيرجيليا تلك، فتطاير مجدداً في الهواء، وفي هبوطه استقبلته تلك الحادثة في باسيوبابليكو بصدمة أخرى، وعلى قدر متساوٍ في الصرامة والفعالية.

لا أعتقد أني خلقت من أجل حلّ القضايا المعقدة، حيث إن دفع وتضارب الأشياء المتناقضة كان يُفقدني توازني. كانت تتملّكني رغبة في التخلّص من كوينكاس بوربا، لوبو نيفيز ورسالة فيرجيليا بجمعهم في منهج فلسفي واحد وإرسالهم جميعاً كهدية إلى سقراط. وبالرغم من أن قصة فيلسوفنا كانت تعليمية فأنا معجب بشكل خاص بموهبته في الملاحظة التي وصف من خلالها فترة الحمل، تنامي الرذائل، الصراعات الداخلية، الاستسلامات البطيئة، وإخفاء القذارات.

لقد أبدى ملاحظة قائلاً: » لقد استغرقت في النوم في الليلة الأولى التي قضيتها على درج بناء ساو فرانسيسكو وكأنه أكثر التلال نعومة وراحة. لماذا؟ لأنني ذهبت تدريجياً من سرير بفراش مريح إلى سرير خشبيّ، من غرفتي الخاصة إلى قسم الشرطة، ثم من قسم الشرطة إلى الشارع».

أراد أخيراً أن يشرح لي فلسفته، لكني طلبت منه ألّا يفعل قائلاً: » أنا مشغول جدا اليوم ولن أتمكن من الإصغاء إليه، عُد في وقت آخر فأنا موجود دائماً في المنزل» فابتسم كوينكاس بوربا بمكر، ربما كان يعلم بعلاقتي الغرامية ولكنه لم يقل أي شيء آخر، فقط نطق بهذه الكلمات الأخيرة وهو ذاهب عند الباب: « انضم إلى مجمع الإنسانية، إنه مهد الروح العظيمة، البحر الأبديّ الذي غصتُ في أعماقه حتى اكتشفت الحقيقة. أخرجه الإغريق من البئر. يا له من مفهوم زائف! بئر! لهذا السبب لم يرموه بالحجارة أبداً. الإغريقيين، والإغريقيين الجنوبيين، والإغريقيين على الجانب الآخر وكامل السلسلة البشرية الطويلة التي امتدت عند ذلك البئر لرؤية الحقيقة تخرج منه، لكن الحقيقة لم تكن قابعة فيه. لقد جهزوا الحبال والدلاء ونزل بعض الشجعان منهم إلى قاع البئر وجلبوا معهم ضفدعاً. سأذهبُ أنا مباشرة إلى البحر واذهب أنت إلى الإنسانية».

****

القرار ٣١

بعد أسبوع تماماً تم تسمية لوبو نيفيز رئيساً للمقاطعة، علّقتُ آمالي أنه سيرفض لأن المرسوم سيصدر للمرة الثانية بتاريخ ١٣ من الشهر الجاري. إلّا أنه صدر بتاريخ ٣١ وعلى كل حال إن ذلك التغيير في رمزية الأرقام ينفي أي مضمون شرير لهذه الأرقام، كم هي عميقة ينابيع الحياة.

الحائط

لأنه ليس من عادتي أن أغطي أو أخفي شيئاً، يتوجب عليّ في هذه الصفحة إخباركم عن الحائط. كانت فيرجيليا وزوجها على وشك الرحيل. وفي هذه الأثناء، وقعت تحت نظري قصاصة ورق صغيرة، كانت على الطاولة في منزل الدونا بلاسيدا، كانت من فيرجيليا وتقول بأنها تتوقع أو تنتظر قدومي إليها ليلاً في فناء المنزل وهي واثقة أني لن أخذلها. وانتهت قائلة إن الحائط ليس مرتفعاً من جهة الزقاق أو الحديقة. بدت إشارة عدم الرضا على وجهي فالرسالة هذه بدت جريئة جداً على غير المعتاد بالنسبة لي وأيضاً سخيفة. إنها لا تجلب الفضيحة معها بل والسخافة أيضاً. لقد تخيّلت نفسي أتسلّق الحائط حتى لو كان منخفضاً من جانب الزقاق وحالما أكون على وشك القفز أجد نفسي في قبضة الشرطة حيث سيتم اصطحابي إلى مركز الشرطة. الحائط منخفض! وماذا يعني إن كان منخفضا؟ بكل بساطة لم تكن فيرجيليا تعي ماذا تفعل وهذا أمر طبيعي، من المحتمل أنها ستكون آسفة على ما قالته. نظرت إلى قطعة الورقة حيث كانت مجعدة ولكنها ما تزال صامدة. تملكتني رغبة في تمزيقها إلى ثلاثين ألف قطعة وأن أرمها في الهواء كأنها آخر ما تبقى من مغامرتي. لكنني تراجعت في الوقت المناسب. إن احترامي لنفسي، كرهي أو اغتياظي من فكرة الهرب وفكرة الخوف، كل هذا جعلني لا أفكّر بشيء سوى الذهاب إليها « أخبريها أني قادم».

« إلى أين؟» سألته دونا بلاسيدا.

« إلى حيث قالت أنها تتوقع حضوري»

« لم تقل لي أيّ شيء»

« لقد كتبت ذلك في هذه الورقة»

تمعنّت دونا بلاسيدا في الورقة وقالت:» ولكني وجدت هذه الورقة في درجك هذا الصباح واعتقدت أنّ.....»

شعرت بشيء من الغرابة، أعدت قراءة قطعة الورقة تلك ونظرت إليها مراراً وتكراراً، كانت في الحقيقة ملاحظة قديمة كتبتها فيرجيليا وكنت قد استلمتها منها في بداية علاقتنا الغرامية، كان أحد اللقاءات في فناء المنزل الذي بسببه سقطت من فوق الحائط، حائط منخفض وسريّ، وضعت الورقة جانباً وانتابني شعور غريب مجدداً.

الرأي العام

ولقد كتب أن ذلك اليوم كان يوماً للحركات أو للتصرفات المشبوهة. بعد عدّة ساعات صادفت لوبو نيفيز في رو دو أوفيدور. تحدثنا عن أمور السياسة والرئاسة. ثم استغل أول شخص من معارفه يصادفنا هناك حتى تركني بعد ذلك كله ببضع كلمات طيّبة. أذكر أنه كان شخصاً انطوائياً لكنه عمل جاهداً على إخفاء هذا الأمر. بدا لي لحظتها وربما لن يسامحني النقّاد إذا كان حكمي هذا جريئاً جداً، بدا لي أنه كان خائفاً، ليس مني ولا من نفسه ولا حتى من القانون أو من ضميره. لقد كان خائفاً من الرأي العام. تخيلت بأن تلك المحكمة الغامضة غير المرئية التي كل عضو فيها يتهم ويحكم على غيره هي الدائرة اللامنتهية التي تحد من إرادة لوبو نيفيز، ربما لم يعد لوبو نيفيز يحب زوجته لذلك من الممكن أن يكون قلبه غفر لها دون مبالاة تصرفاتها الأخيرة. وأعتقد « ومجدداً ألتمس من النقّاد حسن النيّة» أنه كان يجهز نفسه للانفصال عن زوجته مثلما انفصل القارئ عن عدة علاقات شخصية ولكن الرأي العام، ذلك الرأي الذي سيخرج حياته الخاصة إلى العلن، سوف يستقصي في الأمر ولو لدقيقة، وسوف يضع الأمور ويرتبها مع بعضها، الظروف جميعها، السلالات التي ينحدر منها، الاستقراءات والدلائل، أو البراهين، سوف يذكر كل ما سبق في المحادثات الفارغة للأروقة الخلفية، ذلك الرأي العام المريع الذي هو جداً فضوليّ فيما يخص غرف النوم ويقف ضد حالات الانفصال العائلية وبنفس الوقت سيجعل من الانتقام أمراً مستحيلاً في حين أنه يكون مقبولاً بالنسبة لهم. لا يمتلك لوبو حجة قوية ليظهر استيائه مني دون أن يكون يسعى فعلياً لطلاق رسمي لذلك توجب عليه أن يظهر التجاهل نفسه الذي أظهرته لم من قبل، بشكل حاسم وبنفس المشاعر. أعتقد أن ذلك كان صعباً جداً عليه وخاصة في هذه الأيام، ولكن الوقت (وهذه نقطة أخرى ألتمس فيها تسامح من ينتقدني) الوقت كفيل بجعل الأحاسيس تتجمّد وكفيل بطمس ذاكرة الأشياء. كان من المفترض أن تكون تلك السنوات كفيلة بالتخفيف من المصاعب وأن اجتثاث تلك الأحداث من شأنه أيضاً أن يخفف الآلام وأن تغطي الهواجس القديمة وضوح الحقيقة العارية. وباختصار إن الرأي العام يقحم نفسه قليلاً في مغامرات الآخرين. عندما يكبر الابن سوف يحاول أن يحقق طموح أبيه، وسوف يرث جميع ميوله بالإضافة إلى النشاطات المستمرة والهيبة العامة، تقدم السّن، ثم الأمراض والانهيار والموت ثم ترنيمة جنائزية ونعوى ومن بعدها يتم إغلاق كتاب الحياة دون أن تكون هناك أي صفحة ملطخة بالدماء.

الغراء

إذا كان الفصل السابق يفضي لنتيجة ما، فهي أن الرأي العام هو مادة صمغيّة جيّدة للمؤسسات العائلية. ليس مستحيلاً أن أطوّر تلك الفكرة قبل إنهاء الكتاب ولكن ليس مستحيلاً أيضاً أني قد أتركها كما هي. بطريقة أو بأخرى، إنّ الرأي العام هو غراءٌ جيّد في كلٍّ من النظام المنزلي والسياسيّ. بعض الفلاسفة الميتافيزيقيين المتشائمين قد وصلوا إلى أقصى حد في تقديمه كمنتج بسيط للأشخاص المغفلين والتافهين. ولكنه من الواضح تماماً أنه حتى عندما يكون هناك أي فكرة مهما كانت متطرفة لن تحصل بنفسها على إجابة شافية فإنه يكفي الأخذ بعين الاعتبار الآثار المفيدة للرأي العام والخلوص إلى أنه يمثل صفوة عمل العقل البشري الفطِن وبأعلى مستوى.

****

نهاية حوار ما

« نعم، غداً يوم الرحيل، ألا تريد الإبحار معنا؟»

« هل أصبتِ بالجنون، مستحيل».

« وداعاً إذن».

« وداعاً».

« لا تنس الدونا بلاسيدا، قم بزيارتها من وقت لآخر، إنه أمر محزن. لقد قدِمت بالأمس لوداعنا، بكتْ كثيراً وقالت إنها لن تتمكن من رؤيتي مجدداً، إنها إنسانة طيّبة، أليس كذلك؟»

« بالطبع».

« في حال أردنا مراسلة بعضنا فإن الدونا بلاسيدا ستستلم الرسائل، وداعاً الآن وحتى....»

« ربما عامين...»

« أووه، لا أظن لأنه قال لي سنبقى حتى إجراء الانتخابات».

« هل الأمر كذلك؟ سيطول غيابك إذن. كوني حذرة، إنهم يراقبوننا».

« مَن؟»

« شخص يجلس هناك على الأريكة، من الأفضل أن نفترق».

« إنه أمر قاس جداً بالنسبة لي». « لكن علينا أن نفترق يا فيرجيليا!»

« أراك بخير، الوداع».

****

الغداء

لم أشاهدها حين غادرت، لكني شعرت بشيء غريب في ساعة معيّنة، شيء ما لم يكن ألماً ولا سعادة، خليط من الارتياح والشوق ممزوجين بنفس القدر. يجب ألّا ينزعج القارئ من هذا الاعتراف. أعلم جيّداً أنه من أجل أن أدغدغ جموح الخيال، يجب أن أقاسي كثيراً، وأن أذرف بعض الدموع، وأن أمتنع عن تناول وجبة الغداء. يبدو الأمر وكأنه رواية، لكنها لا تتضمن سيرة ذاتية. والحقيقة الوحيدة هي أني تناولت وجبة الغداء، كما أفعل في كل يوم آخر، أخفف عن قلبي بذكريات مغامرتي وعن معدتي بأطباق مستر برودون. ربما يتذكّر كبار السن من أبناء جيلي كبير الطهاة في فندق الفاروكس وهو صديق لي عمل في مطعم « فيري آند فيفور» الشهير في باريس بحسب قول صاحب المطعم كما عمل لاحقاً في قصور الكونت مولي والدوق دي لا روشيفوكولود. كان طاهياً مشهوراً، وصل إلى ريو دي جانييرو مع البولكا.

البولكا[1]، الطاهي برودون، التايفولي[2]، حفلات الأجانب، الكازينو، وهكذا فأنت لديك بعض أفضل الذكريات من ذلك الزمن، لكن فوق كل هذا، أطباق كبير الطهاة كانت لذيذة.

في ذلك الصباح كانت الذكريات كما لو أن شيطاناً مسّها. شيطان لم يكن يعنيه كل هذا الفن والبراعة. يا لها من توابل لذيذة! يا لها من أطعمة شهيّة! يا لها من أطباق بالغة الأناقة! حتى إنك تأكل بفمك، وتأكل بعينيك، وتأكل بأنفك. لا أذكر كم كانت الفاتورة في ذلك اليوم، لكني أعلم أنها كانت باهظة الثمن. إن المحزن في الأمر أنه كان عليّ أن أدفن حبي بطريقة لائقة. لقد رحلت إلى هناك، شقّت عباب البحر، كنت أمكث في الخلف عند زاوية الطاولة بأعوامي الأربعين وبعض من سنواتي الغريبة، كسول ومشوّش جداً. كل ما بقي لي أني لن أقابلهم مجدداً، لأنها قد تعود وعادت بالفعل لكنها لم تعد ملكي، فمن يكترث لانبلاج الصباح من شمس المغيب؟

---

١ البولكا: نوع من أنواع الموسيقى والرقص.

٢ التايفولي: العروض المسرحية في الهواء الطلق.

فلسفة الصفحات الأولى

جعلتني نهاية الفصل الأخير حزين جداً، كنت قادراً على تجاهل كتابة هذا الفصل، وأن آخذ استراحة بسيطة، وأطهّر روحي من السوداوية التي تثقلها ومن ثم أكمل عملي. لكن لا، لا أريد أن يذهب وقتي سدى.

جعلني رحيل فيرجيليا أدرك ماذا يعني الرجل الأرمل، حيث لازمت المنزل في الأيام القليلة الأولى، أقتل الحشرات مثلما كان دوميتيان يفعل، على ذمة سويتونيوس الذي أخبرنا بهذا الأمر، لكني كنت ألتقطهم بطريقة معيّنة، بعينيّ. كنت ألتقطهم واحدة تلو الأخرى وأنا مستلق في الأرجوحة القابعة في آخر الغرفة الكبيرة وبين يديّ كتاب مفتوح. كنت مستغرقاً في كل شيء: في الحنين، الطموح، في القليل من الضجر، وكثير من أحلام اليقظة الخائبة. توفي عمي الكانون في تلك الفترة بالتزامن مع وفاة اثنين من أولاد عمومتي. لم أشعر بالصدمة، رافقتهم إلى المقبرة كما يذهب المرء ليودع أموالاً في البنك. بماذا أتفوّه؟ أقصد كما يأخذ المرء رسائل إلى مكتب البريد. لقد ختمت الرسائل، وضعتها في الصندوق وأودعتها في عهدة ساعي البريد لأتأكد أنه سلّمها لأصحابها. وفي ذلك الوقت تقريباً خرجت ابنة أختي « فينانسيا» إلى الحياة، ابنة كوتريم. أشخاص يموتون، وأشخاص يولدون، وأنا ما أزال أطارد الحشرات.

وفي أوقات أخرى، كنت أشعر بالضيق، أفتح الأدراج، أنبش الرسائل القديمة التي كانت تصلني من الأصدقاء، الأقارب، المحبوبات وحتى تلك الرسائل التي كانت تصلني من مرسيلا. أفتحهم جميعاً، أقرأهم رسالة تلو الأخرى وأستعيد الماضي.

أيّها القارئ التائه، إذا لم تحتفظ برسائل شبابك، فلن تعرف قيمة الفلسفة في تلك الصفحات القديمة. لن تحظو بمتعة رؤية نفسك من مسافة بعيدة، في الظلال، بقبعة ذات ثلاث زوايا، وحذاء خاض سبع بطولات، ولحية آشورية طويلة، ترقص على صوت مزامير عتيقة. لذلك احتفظ برسائل شبابك. أو في حال لم تكن القبعة ذات الزوايا الثلاث تناسبك، سأستعير تعبيراً لبحّار قديم، وهو صديق قديم لعائلة كوتريم، سأقول لك العبارة إذا حافظت على رسائل شبابك، فستجد فرصة « للغناء بشيء من الماضي».

يبدو أنّ بحّارينا منحوا ذلك الاسم لأغاني الأرض المنشدة في أعالي البحار، كتعبير شعريّ من شأنه أن يجعلك أكثر حزناً.

الانسانية

دفعتني قوّتان – بالتزامن مع قوة ثالثة– للعودة إلى حياتي الاعتيادية المليئة بالاضطراب. إنهما أختي سابينا وكوينكاس بوربا. كانت أختي تدفعني للزواج من « نها لولو » بطريقة متهورة جداً. وعندما عدت إلى رشدي، كانت الفتاة قد أصبحت فعليا بين يديّ. وكما هو الحال مع كوينكاس بوربا الذي أخيراً شرح لي مفهوم « الانسانية» الخاص به والذي كان نظاماً فلسفياً مُعد لتدمير الأنظمة الفلسفية الأخرى.

قال لي: » الإنسانية» هي أصل كل الأشياء، ليس شيئاً بعينه لكن الإنسان نفسه مُقسّم إلى عدّة أشخاص. للإنسانية ثلاث مراحل: المرحلة الساكنة وهي السابقة لجميع الخلق، المرحلة التوسعية وهي بداية تكوّن الأشياء، مرحلة الانتشار وهي مرحلة ظهور الإنسان، وسيكون هناك مرحلة أخرى وهي مرحلة الاحتواء، أي دمج الإنسان والأشياء معاً. بدأ الكون في المرحلة التوسعيّة التي أوحت للإنسانية برغبة الاستمتاع بهذا التوسّع، وهكذا حدث الانتشار وهو ليس إلّا تجسيداً لتكاثر المادة الأصلية».

وبما أن هذا الشرح لم يكن واضحاً كفاية بالنسبة لي، قام كوينكاس بوربا بتعميق شرحه مشيراً إلى الأفكار الرئيسية في النظام. لقد وضّح لي أن الإنسانية ترتبط في أحد جوانبها بالبراهمانية [1] وتحديداً في توزيع البشر في الأجزاء المختلفة للتجمّعات الإنسانية، لكن ما كان يحمل دلالة سياسية ولاهوتية محددة في الدين الهندي، كان في الإنسانية يمثل القانون الأعظم للقيمة الشخصية.

أن تنحدر من صدر أو من كلاوي الإنسانية، أي أن تكون قوياً، ليس ذات الانحدار من الشعر أو من أرنبة الأنف. ولهذا ثمة ضرورة لصقل وتليين العضلات، فهرقل لم يكن سوى مثال بدائي للإنسانية. وعند هذه النقطة فكّر بوربا فيما إذا كانت الوثنية قادرة على بلوغ الحقيقة لو لم تكن ترزح تحت نير أساطيرها. لا شيء كهذا يمكن أن يحدث مع الإنسانية. ففي هذه الطائفة الجديدة لن يكون هناك مغامرات سهلة، أو إخفاقات، أو أحزان أو أفراح صبيانية. حتى الحب– على سبيل المثال– هو وظيفة كهنوتية وطقس للتكاثر. وبما أن الحياة هي المكافأة الكبرى في الكون، لا يوجد متسوّل يفضّل الموت على البؤس (الموت الذي يعتبر دعماً مبهجاً للإنسانية)، يترتّب على ذلك أن تحوّل مسار الحياة – بعيداً عن كونها فرصة لتبادل الحب– فإنّها اللحظة الأسمى للروح. ومن بين كل هذا فإن سوء الحظ هو إلّا تكون مولوداً بالفعل.

---

١ البراهمانية: النظام الديني والاجتماعي الهندوسي والبراهمان هو المثقف من أبناء الطبقة العليا.

وتابع كوينكاس بوربا:» تخيّل، على سبيل المثال، أني لم أولد، إنه أمر إيجابي من ناحية أني لن أحظى بمتعة الحديث معك الآن، و لم أكن لأتناول هذه البطاطا، أو أذهب إلى المسرح، أو لأقل أنه يمكن جمع كل هذا في كلمة واحدة، هي: الحياة. لاحظ أني لا أجعل من الإنسان مجرّد عربة بسيطة للإنسانية. إنه العربة والمسافر والسائق في نفس الوقت. إنه الإنسانية بحد ذاتها بصيغة مصغّرة. ويترتب علي ذلك أنه ثمة حاجة واحدة للإنسان وهي عبادة نفسه. هل تريد إثباتاً على تفوّق نظامي؟ فكر في الحسد، لا يوجد إنسان فاضل، لا يوناني ولا تركي، لا مسيحي ولا مسلم، لا يرتعد لشعور الحسد. إن الانسجام هو أمر كوني، بدءاً من الحقول الإدومية [1] وحتى قمم تيجوكا. ومن ثم دعونا نتوجّه إلى الأحكام القديمة، وأن ننسى فن الخطابة الرديئة وندرس الحسد، ذلك الشعور الحاذق جداً والنبيل جداً. كل إنسان يحمل في داخله نسخة إنسانية مصغّرة، ومن الواضح أنه لا يوجد إنسان يعارض إنساناً آخر بشكل جوهري أياً كانت مظاهر الاختلاف. على سبيل المثال، الجلّاد الذي ينفّذ حكم الإعدام يمكن أن يثير السخط العقيم للشعراء، لكن فعلياً، قيام الإنسان بمحاولة تصحيح فعل إنساني آخر هو مخالفة للقانون الإنساني. يمكننا أن نطبق الأمر ذاته مع الشخص الذي ينزع أحشاء الآخرين، إنه تجلّي للجبروت الإنساني، لكن لا توجد قوّة تمنع شخص آخر من انتزاع أحشاء الشخص الأول أيضاً، وهناك أمثلة على ذلك.

إذا فهمت الأمر جيداً فستدرك سريعاً أن الحسد ليس سوى إعجاب يقاتل وبما أن القتال هي الوظيفة الرئيسية للبشريّة، فإنّ جميع هذه المشاعر العدائية هي أفضل من يخدم سعادة الإنسان، إذن، فالحسد هو فضيلة».

لماذا ننكر ذلك؟ لقد كنت مذهولاً. إن توضيح الشّرح، منطقيّة المبادئ، دقة الاستنتاجات، كل هذا كان عظيماً إلى أبعد حد، وبدا لي أنه من الضروري مقاطعة المحادثة لبضع دقائق كي أستوعب الفلسفة الجديدة.

لم يتمكن كوينكاس بوربا أن يخفي شعوره بالرضى من هذا الانتصار، كان جناح دجاجة في طبقه وكان يلتهمه بهدوء فلسفيّ، أعربتُ عن بعض اعتراضاتي لكنها كانت ضعيفة أمام فلسفته لهذا لم يضيّع وقتاً في مقارعتهم.

وختم بقوله:» من أجل أن تفهم نظامي الفلسفي جيّداً، فمن الضروري ألّا تنسى أبداً المبادئ الكونية، الموزّعة والمختصرة في كل إنسان. انظر، تبدو الحرب وكأنها كارثة إلّا أنها عملية توافقية،

---

١ الأدومية: نسبة إلى أدوم وهي منطقة بين جنوب فلسطين وخليج العقبة.

حيث يمكننا أن نسمي قضم الأصابع البشرية جوعاً (وكان يلعق جناح الدجاجة بطريقة فلسفية)، فالجوع هو دليل أن الإنسانية خاضعة لأمعائها. لكني لست بحاجة لأن أقدم أي إثباتات أخرى على سمو نظامي أكثر من طبق الدجاج هذا. تغذّت الدجاجة على الذرة التي زرعها إفريقيّ ما، ولنفترض أنها مستوردة من أنغولا، فهذا الإفريقي الذي ولد وترعرع وتم بيعه، ونقلته الباخرة إلى هنا، الباخرة المصنوعة من خشب تم قطعه من الغابة من قبل عشرة أو اثني عشر رجلاً، مدفوعة بأشرعة تطلبت ثمانية أو عشرة رجال لحياكتها معاً، ناهيك عن التجهيزات والأجزاء الأخرى من المعدات الملاحية. وبهذه الطريقة فإن هذه الدجاجة التي تناولتها للتو هي ثمرة جهود وصراعات عديدة، بذلت جميعها لغاية واحدة وهي إرضاء شهيّتي».

وبين الجبنة والقهوة شرح لي كوينكاس بوربا كيف أن نظامه معنيّ بالقضاء على الألم. فالألم بالنسبة للعالم الإنساني هو وهمٌ خالص. عندما يتعرض طفل للتهديد بالعصا، فإنه يغلق عينيه ويرتجف حتى قبل أن يتم ضربه. هذا الاستعداد هو ما شكّل قاعدة الوهم الإنساني، التي انتقلت وتوارثت. طبعاً هذا ليس سبباً كافياً لاختياري هذا النظام بغية التخلّص من الألم مباشرة، لكنه أمر لا غنى عنه. والباقي التطور الطبيعي للأشياء، وبمجرد أن يمتلكها الإنسان في عقله بشكل كامل فإنه يؤنسن نفسه، حيث أنه لا يوجد شيء آخر يمكنك فعله سوى أن يرقى بفكره إلى الجوهر الأصلي من أجل صدّ أيّ شعور مؤلم. ومع ذلك فإن التطوّر هو أمر عميق للغاية ولا يمكن أن يحدث إلّا على مدى آلاف السنين.

وبعد ذلك بعدّة أيام قرأ لي كوينكاس بوربا أعظم إبداعاته الذي يتألف من أربعة مجلّدات مكتوبة بخط اليد، وكل مجلّد يحتوي على مائة صفحة، مكتوبة بيد ثابتة واقتباسات لاتينية. وكان المجلّد الأخير عبارة عن أطروحة سياسية قائمة على أساس الإنسانية. وربما كانت الجزء الأكثر ضجراً في النظام، لأنه تم تصوّره بمنطق شديد الصرامة. ومع طريقته هذه في إعادة تنظيم المجتمع لن يكون هناك قضاء لا على حرب، ولا على تمرّد، أو عملية ضرب بسيطة، أو طعن مجهول، أو حتى على الجوع أو المرض. لكن بما أن هذه الكوارث المزعومة كانت حقاً أخطاء في الفهم، لأنهم لم يكونوا سوى حركات خارجية للمادة الداخلية التي لم يكن مقدراً لها أن تحظى بأي تأثير على الإنسان سوى خرق بسيط في الرتابة الكونية، كان من الواضح أن وجودهم لن يشكل عائقاً في وجه السعادة الإنسانية.

لكن حتى عندما تتوافق هذه الكوارث (والتي هي أساساً مفاهيم خاطئة) في المستقبل مع المفهوم الضيّق للأزمنة السابقة، عندئذ لن يتم تدمير النظام الإنساني لسببين: لأن الإنسان هو المادة

الخلّاقة والجوهرية حيث سيجد كل فرد السعادة الأعظم في التضحية بنفسه من أجل المبدأ الذي يمثل كيانه، والسبب الثاني هو أنه حتى ذلك الحين، لن تتضاءل قوة الإنسان الروحية على الأرض، والتي تم ابتكارها لإمتاعه فقط، كالنجوم والنسائم والتواريخ وأعشاب الرواند. قال لي بانغلوس [1] وهو يغلق الكتاب أنه لم يكن مضطرباً كما صوّره فولتير.

****

القوة الثالثة

كانت القوّة الثالثة التي دفعتني إلى الصخب هي المتعة في تقديم عرض، وقبل كل شيء هي عدم القدرة على العيش بمفردي. لقد فتنتني الجماهير وأحببت التصفيق. هل طرقت مخيلتي فكرة الضماد في ذلك الوقت، من يدري؟ قد لا أموت في وقت قريب، وقد أكون مشهوراً حينها. لكن فكرة الضماد لم تخطر على بالي حينها، ما راودني حينها هو رغبة أن أكون فعّالاً في شيء ما، مع شيء ما، من أجل شيء ما.

****

جمل بين الأقواس

أريد أن أترك هنا بين الأقواس نصف دزينة من الأقوال المأثورة التي كتبتها في ذلك الوقت تقريباً. إنها مجرد تفريغ عن انزعاج.

يمكن تقديمهم كاقتباسات للخطابات الفارغة:

– تحمّل ألم جارك.

– نحن نقتل الوقت، والوقت يدفننا.

– اعتاد الحوذي الفيلسوف أن يقول إن العربة لن تكون سعيدة في حال سافرنا جميعنا في عربات متعددة.

– ثق بنفسك لكن لا تشك دائماً في الآخرين.

---

١ انغلوس: شخصية خيالية في رواية ١٧٥٩ كانديد من فولتير

– من الصعب أن نفهم لماذا يغرز الهندي الأحمر شفته لتزيينها بقطعة خشب. إنه انعكاس لذلك الجواهريّ في داخله.

– لا تغضب في حال دفعوا لك القليل مقابل خدمة قدمتها، إن السقوط من الغيوم أفضل من السقوط من نافذة الطابق الثالث.

****

الإلزام القسريّ بالدخول

لا يا سيدي، شئت أم أبيت، عليك أن تتزوج، قالت لي سابينا. يا له من مستقبل جميل، أعزب عجوز دون أولاد. دون أولاد!

فكرة الأولاد أعطتني دفعاً للأمام، فعاد السائل الغامض يسري مجدداً في داخلي. نعم، كان من المناسب لي أن أصبح أباً. قد تتميّز حياة العزّاب ببعض المزايا الخاصة لكنهم سيكونون ضعفاء وسيدفعون ثمن الوحدة.

أن أبقى دون أطفال، لا، محال، كنت جاهزاً للقبول بأيّ شيء، حتى العلاقة مع داماسينو. لن أبقى دون أطفال!! كنت بدأت أثق بشكل كبير في كوينكاس بوربا، ثم ذهبت إليه وأخبرته بما يعتريني من مشاعر داخلية نحو الأبوة. استمع لي بوربا الفيلسوف باهتمام كبير. لقد صرّح لي أن الإنسانية بدأت تتحرك في صدري، وشجعني على الزواج. كان يتأمّل حقيقة أن ثمة ضيوفاً يطرقون الباب، وهم ملزمون بالدخول كما أشار المسيح في قصتّه. وقال إنه لن يتركني دون أن يثبت لي أن القصة في الإنجيل لم تكن سوى تبشير بالإنسانية، إلّا أن الكهنة فسّروها بشكل خاطئ خدمة لمصالحهم.

الهبوط من التلّة

ومع مضي ثلاثة أشهر كان كل شيء يسير بشكل مذهل. السائل الغامض، سابينا، عينيّ الفتاة، وكانت رغبة الأبوة من بين الدوافع الكثيرة التي قادتني نحو الزواج. كانت تلوح أمامي ذكرى فيرجيليا بين الحين والآخر ومعها شيطان أسود يرفع مرآة أمام وجهي لأراها، ومن بعيد كانت تغرق في الدموع. لكن هناك شيطان مختلف لونه زهري، كان يأتي بمرآة أخرى تعكس وجه « نها لولو » وجه حنون، مضيء وملائكي.

لن أتحدث عن السنوات التي مضت، لأني لم أشعر بها. سأضيف أيضاً أنني وضعتها جانباً في يوم أحد ما وذهبت إلى القدّاس في الكنيسة الصغيرة في ليفراميتو هيل. بما أن داماسينو يعيش في كاجيروس، فكان عليّ أن أرافقه إلى القدّاس مرات عديدة. كان التل ما يزال عارياً من المنازل باستثناء القصر القديم في الأعلى حيث تقبع الكنيسة الصغيرة.

وفي يوم أحد، وبينما كنت أهبط التلّة ممسكاً بيد « نها لولو » شعرت بظاهرة ما، لا أعلم ماذا حدث، أخذت من عمري عامين وأنا في هذه النقطة، ثم أربعة أعوام بعدئذ، ثم خمسة أعوام بعد أن تقدمت خطوتين، وعندما وصلنا إلى أسفل التلة كان عمري فقط عشرين عاماً، نشيطاً تماماً كما كنت في ذلك العمر. وإذا كنت تريد أن تعرف تحت أي ظرف حدثت هذه الظاهرة، كل ما عليك فعله هو قراءة هذا الفصل حتى نهايته. كنا عائدين من القدّاس أنا وهي ووالدها، وفي منتصف الطريق ونحن نهبط التلّة صادفنا مجموعة من الرجال. لاحظ داماسينو الذي كان يمشي بجانبنا ما حدث ومضى قدماً، كان الجميع متحمساً. تابعنا سيرنا. وهذا ما شاهدناه: أشخاص من جميع الأعمار والأحجام والألوان، بعضهم يرتدي قمصاناً، وبعضهم سترات، وبعضهم يرتدي معاطف طويلة ممزّقة. يقفون في وضعيات مختلفة، بعضهم في وضعية القرفصاء، وبعضهم يضع يديه على ركبتيه، هؤلاء يجلسون على الحجارة، وأولئك يتكؤون على الحائط، وجميعهم يراقبون الشخص الذي في الوسط وأرواحهم تكاد تخرج من نوافذ عيونهم.

« ما هذا؟ » سألتني نها لولو.

أشرتُ لها أن تبقى هادئة، شاقاً بحذر طريقاً للعبور من بينهم، وقد أتاحوا لي جميعهم مجالاً لأعبر دون أن يراني أحد منهم بالفعل. قام الشخص الذي كان يتوسطهم بتعصيب أعينهم، لقد كانت مصارعة ديوك، رأيت اثنين من المتبارزين واثنين من الديوك مع مهاميز حادة، عيون نارية ومناقير متسخة. وكلا الطرفين كانوا يهزون أمشاطهم الحامية. كانت صدورهم بلا ريش، متوردة

اللون، وكان الإرهاق بادياً عليهم. لكنهم مضوا في هذا المعركة، يتبادلون النظرات والتحديق في أعين بعضهم ابعضاً، مناقير منخفضة وأخرى عالية، نقرة من هذا ونقرة من ذاك، مرتعشين وهائجين. لم يعد داماسينو يدرك أي شيء آخر حوله، كان المشهد بالنسبة له أهم من الكون برمته، أخبرته أنه حان وقت الرحيل لكنه لم يسمع و لم يجب لأن تركيزه كان منكباً على المبارزة، كانت مصارعة الديكة واحدة من أكثر الأشياء التي يعشقها. حدث حينها أن « نها لولو » سحبتني من ذراعي بنعومة، قائلة إنه علينا أن نمضي في طريقنا، اتبعتُ نصيحتها ومضيت معها. لقد أخبرتكم للتو أن التلة لم تكن مأهولة في ذلك الوقت، وأننا كنا قادمون من القدّاس وبما أني لم أخبركم أنها كانت تمطر فكان من الواضح بالنسبة لكم أن الطقس كان صحواً والشمس جميلة، قوية، قوية جداً لدرجة أني فتحت المظلة على الفور، أمسكتها من وسط مقبضها، وقمت بإمالتها بطريقة أوصلتني لفلسفة كوينكاس بوربا: الإنسانية تحتضن الإنسانية، وهكذا سقطت السنين بعيداً عني في الطريق إلى أسفل.

توقفنا لبضع دقائق على الطريق الرئيسي منتظرين داماسينو. وصل بعد برهة محاط ببعض المراهقين وبتعليقاتهم عن المبارزة. قام أحدهم وهو صاحب الرهانات بتوزيع حزمة من العملة القديمة، فئة العشرة، والتي أخذها الفائزون بفرح مضاعف، أمّا الديكة فكانوا تحت أذرع أصحابهم. وكان أحدهم قد انشقّ مشطه بشكل كبير ودامي لدرجة أني أدركت فوراً أنه الخاسر، لكني كنت مخطئاً، فالخاسر كان ديك آخر ليس لديه مشط على الإطلاق. وكان كلاهما بمناقير مفتوحة ويتنفسان بصعوبة. وكان المراهنون من ناحية أخرى مرحون بالرغم من الصخب القوي الذي أحدثته المبارزة. لقد سرد كل منهم حكايته في عالم المبارزة، متذكرين أفعال كل منهم، أصابني الاستياء، وكانت نها لولو مغتاظة بشكل ملفت.

هدف جميل جداً

ما أثار استياء « نها لولو » هو والدها، لأن السهولة في انضمامه للمراهقين أعادت له عادات وارتباطات اجتماعية قديمة وهذا ما كانت تخشاه الفتاة حيث إن والدها سيبدو غير مناسب ليكون والد زوجتي. كانت المقارنة التي قامت بها واضحة، حيث وضعتني ووضعت نفسها تحت المجهر، لقد راقت لها الحياة الأنيقة والبرّاقة لأنها اعتقدت أساساً أنها الطريقة الأكيدة لاندماج شخصياتنا.

كانت نها لولو تراقب، وتقوم بمقارنات وتخمينات. وفي الوقت نفسه قامت بجهد لإخفاء دونية عائلتها. في ذلك اليوم، مع أن عرض والدها كان رائعاً جداً، إلّا أنه سبب لها حزناً كبيراً، فقمت أنا بتسليتها ببعض النكات والدعابات المهذبة في محاولة مني لجعلها تنسى ما حصل. ذهب جهدي هباء لأن ذلك لم يجعلها سعيدة، كان حزنها عميقاً جداً، وكان من الواضح أنها مكتئبة جداً، لدرجة أني رأيت في « نها لولو » منحى إيجابي في فصلها عن والدها في عقلي. لقد شعرت أن ذلك هو الشعور الأكثر سمواً، لقد كان تقارباً كبيراً بيننا. قلت لنفسي: » ليس هناك طريقة أخرى، سأقطف هذه الوردة من ذاك المستنقع».

****

كوتريم الحقيقي

على الرغم من سنوات عمري الأربعون المتفردة إلّا أنني ومنذ أحببت الانسجام في العائلة، أدركت أنه عليّ ألّا أثير مسألة الزواج دون الرجوع إلى كوتريم أولاً للتباحث معه. استمع إليّ وأجابني بشكل جديّ أنه لا يمكن أن يبدي رأيه عندما يتعلق الأمر بأحد أقربائه. فقد يظنون أنه يهتم بهم على نحو خاص في حال امتدح الصفات النادرة لنها لولو. لذلك فضّل أن ينأى بنفسه. علاوة على ذلك، كان على يقين أن ابنة أخته تعشقني، لكن في حال طلبت مشورته فسيكون ذلك أمراً سلبياً. ذلك لا يعني بوجود كراهية من طرفه لي، لأنه أشاد ببعض خصالي الجيّدة التي لا يمكن أن تكون جديرة بالإطراء وكان محقاً في ذلك، وبالنسبة إلى نهالولو، لم ينكر أبداً أنها عروس رائعة، لكن بالنسبة لمشورة الزواج فقد رأى أن هناك فجوة كبيرة بيننا.

وختم بقوله: » لن أتدخل في الأمر أبداً».

« لكنك كنت فيما سبق تعتقد أنه عليّ الزواج في أقرب وقت ممكن».

« ذلك أمر مختلف، إن زواجك أمر لا بدّ منه وخاصة مع طموحاتك السياسية هذه، عليك أن تعلم أن العزوبية هي عائق في عالم السياسة، ومع ذلك بالنسبة لأمر العروس فلا يمكنني أن أوافق، لا أريد أن أتدخل في هذا الأمر لأنه ليس من مبادئي، أعتقد أن سابينا مضت في الأمر بشكل كبير وأعطتك إشارات مؤكدة وفق أقوالها. لكن في جميع الأحوال، فهي ليست مثلي ولا تربطها صلة قرابة مع نها لولو. اسمع، لكن لا، لن أقول....»

« تقول ماذا؟»

« لا، لن أقول أي شيء».

ربما ستبدو وساوس كوتريم مفرطة للغاية بالنسبة لشخص لا يعرف أنه شخص بالغ الاحترام، كنت قد ظلمتهُ في السنوات التي تلت وصيّة والدي، لقد أدركت بعدها أنه مثال للرجل الخلوق. لقد اتهموه بالبخل وأنا صدقتهم، لكن البخل ليس سوى مبالغة في الفضيلة، والفضائل يجب أن تكون تقديراً للإنسان، إن الإفراط في الفضائل أفضل من العجز في امتلاكها، ولأنه كان بارداً جداً في سلوكياته فقد أصبح لديه أعداء واتهموه بأنه همجيّ. لكن الاتهام الوحيد الحقيقي من بين كل هذا هو قيامه المتكرر بسجن العبيد في القبو، حيث كانوا يخرجون مضرجين بالدماء، لكنه لم يكن يرسل سوى المتمردين وقد حدث ذلك بعد أن شارك لفترة طويلة في تهريب العبيد حيث اعتاد على طريقة معيّنة في التعامل كانت أقسى قليلاً مما هو مطلوب في العمل، ولا يمكن لأحد ما أن يعزو قسوة الإنسان إلى جوهره الأصلي لأنها نتيجة تأثير وسطه الاجتماعي. إن ما يثبت مشاعر كوتريم النبيلة هو حبّه لأولاده والكآبة التي غرق بها لعدّة أشهر بعد وفاة ابنته سارة، إنه إثبات لا يمكن دحضه، كما أعتقد، ولست الوحيد في اعتقادي هذا. لقد كان أمين صندوق في جمعية خيرية وعضواً في العديد من صناديق الأخوية حتى أنه سدد بعض الديون في أحد المرات، الأمر الذي لا يتفق كثيراً مع ما سمعته في البخل. الحقيقة أن معروفه لم يذهب سدى: حيث أمرت الأخوية (والتي كان قاضياً فيها) برسم بورتريه بالألوان الزيتية له.

ولا داعي للقول إنه شخص غير مثاليّ، فقد كان لديه عادات سيئة على سبيل المثال، كان يسمح للصحافة بالاطّلاع على أعماله الخيرية المختلفة، ويجب أن أؤكد أنها عادة نكراء وغير حميدة، لكنه دافع عن نفسه بالقول إنه يجب تداول الأعمال الخيرية بين العامة. لا تخلو هذه الحجّة من بعض الأهمية،(وهنا أثني عليه كثيراً) كما أني واثق أنه لم يقم بتلك الأعمال الخيرية سوى بهدف حثّ الآخرين على المبادرة، وإذا كانت هذه نيّته بالفعل فيجب أن أعترف أن العلانيّة شرط لا بدّ منها. وباختصار ربما كان مديناً ببعض الملاطفات للآخرين لكنه لم يكن مديناً لأحد ببنس واحد.

كفترة فاصلة

ماذا يوجد هناك بين الحياة والموت؟ إنه جسر قصير. ومع ذلك، إذا لم أكتب هذا الفصل في هذا التوقيت فسيعاني القارئ من صدمة قويّة، وأذية كبيرة من جرّاء هذا الكتاب. قد يكون الانتقال من رسم بورتريه لنقش صغير هو عمل واقعيّ وشائع. ومع ذلك، يلجأ القارئ إلى ذلك الكتاب فقط ليكون مهرباً من الحياة. هذه الفكرة ليست من بنات أفكاري، لكني أقصد أنها تحتضن وتشكّل بذرة الحقيقة، وعلى الأقل إنها فكرة خلّابة، وأكرر قولي بأنها ليست من اختراعي.

****

نقش على ضريح

هنا ترقد

دونا يولاليا داماسينو دي بريتو

توفيت

في عمر التاسعة عشر

صلّوا لأجلها

****

كآبة

اختصر هذا النقش كل شيء، إنّه يعادل كل ما قلته أنا عن مرض نها لولو، موتها، حزن العائلة، والدفن. إنك تعرف أنها توفيت فقط، سأضيف أن ذلك صادف في الهجمة الأولى للحمى الصفراء، لن أذكر شيئاً آخر سوى أني رافقتها إلى مثواها الأخير، وودعتها الوداع الأخير بحزن، دون دموع، ربما لم أبكِ لأني لم أكن أحبّها حقاً.

لاحظ كيف يمكن للمغالاة أن تقود لحجب الرؤية. لقد آلمني بعض الشيء جهلي بالوباء الذي كان يفتك بالناس شمالا ويمينا وذهب بحياة الفتاة الشابة التي كانت ستصبح زوجتي. لم أفهم ضرورة هذا الوباء كفهمي المتعثّر للموت. أظنّ أني شعرت أنّه أكثر سخافة حتى من الميتات الأخرى. وكان كوينكاس بوربا قد شرح لي فيما مضى أن الأوبئة مفيدة للأنواع البشرية كما أن الكوارث مفيدة لشريحة معيّنة من الأفراد. جعلني ألاحظ أنه على الرغم من أن المشهد قد يكون مروّعاً، إلّا أنّ هناك ميزة مهمة: وهي نجاة العدد الأكبر. لقد بادر بسؤالي وأنا في غمرة الحداد إذا لم أشعر ببعض السعادة ضمنياً لأني نجوت من براثن الطاعون لكن سؤاله كان سخيفاً جداً لدرجة أني لم أكبّد نفسي عناء الإجابة. منذ ذلك الحين لم أتحدث عن الموت ولن أتحدث عن قدّاس اليوم السابع، فداماسينو كان حزيناً جداً، بدا الرجل المسكين أنه محطّم، بقيت معه مدة أسبوعين بعد الوفاة. كان ما يزال في دائرة الصدمة، غير مستوعب لما حدث، وقال لي إن الألم الكبير في مصابه الذي قدره الله له، قد اشتدّ أكثر بسبب ما لحقه من أذى أصدقائه. ولم يقل شيئاً غير ذلك. وبعد مضي ثلاثة أسابيع عاد وتحدث في الأمر واعترف لي بأنه تمنى لو حظي بمواساة أصدقائه ووقوفهم إلى جانبه في محنته المؤلمة بفقدانه لابنته التي لا تعوّض. فقط اثنا عشر شخصاً وثلاثة أرباعهم من أصدقاء كوتريم هم فقط من كانوا برفقة التابوت الذي يحضن جثة ابنتي الحبيبة إلى قبرها. وأخرج ثمانين برقية تعزية، تناقشنا في الأمر وقلت له أنه يمكنه مع ازدياد نسبة الوفيات أن يغفر بسهولة هذا الإهمال الواضح لأمر الموت. هزّ داماسينو رأسه بطريقة مرتابة وحزينة.

تنهّد قائلاً: » أووه، لقد تخلوا عني «.

وقال كوتريم الذي كان ما يزال موجوداً: » الذين حضروا عزاءنا هم فقط الذين يكترثون حقاً لك ولنا، لو حضر الثمانون شخصاً كانوا سيحضرون بشكل شكلي وكانوا سيتحدثون عن مشاكل الحكومة، وعن عقاقير الأطباء، عن أسعار المنازل وأشياء أخرى من هذا القبيل.....«

استمتع داماسينو بصمت ثم هزّ رأسه قائلاً: » لكنهم على الأقل يكونون قد حضروا «.

المظاهر الشكلية

إنه لأمر عظيم أن تلتقط حكمة صغيرة من السماء، موهبة الربط بين الأشياء، القدرة على المقارنة بينهم، والكفاءة في رسم النهاية! فأنا أتمتع بسمو روحيّ، وممتنٌ لهذا السمو، حتى وأنا الآن في قعر قبري.

في الحقيقة، لن يتذكر أيّ رجل عادي آخر ما قاله داماسينو عندما ينظر فيما بعد إلى نسخة مطبوعة تعرض ست سيّدات تركيات. لكني تذكرت، كانوا ست سيّدات من مدينة القسطنطينية، يرتدين ملابس عصرية، يجُبنَ الشارع، يغطين وجوههن بخمارٍ لكنه ليس من القماش السميك بل خمار من القماش الشفّاف الذي يبدو وكأنه يظهر العينين فقط لكنه في حقيقة الأمر يشفّ ملامح الوجه بأكملها. كنت مستمتعاً بتلك البراعة في طقوس الإغراء الإسلامية، حيث يتم بهذه الطريقة تورية الوجه تبعاً للأعراف والتقاليد لكنه لا يخفيه بل يظهر مفاتنه. ظاهرياً لا يوجد أي نقطة مشتركة بين السيدات التركيات وبين داماسينو لكن إذا كنت شخصاً لمّاحاً وتمتلك نظرة ثاقبة (وأنا أشكّ أنك ستنكر ذلك) سوف تفهم أنه في كلا الحالتين هناك لمحة قاسية لكنها دمثة بنفس الوقت ترافق الرجل الاجتماعي...

نعم، إنها مظاهر شكلية محببة، إنك قوام الحياة، بلسم القلوب، وسيط بين الرجال، صلة بين السموات والأرض. إنك تمسح دموع أب، وتتحلى بغفران نبيّ. إذا غفا الحزن واستوعب الوجدان، فلمن تدين بهذه الفائدة؟ إن الاحترام الذي يبلغ قبّعة على رأس شخص ما لا يطال الروح، لكن اللامبالاة التي تتودد إليه تترك انطباعاً ساراً.

إن السبب في ذلك وخلافاً للصيغة القديمة البالية ليس في الرسالة التي تقتل لأن الرسالة تمنح حياة، إنما السبب هو أن الروح هي موضوع جدال، وموضوع شكّ وتفسير، وبالتالي هي موضوع الحياة والموت، أنت تعيش في مظاهر شكلية محببة...من أجل سلام داماسينو ومجد محمد.

****

في مجلس النوّاب

لاحظ جيداً عزيزي القارئ أني شاهدت النسخة التركية بعد عامين من كلام داماسينو في مجلس النواب، وسط صخب شديد وأثناء مناقشة أحد النوّاب لرأي لجنة الميزانية، حيث كنت أنا نائباً أيضاً آنذاك. وبالنسبة للذين يقرؤون هذا الكتاب فلا داعيَ للدخول أكثر في النقاش وشرح قناعتي، أما بالنسبة للآخرين فإن الأمر غير مهم على حد سواء. كنت نائباً ورأيت النسخة التركية وأنا أميل بجسدي إلى الخلف داخل المقعد بين زميل كانَ يروي قصة وآخر يرسمه بقلم رصاص على وجه مغلّف. كان المتحدث لوبو نيفيز.

لقد أوصلتنا موجة الحياة إلى الشاطئ نفسه كقارورتين لبحّارين غارقين. هو عالق في غضبه وأنا عالق في ندمي. إني أستخدم ذلك المعنى بشكل مثير، مريب أو مشروط لأقول إنه ليس هناك ما يغريني بدخول ذلك المكان سوى طموحي بأن أصبح وزيراً.

****

بدون ندم

لم أكن نادماً، لو كان لديّ معدّات كيميائية مناسبة، لكنت سأدرج صفحة كيميائية في هذا الكتاب لأنني سأحلل الندم إلى أبسط عناصره، بهدف معرفة السبب – بطريقة إيجابية وقاطعة– الذي جعل أخيل يجرّ جثّة خصمه حول جدران طروادة والسبب الذي جعل السيدة ماكبث تمشي حول الغرفة ملطخة ببقعة دم. لكن ليس لديّ أي أدوات كيميائية كما أنني لست نادماً حيال شيء ما. ما كنت أتمناه هو أن أصبح وزيراً للدولة. لذلك، في حال أردت إنهاء هذا الفصل، فعليّ القول إنني لا أرغب في أن أكون لا أخيل ولا السيدة ماكبث، وإذا كان يتوجب عليّ أن أكون أحداً منهما فالأفضل أن أكون أخيل، لأني أفضّل جر الجثة بعد الانتصار من أن ألطّخ ببقعة دم. سمعت أخيرا نداء بريام [1] واكتسبت شهرة عسكرية وأدبية لطيفة، لم أكن أستمع إلى نداءات بريام بل إلى خطاب لوبو نيفيز و لم أشعر بأي ندم.

---

١ بريام: ملك طروادة.

أن يكون مدرجاً في الفصل ١٢٢

المرة الأولى التي كنت قادراً فيها على التحدث مع فيرجيليا بعد تولي زوجها الرئاسة كانت في حفلة عام ١٨٥٥. كانت ترتدي ثوباً فاتناً من قماش أزرق مضلّع وكان الفستان يظهر كتفاها كما في المرات السابقة، لم يكونا طريّان كما في الماضي، ولكن في المقابل كانت ما تزال جميلة، جمال خريفيّ يزداد بحلول المساء. أذكر أننا تحدثنا كثيراً دون أن نذكر شيئا من الماضي. كل شيء كان واضحاً بالنسبة لنا، ربما تبادلنا تعليق غامض أو سطحي، أو ربما نظرة مبهمة، كان هذا كل شيء. ثم غادرتْ بعد فترة وجيزة. سرتُ خلفها لأشاهدها وهي تنزل على الدرج ولا أعلم ماذا يعني التخاطب البطني (أطلب السماح من علماء اللغة لاستخدامي هذا المصطلح الفجّ) تمتمتُ مستعيداً هذه الكلمة بعمق:

« إنّها مذهلة!»

كان يجب إدراج هذا الفصل بين الجملة الأولى والجملة الثانية في الفصل ١٢٢.

****

فيما يتعلّق بالافتراء

وحالما قلت ذلك لنفسي من خلال عملية التخاطر البطني، أو ما كان فقط رأياً بسيطاً وليس ندماً على شيء، شعرت بأحد يضع يده على كتفي، التفتُ وإذ به صديق قديم لي، ضابط بحريّ، مرِح، ماجنٌ في تصرفاته. ابتسم بسخرية وقال لي: » أيّها الخسيس، هل عُدت لذكريات الماضي، ها؟»

« فليحيا الماضي».

« من المؤكد أنك عدتَ لفعلتك السابقة».

« طبعاً، أيّها الوغد» قلت له ذلك وأنا أهزّ إصبعي في وجهه.

يجب أن أعترف أن هذا الحوار بيننا كان حواراً طائشاً، وخاصة ردّي الأخير عليه. وأعترف أنه كان حديثاً ممتعاً جداً لأن الطيش من سمات النساء ولا أتمنى أن أنهي هذا الكتاب دون أن أضع فكرة استقامة الروح الإنسانية في إطارها الصحيح. وفيما يتعلق بالمغامرات العاطفية، وجدت أن

الرجال يبتسمون علناً، أو إن كان لديهم مشاكل فإنهم ينكرونها تماماً وبأسلوب بارد، وبكلمة واحدة، وهلمّ جرا. في حين أن أقرانهم من النساء لا يعترفن أبداً ويمكنهن أن يقسمن على الإنجيل المقدّس أنه افتراء. سبب هذا الاختلاف هو أن النساء (ما عدا النظرية التي ذكرتها سابقاً والنظريات الأخرى) يستسلمن بدافع الحب، سواء كان حباً عذرياً على طريقة ستيندال، أو الحب الجسدي الخالص على طريقة السيدات الرومانيات على سبيل المثال، أو السلالات البولنزينة، أو سلالات اللابلاندر، أو الكافير، أو ربما تلك الموجودة في السلالات المتحضرة الأخرى.

لكن الرجال، وأقصد هنا الرجال الذين ينتمون للمجتمع الحضاري والراقي، الرجال الذين يجمعون غرورهم مع المشاعر الأخرى. بالإضافة إلى ذلك(وهنا أنا ما أزال أشير للقضايا المحرّمة) فإن النساء عندما يقعن في حب رجل آخر، يظنّ أنهن يخنّ دورهنّ، ولذلك يجب عليهن إخفاءه بأقوى المهارات، يجب تجميل الخيانة، في حين أن الرجال الذين يستمتعون بأنهم سبب هذا الانتهاك والانتصار على رجل آخر أيضاً، يكونون فخورين بمشروعية صنيعهم ويجتازون الأمر مباشرة إلى شعور آخر أقل قسوة وأقّل سريّة وهو تلك الحماقة الظريفة التي استحقوها بجدارة.

ولكن سواء كان شرحي صحيحاً أم لا، فهو كافٍ بالنسبة لي لأوقف الكتابة في هذه الصفحة وأتركها للزمن، ذلك أن حماقة النساء هي خدعة اخترعها الرجال. على الأقل، في الحب يكون صمتهن مطبقاً كصمت القبر، لقد ألحقوا بهن الضرر مرّات عديدة كونهن غير بارعات، ويضطربن أمام النظرات والإيماءات الموجة إليهن والتي لا يستطعن صدّها.

وهذا السبب الذي جعل سيدة عظيمة وصاحبة روح حسّاسة كالملكة مارغريت دي نافاري[1] أن تستخدم استعارة في مطرح ما لتقول إن جميع المغامرات العاطفية سينكشف أمرها عاجلاً أم آجلاً: « ليس هناك جرو مدرّب بشكل جيّد لدرجة أننا لا نسمع نباحه في نهاية الأمر».

****

١ الملكة مارغريت دي نافاري: زوجة الملك هنري الثاني وأخت الملك فرانسوا الأول ملك فرنسا، عاشت في الفترة ما بين (١٤٩٢ – ١٥٤٩) وكانت هي والملك فرانسوا مهتمان بالحياة الفكرية والثقافية والصالونات في عصرهم في فرنسا.

غير مهم

نلاحظ من خلال اقتباس ملكة نافار، يحدث أحياناً أنه عندما يرى شخص ما من شعبنا أحداً آخر منزعجاً، فمن المعتاد سؤاله: « من قتل جراءك؟» وكأنك تقول له: » مَن كشف علاقة حبّك وفضح مغامرتك السريّة، إلخ». لكن هذا الفصل ليس فصلاً مهماً.

****

مبدأ هلفتيوس

لقد توقفنا عندما حصل الضابط البحري على اعتراف مني بعلاقتي بفيرجيليا وهنا سأطوّر مبدأ هلفتيوس أو سأشرحه. كان من مصلحتي أن أبقى هادئاً، لأن إثبات الشكوك حول حادثة قديمة من شأنه أن يوقظ شيئاً من الكراهية الدفينة، وإثارة فضيحة تنتهي بلقب عشيق سريّ. وكان ذلك من مصلحتي في حال فهمت مبدأ هلفتيوس بطريقة سطحية. لكني سبق وشرحت أسباب الطيش الذكوري: قبل أن يكون لي مصلحة في السريّة، كان هناك مصلحة أخرى في الزهو فهو أكثر عاطفية وآنية. الأول كان انعكاساً، مع افتراض وجود القياس المنطقي السابق. الثاني كان عفوياً، غريزياً، قادماً من دواخل الموضوع.

وأخيراً، الأول كان له تأثير بعيد، والثاني تأثيره قريب.

الخاتمة: إن مبدأ هلفتيوس ينطبق على حالتي. لكن الفرق أنه لم يكن حالة من المصالح الواضحة بل حالة من المصالح الخفية.

خمسون عاماً

لم أخبركم بعد ولكن سأخبركم الآن أنه عندما كانت فيرجيليا تهبط على الدرج ولامس كتفي ذلك الضابط البحريّ، كان عمري وقتها خمسين عاماً. لذلك كانت حياتي هي التي تهبط على الدرج– أو أفضل جزء منها على الأقل، جزء مليء بالسعادة، بالإثارة، بالمخاوف، متنكراً بالاختفاء والازدواجية، لكن باختصار، من الأفضل أن نستخدم تعابيرَ مألوفة. على كل حال، إذا استخدمنا تعابير أخرى أكثر سمواً، فسيكون أفضل جزء هو الذي يدوم أو يبقى، كما يسرني أن أخبركم عنه في الصفحات القليلة المتبقيّة من هذا الكتاب.

خمسون عاماً! ألم يكن من الضروري الاعتراف بذلك. يساورك الآن أيها القارئ شعور بأنني لم أعد أمتلك ذلك الشكل الرشيق كما كنت في الأيام الخوالي. يجب أن أعترف لكم أني حزنتُ قليلاً في تلك الحادثة، عندما أوشكت محادثتي مع ضابط البحرية على الانتهاء وارتدى قبعته وغادر.

عُدتُ إلى الغرفة الرئيسية، شعرتُ كأني أرقص رقصة البولكا، سكران أو مخمور بالأضواء، بالزهور، بالشمعدانات، بالعيون الجميلة، ومحادثات فردية وهمية هادئة مليئة بالمرح. لست نادماً فقد استعدتُ شبابي، ولكن بعد نصف ساعة عندما غادرت هذه الحفلة الراقصة في الرابعة صباحاً، ماذا وجدتُ في داخل العربة؟ أعوامي الخمسين. كانوا هناك يلحّون عليّ، لم تكن تلك السنوات مخدرة من البرد ولا من مرض المفاصل ولكنها كانت قد جفّت من التعب وتتوق قليلاً للراحة في السرير.

ثم إنه وبالنظر فقط إلى النقطة التي يمكن أن تبلغها مخيلة رجل نائم، بدوتُ وكأني أسمع صوت خفّاش يصعد إلى سقف العربة: سيد براس كوباس، عودة شبابك كانت في الغرفة مع الشمعدانات والأضواء والحرير، أيّ باختصار مع أشخاص آخرين.

****

نسيان

والآن أشعرُ أنه لو قامت أيّ سيدة بقراءة هذه الصفحات لأغلقت الكتاب، ولن تكمله. لأنها ستدرك أن عشقي انتهي ولا فائدة من اهتمامها بالأمر.

خمسون عاماً! لم أسقم بعد ولكنها أيضاً لم تعد حيوية. بعد عشرة أعوام سأفهم ما قاله أحد الرجال الإنكليز، سوف أفهم أن « إن المسألة في عدم إيجاد أيّ شخص يتذكّر والديّ والطريقة التي يجب أن أواجه من خلالها نسياني) ضع ذلك الاسم في كبسولات صغيرة، النسيان!

من المناسب تقديم كل الاحترام لشخصية حقيرة جداً وهامة جداً، ضيف يأتي للحفلة في آخر لحظة، لكنه شخص معروف. فالسيّدة المبهورة بفجر هذا العصر تعلم ذلك والأكثر إيلاماً هو أنه غازل جمالها المتورّد خلال حفلة وزارة « بارانا» فهذا الآخر هو الأقرب للفوز وقد بدأتْ تشعر للتوّ أن الآخرين قد أخذوا مكانها في العربة. لذلك إن كانت فعلاً صادقة مع نفسها فهي لن تتمسّك بذاكرة ميّتة أو منتهية الصلاحية. لن تبحث اليوم في عيون الناس عن نفس الترحيب الذي حظيت به من قبل فالحياة متجددة ومليئة بأناس آخرين يعيشون زخمها بقلب مرح وخطوات رشيقة.

تتغيّر الأزمان، إنها تدرك أن هذه الزوبعة تحمل أوراق أشجار الغابات وأسمال الطريق دون استثناء أو رحمة. ولو أنها تملك ذرة فلسفة فلن تحسد أحداً بل ستشعر بالأسف على أولئك الذين أخذوا مكانها في العربة لأنهم أيضاً سوف يكونون بحاجة لمساعدة ذلك الخادم الذي يدعى النسيان. هذا المشهد هدفه تسلية كوكب زحل الذي ضجر من كل هذا.

****

عدم الفائدة

ولكن إمّا أن أكون مخطئاً، أو أنني كتبتُ فصلاً عديم الفائدة.

الشاكو

ليس تماماً. إن هذا الفصل يلخّص الأفكار التي كوّنتها عن كوينكاس بوربا في اليوم التالي مضيفاً أنني شعرتُ بالكآبة وبآلاف الأشياء المحزنة. لكن ذلك الفيلسوف الذي كان تصرّف بطريقة راقية، قد صرخ في وجهي لأني كنت حسب رأيه انزلق في منحدر قاتل من الكآبة.

« عزيزي براس كوباس، لا تجعل هذه الأوهام تتغلّب عليك. يا إلهي! يجب أن تكون رجلاً. كن قوياً، قاتِلْ، اقتحم، سيطر، الخمسون هو عمر العلم وبسط السيطرة، كن شجاعاً. لا تخدعني يا براس كوباس. ماذا ستفعل بهذا الإرث وأنت تنتقل من دمار لدمار ومن زهرة لزهرة؟ حاول أن تنقذ حياتك واعلم أن أسوأ فلسفة في الحياة هي فلسفة الشخص المنتحب الذي يستلقي على ضفة النّهر ويندب تدفق الماء المتواصل، لأن مهمته هو عدم التوقف. قم بتعديل القانون واستفد منه».

إنّ قيمة سلطة أيّ فيلسوف عظيم تكمن في أصغر الأشياء. إن كلمات كوينكاس بوربا كان لها فضل عظيم في إيقاظي من السبات الأخلاقي والذهني الذي كنت غارقاً فيه. دعونا ندخل في صلب الموضوع. دعونا ندخل إلى عالم السلطة فلقد آن الأوان لذلك. حتى ذلك الوقت لم أكن شاركت في المناقشات الكبرى. كنت أجامل منصب الوزير بوسائل الإطراء، أكواب الشّاي، العمولات والأصوات الناخبة. والمنصب لم يأت بعد. كنت بحاجة مُلّحة للقيام بخطاب ما.

لقد بدأت بعد ثلاثة أيام، وببطء، أثناء مناقشة ميزانية وزارة العدل حيث انتهزت فرصة الافتتاح لأسأل الوزير بشكل لطيف بأنه أليس من المفيد أن نقلّل من حجم حراس الشاكو الوطنيين. إن موضوع السؤال لم يكن صعب المدى ومع ذلك وضّحت كيف أن أفكار رجل الدولة لم تكن عبثية، واستشهدت بـ فيلوبيمين الذي أمر بتبديل دروع عساكره التي كانت صغيرة بدروع أخرى كبيرة وكذلك أمر بتبديل رماحهم التي كانت خفيفة جداً وهذه حقيقة توضح بأن التاريخ لم يسطّر أهمية فيلوبيمين في صفحاته. إن حجم الشاكو يتطلّب تغييراً جذرياً فهي ليست من أجل جعلهم يبدون أكثر أناقة وإنّما أيضاً ليكونوا أكثر صحة وسلامة. ففي الاستعراض العسكري الذي يقدمونه تحت أشعة الشمس الحارقة، تزداد حرارة أجسامهم لدرجة فتّاكة.

وبما أنها حقيقة معروفة جداً حيث كانت إحدى مبادئ أبقراط بأن يحافظ الشخص على برودة رأسه. فلقد بدا أنه من الوحشية أن تجبر مواطناً، من خلال مفهوم بسيط لارتدائه زياً موحداً، بأن يخاطر بصحته وحياته وبالتالي مستقبل عائلته.

ويتوجب على مجلس النوّاب والحكومة أن يتذكروا أن الحرس الوطني هم حصن الحريّة

والاستقلال وأن ذلك المواطن الذي يخدم بلده طواعية وبشكل دائم وشاق يمتلك الحق بأن يخفف هذا العبء بمرسوم يقتضي إعطاءه زياً خفيفاً ومناسباً. لقد أضفت قائلاً بأن الشاكو وبسبب ثقل وزنها تجعل رأس المواطن منخفضاً والأمة تحتاج لمواطنين مرفوعي الرأس، فخورين وهادئين في وجه السلطة. وختمت كلامي بهذه الفكرة: شجرة الصفصاف المنتحبة التي تحني أغصانها نحو الأرض، هي شجرة المقبرة. أما شجرة النخيل، المستقيمة والثابتة، هي شجرة البريّة والساحات العامة والحدائق.

تنوّعت الانطباعات التي خلفها الخطاب. فبالنسبة للصيغة، الفصاحة والمباشرة، الجزء الأدبي والفلسفي، فلقد كان هناك إجماع أن هذا الخطاب كان رائعاً وأنه لم يتمكن أحد من قبل أن يستخرج عدّة أفكار من الشاكو. ولكن بالنسبة للجزء السياسي الذي طرحته فالكثير من النواب اعتبره سيئاً، بعضهم اعتقد أن خطابي كان كارثة برلمانية. كما أخبروني مؤخراً أن بعضهم بات يعتبرني الآن من المعارضة، ومن بينهم حزب المعارضين في مجلس النوّاب الذين ذهبوا بعيداً بالتلميح بأنها اللحظة المناسبة لحجب الثقة. رفضت بقوة هذه التفسيرات، ليس لأنها تفسيرات خاطئة فقط، وإنما لأنها تطعن أيضاً الدعم البارز الذي أقدمه لمجلس الوزراء، وأضفتُ بأن الحاجة لتقليل حجم الشاكو لم يكن شيئاً عظيماً لدرجة أنه لا يمكن الانتظار بضعة سنوات على تنفيذه، وعلى أية حال كنت جاهزاً لوضع حل وسط في تخفض حجمها حيث سأكون راضياً بثلاثة أرباع إنش أو أقل. وفي النهاية حتى لو لم يتبنَّ أحد فكرتي، فإنه كاف بالنسبة لي أنني قد طرحت هذه الفكرة في البرلمان. ومع ذلك لم يضع كوينكاس بوربا أي قيودٍ على أفكاري وخطابي وقد أخبرني على العشاء بأنه ليس سياسياً ولا يعرف ما إذا كنت قد قمت بالعمل الصحيح أم لا. ولكن ما يعرفه هو أنني قمت بتقديم خطاب ممتاز ثم لاحظ أكثر الأجزاء المهمة، النقاشات القوية بالإضافة إلى ذلك التواضع، رغم المديح والثناء فهو شيء يليق حقاً بفيلسوف عظيم ثم بعد ذلك أخذ الموضوع على محمل الجد وهاجم الشاكو[1] بقوة وشفافية وانتهى حديثه بإقناعي بشكل فعّال وكبير بخطرها.

****

١ الشاكو: هي القبّعة التي كان يرتديها الفرسان أو الجنود والحرّاس، وهي قبعة مستطيلة الشكل وثقيلة.

إلى ناقد

عزيزي الناقد:

نعود عدّة صفحات للوراء حيث قلت بأنني كنت في الخمسين من عمري، وأضفت: يراودك شعور الآن أنني لم أعُد رشيقاً كما كان في الأيام الخوالي». ربما تجد ذلك تعبير مبهماً، لأنك تعرف وضعي الراهن، ولكنني ألفت انتباهك لبراعة هذه الفكرة. لا أعني أني الآن أكبر سناً مما كنت عليه عندما بدأت بكتابة هذا الكتاب فالموت لا يهرم أحداً. ما أعنيه هو أنه في كل مرحلة من مراحل السرد في حياتي قد اختبرتُ إحساساً مماثلاً، يا إلهي، هل يتوجب عليّ شرح كل شيء؟

****

كيف لم أصبح وزيراً للدولة؟

****

مكتبة
t.me/soramnqraa

ما الذي يفسّر الوضع السابق؟

هناك أشياء من الأفضل أن تقال بصمت، كما في حالة الفصل السابق. سيفهم هذا الأمر الأشخاص الفاشلون. إذا كان شغفك للسلطة هو أقوى المشاعر على الإطلاق، كما يقول البعض، فتخيّل مدى اليأس والألم والإحباط الذي شعرتُ به في ذلك اليوم حين خسرتُ مقعداً في مجلس النوّاب. تلاشت كل آمالي، وانتهى مستقبلي السياسي، قام كوينكاس بوربا بتسجيل هذه الملاحظة من خلال القراءة الفلسفية التي قام بها، وجد أن طموحي لم يكن شغفاً حقيقياً للسلطة لكنه كان مجرد نزوة عابرة، رغبة باللهو والتسلية فقط. برأيه أن ذلك الشعور الذي لم يكن أقل عمقاً من الشعور الآخر وهو شعور مزعج أكثر لأنه يشبه حب النساء للدانتيل وتسريحات الشعر، ثم أضاف قائلاً: كان كروموبل أو نابليون بونابرت يتوقان للسلطة لنفس السبب وقد حصلوا عليها إمّا بالقوة المحضة وأما بالطرق الأخرى. إنّ مشاعري لم تكن كذلك و لم تكن تمتلك القوة نفسها ولذلك لم تحصل على النتيجة المرجوة ولهذا كان هناك مصيبة كبرى وخيبة أمل عظيمة وحزن عميق. إن مشاعري حسب المذهب الإنساني....».

« اذهب إلى الجحيم أنت ومذهبك الإنساني»، قاطعته بهذه الجملة وأكملت:» أنا متعب، وأتقزز من الفلسفات التي لا تنفع بشيء». إن قسوة مقاطعة فيلسوف يتحدث هي بمثابة الإهانة، لكنه غفر لي غضبي. لقد أحضروا لنا القهوة وكانت الساعة الواحدة ظهراً حيث كنّا في مكتبي، غرفة جميلة تطل على الفناء الخلفي، مليئة بالكتب الرائعة والتحف الفنيّة من بينها فولتير، تمثال برونزي لفولتير الذي كان حينها يبدو مبتسماً ابتسامة صغيرة ساخرة وهو ينظر إليّ، ذلك الوغد، كان ذا مكانه رائعة. والشمس في الخارج، هذه الشمس العملاقة التي لم أعد أذكر ما إذا كان كوينكاس بوربا يمزح أو يقول شعراً، عندما وصفها بأنها إحدى وزيرات الطبيعة. هبّ نسيم بارد منعش وكانت السماء زرقاء. وفي كل نافذة، وكانوا ثلاث، هناك قفص معلّق وبداخله طيور تغرّد الأوبرا الريفية الخاصة بها.

كان كل شيء يبدو وكأنه مؤامرة الأشياء ضدّ الإنسان: وبالرغم من أني كنت في غرفتي وأنظر إلى فناء منزلي، جالساً في كرسيّ وأستمع لطيوري بجانب كتبي، تضيئني أشعة شمسي إلّا أن كل هذا لم يكن كافياً لشفائي من شوقي لذلك الكرسي الذي لم يكن لي.

****

الكلاب

« حسناً، ما الذي تخطط لفعله الآن؟» سألني كوينكاس بوربا وهو يضع كوب القهوة الفارغ على إحدى حواف النافذة.

« لا أعلم، سأختبئ في تيجوكا وأبتعد عن الناس. أشعر بالعار وبالاشمئزاز. العديد من الأحلام يا عزيزي بوربا، لديّ العديد من الأحلام لكنني لم أحقق شيئاً منها».

« لم تحقق شيئاً منها؟» قاطعني كوينكاس بوربا بنظرة ساخطة.

ولكي يخفّف عني قليلاً، اقترح أن نخرج خارج المكتب. ذهبنا باتجاه إنجينهو فيلو سيراً على الأقدام وكنّا نتحدّث ونتفلسف حول بعض الأمور. لن أنسى أبداً كم كانت تلك النزهة مفيدة، كانت كلمات ذلك الرجل العظيم كشراب باندي منشّط للحكمة. أخبرني بأني لن أستطيع الهرب من المعركة وإذا كان المنبر الخطابي قد أغلق في وجهي، فيتوجّب عليّ إنشاء جريدة. لم يكن خطابه تصعيدياً حيث وضّح أن اللغة الفلسفية يمكنها، الآن وفيما بعد، أن تحصّن نفسها في وجه اللغة العامية التي يستخدمها الناس.

« أنشئ جريدة» قال لي، « وخفف من هذه الورطة الفاضحة».

« إنها فكرة رائعة، سوف أنشئ جريدة وأمزقهم إلى آلاف القطع، سوف....».

« عليك أن تناضل، يمكن أن تحطمهم وقد لا تحطم شيئاً لكن المهم أن تناضل، فالحياة عبارة عن نضال، حياة بلا نضال مثل بحر ميت في مركز النظام العالمي».

وبعد لحظات صادفنا قتال كلاب، قد تبدو هذه المشاجرة أمراً عادياً في نظر أي إنسان، لكن كوينكاس بوربا جعلني أتوقف لأشاهد هذه المبارزة.

كانت معركة بين كلبين ولاحظت وجود عظمة تحت أقدامهما، وكان هذا طبعاً سبب المعركة، لكن يسعفني انتباهي لأن ألاحظ أن هذه العظمة خالية من اللحم. كان الكلبان يعضّان بعضهما من أجل عظمة جرداء دون لحم، بعواء قويّ، وغضب يقدح من عينهما...

وضع كوينكاس بوربا عكّازه تحت إبطه وبدا متحمساً، وكان يقول لي من وقت لآخر « أليس هذا جميلاً؟»

كنت أرغب في الذهاب من هناك والابتعاد ولكنني لم أستطع. كان كوينكاس بوربا متشبثاً

بمكانه و لم يغادر إلّا عندما انتهى القتال تماماً وأحد الكلبين قد هُزم وتم عضّه وذهب لمكان آخر حتى يسدّ جوعه. لاحظتُ أنّ كوينكاس بوربا كان سعيداً حقاً مع أنه قد احتفظ بهذه المشاعر كما يليق بفيلسوف عظيم. لقد جعلني ألاحظ جمال المشهد مستعيداً سبب القتال بين الكلبين، وأنهى حديثه بالقول إن الكلبان كانا جائعين ولكن الحرمان من الطعام لا يساوي شيئاً بالنسبة للدوافع الفلسفية العامة. و لم ينسَ أيضاً أن يتذكّر أنه في بعض أنحاء العالم يحدث هذا المشهد على نطاق أوسع: البشر هم الوحيدون الذين يقاتلون الكلاب من أجل العظام وأنواع أخرى من الطعام أقل لذّة. إنّه قتال معقّد جداً لأن الدخول إلى دائرة المعركة يعتبر ذكاء بشريّاً مصحوباً بكامل الحكمة التي حصل عليها على مرّ العصور.

****

الطلب الغامض

حدثت أشياء كثيرة في رقصة واحدة، ويقصد رقصة المينيويت وهي رقصة فرنسية شعبية، كما يقول المثل! أشياء كثيرة حصلت في قتال كلاب، ولكنني لم أكن مريداً مستسلماً ولا ضعيف قلب يتوانى عن تقديم أي اعتراض مناسب أو أكثر. أخبرته ونحن في طريقنا حول بعض الشكوك التي تساورني. فلم أكن مقتنعاً من فائدة القتال مع الكلاب من أجل وجبة طعام. جاوبني بلطافة استثنائية: « من المنطقي أكثر أن يقاتل الإنسان أناساً آخرين من أجل وجبة طعام، لأن حالة المتنافسين متساوية والأقوى هو من يحصل على العظمة في النهاية، ولكن لماذا لا يكون مشهداً عظيماً أن يتصارع البشر مع الكلاب من أجل وجبة طعام؟ فالجراد يُؤكل طواعية، وكما في القول المقدّس: الرب يسير أمامك (سفر التثنية) أو ما هو أسوأ، كما في حالة حزقيال، لذلك تكمن الفظاعة في كل ما يصلح للأكل.

يبقى أن نرى إن كان من المهم للإنسان أن يقاتل من أجل الطعام بحكم الضرورة الطبيعية أو أن يفضّل ذلك كنوع من الطاعة الدينية حيث إنّ القتال متبادل ومنسجم مع الحاجة في حين أن الجوع أبديّ مثل الحياة والموت.

وعندما وصلنا إلى باب منزلي، استلمت رسالة قالوا لي إنها من سيدة. دخلنا المنزل وقام كوينكاس بوربا، برزانة فيلسوف، بالذهاب لقراءة أغلفة الكتب التي كانت على أحد الرفوف في الوقت الذي كنت أقرأ فيه الرسالة التي كانت من فيرجيليا:

صديقي العزيز:

الدونا بلاسيدا مريضة جداً وأطلب منك معروفاً أن تحاول فعل شيء لها. إنها تسكن حالياً في بيكو داس إسكادينهاس. هل يمكنك أن ترى ما إذا كنت قادراً على الحصول لها على قبول بدخول مستشفى ميسريكورديا للعلاج؟

صديقتك المُخلصة.

لم يكن هذا الخط هو خط يد فيرجيليا الناعمة والمتقنة ولكنه كان خط يد ثقيلة وغير مستقرة. حرف (ف) في التوقيع لم يكن سوى خربشة لا معنى له. لذلك كان من الصعب جداً أن أنسب هذه الرسالة لفيرجيليا. لقد قلّبت قطعة الورق هذه مراراً وتكراراً! مسكينة السيدة بلاسيدا! لكني تركت لها خمس كونتوسات عند الشاطئ في غامبوا ولا أستطيع الفهم لماذا....

« سوف تفهم» قال لي كوينكاس بوربا وهو يسحب كتاباً من الرّف.

« ماذا؟» سألته مندهشاً.

« سوف تفهم أنني لم أكن أخبرك سوى الحقيقة، باسكال هو أحد أجدادي الروحيين وحتى وإن كانت فلسفتي قيّمة أكثر من فلسفته، لكن لا يمكنني الإنكار أنّه كان رجلاً عظيماً. ماذا كان سيقول الآن في هذه الصفحة؟»

كانت قبعته ما تزال فوق رأسه وعصاه في يده وأشار بإصبعه إلى المكان. ماذا كان ليقول؟ يقول بأن الإنسان يمتلك ميزة عظيمة تفضّله عن سائر المخلوقات في العالم كله، هو يعلم أنه سيموت في حين أن هذا العالم لا يدرك هذه الحقيقة. هل ترى؟ الرجل الذي يتصارع مع كلب من أجل عظمة يتميّز عن الكلب بأنه يعلم أن الكلب جائع وذلك هو ما يجعل هذا القتال عظيماً كما قلت لك.

« هو يعلم أنّه سيموت» إنها عبارة عميقة ولكني أعتقد أن عبارتي أكثر عمقاً: هو يعلم بأنه جائع، لأن حقيقة الموت تحد من قدرة البشر على الفهم، إن جاز التعبير. كما أن إدراك فكرة الانقراض تحلّ لفترة وجيزة ثم تنتهي إلى الأبد، في حين أن الجوع يمتاز بالعودة مجدداً وإطالة حالة الإدراك لذلك. يبدو لي (وأنا أجازف بأن أكون وقحاً) بأن معادلة باسكال هي أقل شأناً من معادلتي، دون التقليل من شأن الفكرة بحدّ ذاتها كونها عظيمة على كل حال أو التقليل من باسكال كونه رجلاً عظيماً».

لن أذهب

وبينما كان يعيد الكتاب إلى الرّف أعدتُ قراءة الرسالة مرة أخرى، وفي العشاء لاحظ أني لا أتحدث كثيراً، أمضغ الطعام دون أن أبلع، أحدّق في زاوية محددة في الغرفة، أو في حافة الطاولة، أو في الطبق أو في حشرة غير مرئية، فقال: » ما خطبك؟ لستَ على ما يرام، أنا متأكد أن السبب هو تلك الرسالة». لقد كان محقاً، شعرتُ بالضيق حقاً وانزعجتُ من طلب فيرجيليا.

لقد أعطيت الدونا بلاسيدا خمس كونتوسات. وأراهن أن لا أحد بسخائي أو أكرم، لقد أعطيتها خمس كونتوسات! ماذا فعلت بكل هذا المبلغ؟ هل أهدرته سدى؟ من الطبيعي أن تكون أهدرته في حفلات كبيرة، وهي الآن مستعدة لدخول مستشفى ميسريكورديا على نفقتي. فلتمت في أيّ مكان آخر. كما أنني لا أعلم أو لم أتذكر اسم هذا الحيّ « بيكو داس إيسكادينهاس»، لكن استناداً للاسم الذي يبدو زقاقاً، تخيلت أنه زاوية مظلمة وضيّقة من المدينة، هل يتوجب عليّ الذهاب إلى هناك ولفت انتباه الجيران، وهل يتوجّب عليّ أن أطرق الباب وأفعل كل هذا. يا له من إزعاج. لن أذهب!!

****

فائدة نسبية

طلبتُ مشورة الليل، فهو مؤنس جيّد للإنسان، فتودد إليّ بلطف بأن أمتثل لرغبات سيدتي السابقة. « يجب سداد الفواتير المستحقة» قلت ذلك وأنا أنهض.

ذهبت إلى منزل الدونا بلاسيدا بعد الإفطار، وجدت كومة عظام متدثرة بملابس بالية، تقبع فوق سرير قديم ومقزز. أعطيتها بعض المال. وفي اليوم التالي رافقتها إلى ميسير كورديا حيث توفيت هناك بعد أسبوع.

إني أكذب، لقد وجدتها ميّتة في الصباح، غادرت هذه الحياة خلسة بالطريقة نفسها التي أتت بها. سألت نفسي مجدداً كما في الفصل الثامن والسبعين، إذا كان هذا هو السبب الذي جعل سكستون[1] الكاتدرائية وصانعة الحلوى قد جلبا الدونا بلاسيدا إلى العالم في لحظة عاطفية خاصة. لكني أدركت على الفور أنه لولا وجود الدونا بلاسيدا فإن علاقتي بفيرجيليا كانت ستتوقف أو تنقطع فجأة في أوج فورانها الكامل. ولمثل هكذا سبب كانت فائدة حياة الدونا بلاسيدا. إنّها فائدة نسبية، أنا أعترف. لكن بحق الشيطان ما هو الشيء الكامل في هذا العالم؟

---

١ سكستون: موظف في الكنيسة مهمته صيانة مبانيها أو المقبرة المحيطة بها.

تكرار بسيط

أمّا بالنسبة لمبلغ الخمسة كونتوس، فإنه أمر لا يستحق الذكر، ما حدث أن جارها المعماري تظاهر بحب الدونا بلاسيدا وقد نجح في إثارة مشاعرها وتزوجها. وبعد مضي بضعة أشهر، اخترع بعض الصفقات التجارية، وجنى الأموال من مدخراتهم، ثم هرب بالأموال، لكنه أمر لا يستحق الذكر. إنها حالة تشبه كلاب كوينكاس بوربا: إنه تكرار بسيط لفصل سابق.

****

البيان التمهيدي

لقد كان فكرة الصحيفة فكرة مهمة. وضعت البيان التمهيدي، والذي كان عبارة عن منهج سياسي لتطبيق الإنسانية. وبما أن كوينكاس بوربا لم يكن قد نشر كتابه بعد (والذي استكمله عاماً بعد عام) فقد اتفقنا أن لا نشير إليه. إلّا أنه طلب الحصول مني على تصريح موثّق وموقّع يثبت من خلاله أن هذه المبادئ السياسية المنشودة في البيان مقتبسة من كتابه الذي لم يطبع بعد.

لقد كان بياناً انتقائياً، حيث وعد بعلاج شاف للمجتمع، وبوضع حدّ للانتهاكات الإنسانية، الدفاع عن مطالب الحريّة وصونها. دعا إلى العمل والتبادل التجاري. اقتبس عن جيزو[1] وريدلو رولين وانتهى البيان بهذا الوعيد: والذي وجده كوينكاس بوربا ضيّق الأفق وسخيفاً: « إن المذهب الجديد الذي نعلنه سوف يسقط الحكومة الحالية لا محال». يجب أن أعترف أنه بالنظر إلى المناخ السياسي في تلك اللحظة فقد بدا لي البيان وكأنه تحفة فنيّة. وهذا الوعيد الذي كان خاتمة البيان، والذي وجده كوينكاس بوربا سخيفاً، تبيّن له بأنه مشبع بأرقى أشكال الإنسانية وسلّم لاحقاً بهذا الأمر. وبما أن هذه الإنسانية لم تستثن شيئاً، فإن حروب نابليون والقتال بين الماعز، وفقاً لمذهبنا السياسي، يتمتعان بنفس المهابة مع فَارق أن جنود نابليون يعلمون أن الموت ينتظرهم، لكن الأمر لم يكن ذلك مع الماعز كما يبدو. لذلك كنت فقط أطبّق قاعدتنا الفلسفية على الظروف: « تريد الإنسانية أن تحل محل الإنسانية لمواساة الإنسانية».

« إنّك مريدي المفضّل، خليفتي» قهقه كوينكاس بوربا قائلاً بشيء من الحنان لم أسمعه في صوته حتى ذلك الحين. « يمكنني أن أقول كما قال محمد العظيم: لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته. صدّقني يا عزيزي براس كوباس، إنها الحقيقة الأبدية، قبل أن يتشكّل العالم وبعد أن تنتهي العصور».

---

١ جيزو: مؤرّخ وسياسي فرنسي (١٧٨٧- ١٨٧٤)

وعلى الفور أرسلتُ بياناً سرياً إلى الصحافة أخبرتهم فيه أنه خلال أسابيع قليلة ستخرج إلى العلن جريدة معارضة يحررها الدكتور براس كوباس. أمسك كوينكاس بوربا الذي قرأت له البيان قلماً وأضاف هذه العبارة بأخوّة إنسانية حقيقية قائلاً بعد أن لفظ اسمي: » إنّك أحد أكثر الأعضاء الرائعين في مجلس النوّاب السابق».

وفي اليوم التالي زارني كوتريم في منزلي، كان مستاءً لكنه حاول إخفاء ذلك، مما انعكس على هدوئه وبهجته. كان قد شاهد أخبار الجريدة وشعر أنه يتوجب عليه كصديق وقريب تقديم النصيحة لي بالعدول عن أمر كهذا.

لقد كان خطأ، خطأ فادحاً، لقد أشار لي كيف سأضع نفسي في موقف صعب، ومن المؤكد أن إقدامي على هذا الأمر سيؤدي إلى إقفال البرلمان في وجهي. لم تكن الحكومة ممتازة في رأي كوتريم، ولا في رأيي، لكنها طبعاً استمرت على هذا النحو ولفترة زمنية طويلة. لذلك ما الذي يمكن أن أكسبه من انقلابي المعارض على الحكومة؟ كان يعلم أن بعض الوزراء يحبونني، لم يكن مستحيلاً أن مكاناً شاغراً.... قاطعته عند هذه الجملة لأخبره أني فكرت ملياً وكثيراً في الخطوة التي سأقدم عليها ولن أتراجع أبداً. وصلنا في نقاشنا بأن اقترحت عليه أن يقرأ البيان، لكنه رفض بشدّة، قائلاً إنه لا يريد أن يشاركني ولو ذرة جنون واحدة. وكرّر قوله: » إنّه جنون مطلق»، « فكّر في الأمر لعدّة أيام وسترى أن الأمر محض جنون». وهذا كان رأي سابينا أيضاً عندما التقيتها في المسرح ليلة البارحة، تركتْ ابنتها في المقصورة مع كوتريم وأخذتني بعيداً إلى الممر.

« ماذا تفعل يا أخي براس؟» سألتني بأسى، « أيّ نوع من الأفكار هذا الذي يجول في ذهنك، يمكنك أن تستفزّ الحكومة دون سبب عندما....»

شرحت لها أن قيامي بهذا الأمر ليس من أجل أن استجداء مقعد في البرلمان، إن فكرتي هي إسقاط الحكومة لأنني لا أظن أنها كفوءة وجديرة بتقديم الحلول وليس لديها طريقة فلسفية معيّنة. لقد تعهّدتُ على الملاطفة وحتى على اللغة المفعمة بالطاقة، لأني لم أستلذ يوماً بنكهة الألفاظ النابية. نقرت سابينا برؤوس أصابعها على مروحتها، وأخفضت رأسها، وعادت إلى الموضوع مجدداً تارة تناشدني بالعدول عن الأمر وتارة تستخدم الترهيب.

قلت لها لا، لا، لا. وبخيبة أمل لامتني أني فضّلت نصيحة أشخاص غريبين وحاسدين على نصيحتها ونصيحة زوجها. وختمت كلامها قائلة: » افعل إذن ما تراه مناسباً لك، لقد قمنا بواجبنا تجاهك». وعادت إلى مقصورتها.

المشكلة المستعصيّة

طبعت الجريدة، وبعد أربع وعشرين ساعة ظهر في الصحف الأخرى تصريح لكوتريم يقول في جوهره إنه نظراً لكونه لا ينتمي لأيّ من الأطراف التي قسّمت الوطن، وجد أنه من المناسب أن يوضّح أنه ليس له أي علاقة أو أيّ دور مباشر أو غير مباشر في صحيفة أخ زوجته الدكتور براس كوباس والذي لم يوافق على أفكاره وتوجهاته السياسية. تبدو الحكومة الحالية بالنسبة له (مثلها مثل أي حكومة أخرى مؤلفة من أعضاء متساوين في الكفاءة) تعمل من أجل تحقيق المصلحة العامة.

كان من الصعب أن أصدق ما رأته عيناي، فركتهم مرة أو مرّتين وأعدتُ قراءة البيان المطلسم والغريب الذي أتى في غير وقته، إذا لم يكن له أي علاقة بالأحزاب، فماذا يعنيه حدث بسيط كطباعة جريدة؟

ليس كل المواطنين الذين يجدون الحكومة سيئة أو جيّدة يبادرون بتصريحات كهذه للصحافة، ولا يتعيّن عليهم القيام بذلك حقاً. إن تدخّل كوتريم في هذا الأمر يبدو لغزاً، لم يكن أقل غموضاً من هجومه الشخصي. كانت علاقتنا حتى ذلك الحين لطيفة وظريفة، لم أتمكن من تذكر أي خلاف بيننا، أو أيّ أثر أو أيّ شيء آخر بعد مصالحتنا. على العكس تماماً، كل ما أذكره كان حسن نيّة حقيقي تجاهه. على سبيل المثال، عندما كنت نائباً تمكنت من تأمين بعض عقود توريد الذخيرة البحرية له، وقد تابع هو إنجاز تلك العقود بانضباط وحرص عاليين، وكان قد تحدث معي قبل أسابيع بخصوصهم، قائلاً إنه بعد مضي ثلاث سنوات أخرى سيدرون عليه مائتي كونتوس.

حسناً، إذن، ألا يجب أن يكون هذا المعروف الكبير كافياً ليمنعه من الظهور في الصحف وتشويه سمعة أخ زوجته؟ لا بدّ أنّ الأسباب الكامنة خلف تصريحه أسباب قوية جعلته يقوم بفعل سفاهة وجحود في الوقت نفسه. يجب أن أعترف، أنها مشكلة مستعصية.

****

نظرية المنفعة

مستعصية جداً لدرجة أن كوينكاس بوربا لم يستطع معالجتها على الرغم من بحثها فترة طويلة وبرغبة كاملة. ثم أنهى كلامه:» إلى اللقاء إذن، ليس كل مشكلة فلسفية تستحق خمس دقائق من الاهتمام».

أما فيما يتعلق باستهجان نكران الجميل، رفض كوينكاس بوربا نقاشه، ليس لأنه أمر غير وارد، بل لأنه سخيف حيث لا يندرج ضمن استنتاجات الفلسفة الإنسانية الخيّرة.

وقال:» لا يمكنك أن تنكر حقيقة واحدة وهي أنه في فعل الخير تكون متعة الفاعل دائماً أكبر من متعة المستفيد. فما هي هذه المنفعة؟ هي أن تنهي حرماناً معيّناً للشخص المستفيد. وبمجرد أن يظهر التأثير الجوهري، يتوقف الحرمان، حيث إن الكائن يعود إلى وضعه السابق؛ أيّ يعود إلى حالة اللامبالاة. افترض فقط أن خصر سروالك ضيّق جداً. ومن أجل التخفيف من هذا الضغط تقوم بفكّ زر السروال، وهنا تتنفس، تستمتع بلحظة متعة، والكائن الحيّ يعود إلى لامبالاته، تنسى أنت الأصابع التي أجرت العملية وفكّت الزر. من الطبيعي أن تتلاشى الذاكرة، لأن لا شيء يدوم، فهي ليست كوكباً جوّياً، إنها بحاجة للأرض.

وبالطبع، إن الأمل بالحصول على صنائع أخرى، يجعل المستفيد في حالة تذكُّر دائمة للشخص صاحب الصنيع الأول، لكن هذه الحقيقة– والتي هي أيضاً من أكثر الحقائق سموّاً ويمكن للفلسفة أن تجد فيها طريقها– قد تم تفسيرها من خلال ذاكرة الحرمان، أو باستخدام صيغة أخرى، باستمرار الحرمان في الذاكرة، والذي من شأنه أن يعيد ألم الماضي ويحثّ الوعي لتقديم علاج مناسب. أنا لا أقول إنه لن يحدث شيء ما حتى بدون هذه الظروف، فذكرى المعروف سوف تلح وتستمر مصحوبة بعاطفة معيّنة تكون أكثر أو أقل حدّة. ومهما يكن فهي أشياء غريبة وبدون قيمة في عيون الفيلسوف».

جاوبته قائلاً:» لكن إذا لم يكن ثمّة سبب يجعل ذكرى المعروف تدوم في ذاكرة الشخص المستفيد، فمن الواجب أيضاً ألّا تدوم في ذاكرة الشخص صاحب المعروف، وأريد منك أن تتكرم وتشرح لي هذه النقطة».

جاوبني كوينكاس بوربا:» لا يمكن شرح ما هو واضح بحد ذاته، لكن سأضيف شيئاً واحداً، يمكن تفسير استمرار ذكرى الصنيع لدى الشخص الذي يقوم به على أساس طبيعة المنفعة ذاتها وتأثيراتها. في الموضع الأوّل ثمة شعور بالمأثرة الخيّرة ونتيجة لهذا يتشكّل الوعي الذي يخوّلنا للأفعال الخيّرة. في الموضع الثاني، تتشكّل قناعة بالتفوّق على الآخر، تفوّق في الحالة والإمكانيات، وهذه واحدة من أكثر الأشياء الممتعة منطقياً على الإطلاق بالنسبة للكائن البشري وفقاً لأفضل الآراء. لقد أثار إيريسموس الذي كتب بعض الأشياء الجيدة في كتابه « في مدح الحماقة» الانتباه إلى الرضا الذاتي بالإشارة إلى حمارين، يفرك أحدهما نفسه أمام الآخر. لا يمكنني أبداً تجاهل هذه الملاحظة من فيلسوف مثل إيريسموس، لكن يتوجب عليّ قول ما لم يقله

إيريسموس، على سبيل المزاح، إنه في حال فرك أحد الحمارين نفسه بشكل أفضل من الآخر، فستظهر بعض علامات الرضا في عينيه. لماذا تنظر المرأة الجميلة كثيراً في المرآة سوى لأنها تجد نفسها جميلة، وبالتالي يمنحها هذا الأمر تفوّقاً معيّناً على عدد كبير من النساء أقل جمالاً منها أو قبيحات جداً؟ وينطبق هذا المثال على الضمير، حيث ينظر إلى نفسه في كثير من الأحيان فقط عندما يرى نفسه جميلاً، كما أنه لا يندم على أي شيء آخر سوى لرعشة ضمير يرى نفسه بغيضاً. لا تنس أنه نظراً لأن كل شيء هو عبارة عن انعكاس بسيط للإنسانية، فإن المنفعة وانعكاساتها هي ظواهر رائعة جداً».

****

التعاقب والانتقال

إن كل مغامرة، ارتباط، أو عمر يتضمّن دورة حياة كاملة. الرقم الأول في ورقتي ملأ روحي بصحوة هائلة توجتني بالأكاليل وأعادت حيوية الشباب لي. بعد ستة أشهر دقّت ساعة الشيخوخة وبعدها بأسبوع دقت ساعة الموت، التي كانت سريّة مثل حادثة وفاة الدونا بلاسيدا.

تنهّدتُ بعمق مثل رجل عاد من رحلة طويلة في صباح ذلك اليوم الذي وجدت فيه الورقة ميّتة. لذلك لو كنت أقول بأن الحياة البشريّة تغذّي حيوات أخرى عابرة مثلما يغذي الجسد طفيلياته سواء كانت هذه الحيوات سريعة الزوال أو لا، فلا أعتقد أنني أقول شيئاً منافياً للعقل بشكل كامل. ولكن كي لا نجازف بصورة ليست بالدقة والكفاءة المطلوبة، فأنا أفضّل صورة فلكية مثل: قيام الإنسان بحركات مزدوجة من الدوران والانتقال، ليدير عجلة اللغز الهائل. إنها صورة بأيام غير متساوية مثل أيام كوكب المشتري وبهذا يشكلون عاماً أطول أو أقصر. في اللحظة التي كنت أنهي فيها حركتي الدورانية كان لوبو نيفيز يختم حركته الانتقالية، لقد مات وهو ينتعل حذاءه فوق العتبة الوزارية، لقد دارت الشائعات لأسابيع بأنه كان سيصبح وزيراً. وبما أن هذه الشائعة قد أزعجتني كثيراً وكنت أحسده على ذلك، فليس من المستحيل أن خبر وفاته منحني الهدوء والسكينة والراحة، ودقيقة أو دقيقتين من السعادة. قد تكون السعادة كلمة مبالغاً فيها ولكنها كانت الحقيقة، أقسم أن هذا كان حقيقياً، هذه كانت الحقيقة على الدوام.

حضرت جنازته. وجدتُ فيرجيليا في غرفة الموتى تبكي عند التابوت. عندما رفعت رأسها كانت تنتحب حقاً. وقبل ذهاب الجنازة إلى المقبرة عانقت فيرجيليا النعش كأن مصيبة قد حلّت بها، فقام الناس بسحبها وإبعادها عن التابوت. كانت دموعها حقيقية وصادقة، ذهبتُ إلى المقبرة

ولكي أكون صريحاً، لم أرغب بالتحدث كثيراً، شعرتُ وكأن حصاة علقتْ في حنجرتي أو في عقلي. والأهم من ذلك كله، في المقبرة، عندما ألقيت كمية كبيرة من ألجير التابوت في أسفل القبر، أصابني صوت ألجير الثقيل بقشعريرة كانت سريعة وذات وقع حقيقي ومزعج. وبعد لحظات أصبح للظهيرة ثقلاً ولوناً باهتاً مثل الرصاص، المقبرة والملابس السوداء...

****

فلسفة المرثيات

ابتعدت عن المجموعات المتجمهرة وتظاهرت بأني أقرأ المرثيات المكتوبة على القبور، بالإضافة إلى أني أحب قراءتها. تعتبر المرثيات بالنسبة للأشخاص العصريين تعبيراً عن الأنانية السريّة الورعة التي تدفعنا لننجو من شبح الموت أو على الأقل لننجو من ذلك الطيف الذي مرّ بنا. قد يكون ذلك هو أصل الحزن الذي لا عزاء له للذين يعلمون أن أمواتهم يقبعون في أرض غريبة ويشعرون أن رائحة العفن الغريبة قد وصلت إليهم.

****

عملة فيسباسيان

لقد ذهبوا جميعاً وكانت عربتي هي الوحيدة التي ما تزال تنتظر صاحبها. أشعلت سيجاراً وتركت المقبرة خلفي. لم أستطع أن ألقي خلف ظهري ما حدث في مراسم الجنازة ولا أن أزيل صوت نحيب فيرجيليا من أذنيّ.

كان نحيبها يحمل صوتاً غامضاً وغريباً ينذر بحصول مصيبة. فيرجيليا التي خدعت زوجها بصدق تنتحب الآن من أجله بصدق وهنا يصبح لدينا مزيج معقّد لم أستطع فهمه ولا تتبّع مساره بشكل واضح. على كل حال عندما وصلت إلى المنزل وكنت أنزل من عربتي، فكّرت أن هذا المزيج ممكن وسهل أيضاً.

أيّتها الطبيعة المطواعة! إن ضريبة الحزن هي مثل عملة فيسباسيان: مجهولة الأصل ويمكن جمعها من الشّر والخير على حد سواء. قد تدين الأخلاق تواطؤي هذا، هذا لا يقدّر بثمن أيها الأصدقاء الحقيقيون عندما تذرفُ الدموع بصدق، إنّها الطبيعة المتكررة.

الغريب

بدأت أشعر بالاضطراب وفضّلت أن أنام. نمتُ وحلمتُ بأني حاكم. واستيقظت مع هذه الفكرة بأني حقاً حاكم. كان يروقني أحياناً تخيّل هذه التناقضات في الأماكن، الأوضاع والمعتقدات. منذ عدّة أيام كنت قد فكرتُ بفرضية الثورة السياسية والدينية والاجتماعية التي ستحوّل رئيس الأساقفة في كانتواريا إلى جابي ضرائب بسيط في بيتريوبوايس. قمت بإجراء حسابات مطولة لأكتشف ما إذا كان جابي الضرائب سيلغي رئيس الأساقفة أو ما إذا كان رئيس الأساقفة سيرفض مهنة جابي الضرائب أو أي جزء من رئيس الأساقفة سوف يتبقى منه إذا أصبح جابي ضرائب أو ما هو المقدار الذي سوف يمكّن جابي الضرائب من الاندماج مع رئيس الأساقفة وهكذا... على ما يبدو إنها أسئلة مستعصية ولكنها في الواقع يمكن حلّها بشكل ممتاز إذا اعتبرنا أنه يوجد لدينا أسقفان في أسقف واحد، أحدهما ثور والأسقف الآخر. سيكون كل شيء على ما يرام، وسأصبح أنا حاكماً. كانت مجرّد خزعبلات ومع ذلك أخبرت كوينكاس بوربا بها، الذي نظر إليّ بحذر وأسف وكان ودوداً جداً وهو يخبرني بأني مجنون. لقد ضحكت في البداية ولكن هذا الاتهام من الفيلسوف غرس شعوراً مخيفاً في داخلي. اعتراضي الوحيد على اتهام كوينكاس بوربا هو أنه لم أشعر أني مجنون، ولكن بما أن الناس المجانين عادة لا يدركون بأنهم مجانين، لذلك فهذا الاعتراض بلا جدوى. وانظروا الآن إن كان هناك أساس للاعتقاد السائد بأن الفلاسفة هم رجال بعيدون جداً عن الأشياء الجميلة.

في اليوم التالي أرسل كوينكاس بوربا شخصاً غريباً ليقابلني. لقد عرفته، وكنت مذعوراً على كل حال، تصرف معي بكياسة ووقار كبيرين وقد استأذن للمغادرة بكل مرح وهذا ما شجعني لأن أسأله ما إذا كان حقاً يعتقد أني مجنون.

« لا » قال لي.

« هناك قلة من الرجال الذين لديهم القدرة على التحكم بملكتهم العقلية مثلك ».

« إذا لقد كان كوينكاس بوربا مخطئا؟ »

« تماماً » وعندها « على العكس، إذا كنت صديقه.....أنا أطلب منك أن تشغُل انتباهه...الآن... ».

« يا إلهي! هل تعتقد أن رجلاً بهذه الروح الفلسفية...! ».

« لا فرق في ذلك، فالجنون يمكنه دخول أي منزل ».

يمكنكم تخيّل مصيبتي، هذا الرجل الغريب بالنظر إلى تأثير كلماته، لقد أدرك أنني صديق كوينكاس بوربا وحاول التخفيف من وطأة التحذير. لقد لاحظ أنه قد لا يكون شيئاً مهماً، وأضاف أنه حتى أيّ ذرّة حماقة، بعيداً عن كونها مؤذية، تعطي الحياة نكهة خاصة. بما أني رفضت ذلك الرأي بشيء من الرهبة، ابتسم الغريب وأخبرني شيئاً لم يكن عادياً على الإطلاق. ما قاله يستحق فصلاً كاملاً وحده.

****

سفن بيرايوس

قال لي الغريب: » لا بدّ أنك تذكر ذلك المعتوه: الأثينيّ الشهير الذي تخيّل بأن جميع المراكب التي تدخل إلى ميناء بيرايوس[1] هي مُلكه. لم يكن سوى فقير بائس، لم يمتلك حتى حوضاً لينام فيه ديوجانس[2] ولكن تلك الملكية الوهمية للسفن تساوي جميع العملات في هيلاس[3]، حسناً، جميعنا نمتلك رجلاً أثينياً مجنوناً في داخلنا، وأيّ شخص يقسم بأنه لا يمتلك على الأقل مركبين أو ثلاثة مراكب في عقله، فلتعلم أنه يكذب».

« حتى أنت؟» سألته.

« حتى أنا» أجاب.

« حتى أنا أيضاً». قلتُ له.

« أجل حتى أنت. وكذلك خادمك، إذا كان ذلك الرجل الذي ينفض السجادات على النافذة هو خادمك».

في الحقيقة لقد كان ذلك الرجل واحداً من الخدم وكان ينفض السجّاد عندما كنا نتحدث في الحديقة المجاورة. لاحظ الغريب أن الخادم قد فتح جميع النوافذ على مصراعيها وأبقاها مفتوحة، رفع الستائر وكشف الغرفة المفروشة ببذخ حتى أصبحت مرئية من الخارج ثم ختم كلامه قائلاً: » ذلك الخادم القديم يعاني من الهوس الأثينيّ. يعتقد أن السفن ملك له، ساعة من الخيال التي تمنحه السعادة العظمى على هذه الأرض».

---

١ بيرايوس: مدينة يونانية.

٢ ديوجانس: فيلسوف يوناني.

٣ هيلاس: الاسم القديم لليونان.

أثر عاطفيّ

قلت لنفسي، إذا كان هذا الغريب على حق، فليس هناك ما يثير الشفقة في كوينكاس بوربا، لكن المسألة هي مجرد اختلاف في درجة الجنون، وإن وما يزال من المناسب أن نراقبه وأن نمنع دخول أية هواجس أخرى إلى عقله.

****

ازدراء العبودية

لقد اختلف كوينكاس بوربا مع الغريب بشأن الخادم وقال: «يمكن أن تنسب الهاجس الأثيني في خادمك على أنه صورة من الخيال، ولكن هذه الأخيلة ليست أفكاراً أو ملاحظات مأخوذة من الطبيعة. ما يمتلكه خادمك هو عبارة عن شعور نبيل ويتماشى تماماً مع قوانين المذهب الإنساني:» إنه ازدراء العبودية. وهدفه أن يجعلك ترى بأنه ليس خادماً لأي شخص».

ثم أثار انتباهي إلى الحوذيين في المنازل الفخمة، هم أكثر تعجرفاً من أسيادهم، وخدم الفنادق الذين يعتمد اهتمامهم بالضيوف على أساس المكانة الاجتماعية للضيف... وهكذا.

وأنهى حديثه قائلاً إن كل ذلك كان تعبيراً عن عاطفة نبيلة ورقيقة، إنه دليل كامل على أن الإنسان، حتى عندما يلمّع الأحذية، في كثير من الأحيان يكون راقياً.

****

مرحلة مشرقة

« أنت إنسان عظيم» صرخت فيه، ملقياً يديّ حول عنقه، وبالفعل، كان من المستحيل تصديق أن رجلاً عميقاً مثله يمكن أن ينال منه الجنون. هذا ما قلته له بعد أن عانقته، كاشفاً له عن شكوكي الغريبة. لا يمكنني وصف أثر الانطباع جرّاء مصارحتي. أذكر أنه ارتعد وأصبح شاحباً.

في ذلك الوقت تقريباً تصالحتُ مجدداً مع كوتريم، دون أن نتوصّل إلى السبب الذي جعلنا نفترق. جاءت المصالحة في وقتها المناسب، لأن العزلة كانت ثقيلة عليّ، والحياة كانت عبارة عن ضجر في أسوأ حالاته ذلك لأني كنت بلا عمل. بعد ذلك بوقت قصير دعاني كوتريم للانضمام إلى « الرتبة الثالثة» لكني لم أكن لأقدم على شيء دون استشارة كوينكاس بوربا.

قال لي بوربا: » امض إذا أردت، لكن أحاول حالياً ضم الجزء المتعلّق بعقائدي وطقوسي الدينية إلى فلسفتي. يجب أن تكون الإنسانية ديناً أيضاً، يجب أن تكون دين المستقبل، وأن تكون الدين الحقيقي الوحيد. فالمسيحية دين جيّد للنساء وللمتسولين. والأديان الأخرى لا يُعوّل عليها بشكل كبير. وجميعهم متساوون في الابتذال والضعف. إن الجنة المسيحية منافسة مهمة لجنة المسلمين. وكما هو الحال بالنسبة لعقيدة النيرفانا البوذية، ليست أكثر من مجرد مفهوم للمشلولين. سوف ترى ماذا يعني الدين الإنساني، إن الاستيعاب النهائي للدين، المرحلة الانقباضية، هي مرحلة إعادة تشكيل المادة، وليست مرحلة التدمير، إلخ. اذهب حيث تستدعيك الضرورة لكن لا تنس أنك خليفتي».

والآن أصبح لديك لمحة سريعة عن اعتدالي. انضممت إلى « الرتبة الثالثة» [1]. شغلتُ بعض المناصب فيها وكانت تلك المرحلة الأكثر إشراقاً في حياتي. ومع ذلك سأكون صامتاً ولن أقول أيّ شيء، ولن أتحدث عمّا قدمته للفقراء والعاجزين. أو التعويض الذي تلقيته، لا شيء، لن أقول شيئاً على الاطلاق.

يمكن للاقتصاد الاجتماعي أن يكون ذو فائدة إلى حد ما إذا عرضت أمامك كيف أن كل مكافأة خارجية لا تعني الكثير مقارنة بالمكافأة الذاتية والمباشرة. لكن هذا يمكن أن يكسر الصمت الذي أقسمت على الحفاظ عليه، بالإضافة إلى صعوبة تحليل ظاهرة الضمير، ومن ناحية أخرى، في حال قلت شيئاً واحداً فسيتوجب عليّ أن أخبر كل شخص تربطه صلة بالأمر وبهذا سينتهي بي المطاف بكتابة فصل عن علم النفس. سأذكر فقط أنها المرحلة الأكثر إشراقاً في حياتي، لكن صورها كانت حزينة، تصبغهم الرتابة بشيء من سوء الحظ، إنها رتابة مملّة كما المتعة، وربما تكون أسوأ. لكن الفرح الممنوح لأرواح المرضى والفقراء، هو تعويض ذو قيمة بعض الشيء. ولا تقل لي بأنه تعويض سلبيّ لأنه لا يحصل عليه إلا من يهتم به. لا. لقد حصلت عليه بطريقة انعكاسية ومع ذلك كان عظيماً، عظيماً لدرجة أنه منحني فكرة رائعة عن نفسي.

---

١ الرتبة الثالثة: يشير هذا المصطلح إلى أعضاء عاديين في الرهبانيات الدينية، الذين لا يعيشون في المجتمع بالضرورة لكنهم يشاركون في الأعمال الدينية.

مواجهتين

بعد مضي عدة سنوات، ثلاث أو أربع سنوات، كنت قد عملت بما فيه الكفاية وبعطاء كبير مما أعطاني الحق لأعلق صورتي في غرفة المقدسات. ثم أنهيت خدمتي. ومع ذلك لن أنهي هذا الفصل دون أن أذكر من شاهدت في مستشفى أوردر.. خمنوا من؟ مارسيلا الجميلة. شاهدتها تموت في نفس اليوم أثناء زيارتي لحيّ فقير من أجل توزيع صدقة. لا يمكنكم التخمين الآن، لقد وجدتُ زهرة الشجيرات، يوجينيا، ابنة الدونا يوسيبيا وفيلاسا، ما تزال عرجاء وحزينة كما تركتها. شحُب وجهها وأخفضت عينيها عندما رأتني لكن الأمر لم يتجاوز اللحظة، ثم رفعت رأسها مباشرة ونظرت إليّ بوقار. لقد أدركت أنها لن تقبل الصدقة من جيبي، مددتُ يدي لأسلّم عليها كما لو أني أسلّم على سيدة ثريّة، ردّت تحيتي ودخلت غرفتها الصغيرة وأغلقت الباب على نفسها، و لم أرها بعد ذلك أبداً. لم أعلم شيئاً عن حياتها أو ما إذا كانت والدتها قد ماتت أو عن الكارثة التي أوصلتها إلى فقر كهذا. كل ما أعرفه أنها كانت عرجاء وحزينة. وبهذا الانطباع المؤثر وصلت إلى المستشفى حيث كانت قد أدخلت مارسيلا في اليوم السابق، رأيتها تلفظ أنفاسها الأخيرة بعد نصف ساعة، قبيحة، هزيلة وعاجزة...

****

نصف جنون

لقد أدركت أني كبُرت وأحتاج إلى بعض القوّة، لكن كوينكاس بوربا غادر إلى ميناس جيرايس قبل ستة أشهر وأخذ أفضل فلسفاته معه. عاد بعد أربعة أشهر وجاء إلى منزلي في صباح أحد الأيام وفي نفس الحالة التي رأيته فيها في باسيو بابليكو. الفرق أن نظرته كانت مختلفة، لقد كان معتوهاً. أخبرني أنه من أجل إنسانية كاملة عليه أن يحرق مخطوطه بأكمله وأن يبدأ بكتابة مخطوط فلسفي جديد. لقد انتهى من الجزء العقائدي على الرغم من أنه لم يكتبه. لقد كان الدين الحقيقيّ للمستقبل.

« هل تُقسم بإنسانيتك؟» سألني كوينكاس بوربا.

« أنت تعلم أني أقسم».

وبالكاد خرج صوتي من صدري، بالإضافة إلى أني لم أكن قد اكتشفت الحقيقة القاسية بأكملها. لم يكن كوينكاس بوربا مجنوناً فقط بل كان يعرف أنه مجنون، وما تبقى له من هذا الوعي

بمثابة مصباح خافت في وسط الظلال المعتمة، وهذا من شأنه أن يهوّل الموقف إلى حد كبير. لقد أدرك أنه مجنون حقاً و لم يزعجه مرضه. على العكس من ذلك فقد أخبرني أن جنونه هو إثبات إضافيّ لإنسانيته، حيث بهذا الأسلوب كان يكذب على نفسه. ألقى على مسامعي فصولاً طويلة من الكتاب، والأنتيفات [1]، والتراتيل الروحية. حتى إنه مضى في رقصة مقدّسة اخترعها من أجل الطقوس الإنسانية. إن هذا الحزن الساميّ الذي ارتقى به أصابت قدميه برعشة خيالية متفردة.

وفي أوقات أخرى كان يتجهم عابساً وموجهاً نظره إلى زاوية معيّنة بعينين تهيمان في الفراغ. عيناه اللتان كانتا لفترات طويلة، عبارة عن شعاع متواصل لعقل سوف يلمع، عينان حزينتان كسيل دموع... لقد توفي في منزلي بعد ذلك بوقت قصير، مُقسماً ومكرراً أن ذلك الألم كان وهماً وأن بانغلوس، بانغلوس المغرر به لم يكن معتوهاً كما افترض فولتير.

****

سلبيات

وقعتْ الأحداث المسرودة في الجزء الأول من هذا الكتاب بين موت كوينكاس بوربا وموتي. وكان الجزء الأساسي هو اختراع ضماد براس كوباس، والذي مات معي بسبب المرض الذي اجتثّ مني. أيّها الضماد الإلهي، أنت من منحني المكانة الأولى بين الرجال، مكانة تفوق مكانة العلم والثروة لأنك كنت مصدر إلهام حقيقي ومباشر من السماء.

جرت الأقدار عكس مشيئتنا، ولهذا يجب أن تبقوا جميعكم مصابين» بوسواس الوهم» إلى الأبد. هذا الفصل الأخير هو فصل السلبيات. لم أحرز الشهرة التي كنت أتمناها لمخترعي « الضماد»، لم أكن وزيراً، و لم أكن خليفة، و لم أعرف ما هو الزواج. الحقيقة أنه إلى جانب هذه النواقص، كان حظي جيداً أني نجوتُ من الشقاء، علاوة على ذلك، لم أعانِ من وفاة الدونا بلاسيدا أو من شبه جنون كوينكاس بوربا. إذا وضعنا الشيئين معاً، فمن المحتمل أن يتخيّل أيّ شخص أنه لم يكن هناك أي نقص أو إفراط، ويستنتج أني خرجتُ من الحياة بشكل عادل، إلّا أن هذه التخيلات خاطئة. لأنه عند وصولي إلى هذا الجانب الآخر من الغموض وجدتُ نفسي في توازن بسيط وهو الشيء السلبي الأخير في هذا الفصل من السلبيات وهو أنه لم يكن لدي أطفال و لم أنقل إرث بؤسنا إلى أي مخلوق.

مكتبة
t.me/soramnqraa

١ الأنتيف: هو عبارة عن هتاف غنائيّ قصير في المسيحية.

مكتبة
t.me/soramnqraa

470 يوم
غزة

ولد ماتشادو عام ١٨٣٩ في ريو دي جانيرو، يعتبر والـد الأدب البرازيلـي، ومؤسس الأكاديمية البرازيلية للآداب ورئيسها حتى وفاته.

وهـو من الأدبـاء الذيـن لم ينشغلـوا في أدبهم بفضـح الاستعمار كما فعل الكثـير من الأدباء إبان حكم المستعمر، بل انشغل بمشاكل مجتمعه الداخلية وانفتح على الحقيقة المريرة لتعريتها وكشفها.

تتنـاول هـذه الرواية حياة براس كوباس التي سردهـا بعـد موته وهـو في القـبر، بأسلـوب شيّق ورشيـق يبـدأ الكاتب مـن ولادته وتاريـخ عائلته الذي يحاول والده تلميعه باختلاق بعض القصص التـي تتناسب مع وضعهم الحالي ولإبعاد شبهة بائع البراميل عن اسم الجد الأول.

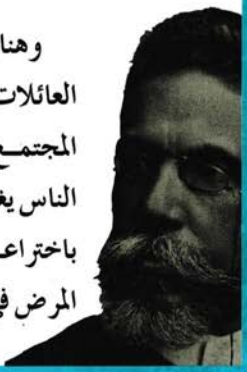

وهنا يبدأ الكاتب في كشف الزيف الذي تعيشه العائلات الثرية في أغلب المجتمعات، ليس فقط في المجتمـع البرازيلي، فالوهم الذي يعشش في عقول الناس يغـدو وسواساً ومرضاً يجد له براس علاجاً باختراعـه لضمـاد الوهم ظنـاً منه أنـه سينهي هذا المرض في المجتمع.

دار الجيدة للنشر والتوزيع